بمنة النأليف والتممة والنشر

والمرافق المالية

نقله إلى العربية

« الحقوق محفوظة »

[الطبعة الثالثة]

بآخر الكتاب قصيدتا البعيرة والوحدة للاصرتين

مطبعة لمذالنا لبعث والتيمز والنيثر

لجنةالنأليف والترجمة والنشر



نقله إلى العربية

احد سيالنات

« الحقوق محفوظة »

[الطبعة الثالثة]

بآخر الكتاب قصيدتا البحيرة والوحدة للامرنثين

مطبعة لمذالتأليف والتجمة والنيش ١٣٥٨ – ١٦٣١



لأمرتين

نشأته وحيات

ولد ألفونس د لامرتين بما كون سنة ١٧٩٠ من أبوين شريفين وقضى عهد الطفولة في (ميلي) تحت جناح أمه الرءوم ؟ ثم عهد بتقويمه وتعليمه إلى القسيس دمونت وهو رجل واسع الاطلاع أريحي الطباع خيالي النزعة ، فكان له في نفسه وحسه أثر جيل . ولما بما جسمه وقوى فهمه أرسل إلى مدرسة في ليون ، ثم أدخل بعد ذلك ممهداً لليسوعيين في ميلي فأتم به دراسته واستكل ثقافته ، ونال منه إجازة في الفلسفة . ثم عاد إلى أهله سنة ١٨٠٨ ، وقضت عليه ملكيته ألا يعمل في حكومة (الطاغية) بونابرت كما كان يسميه ، فأخلد إلى البطالة وسكن إلى العزلة واستغرق في المطالمة فغذى عقله وقلبه بما كتب روسو ، وتاس ، ودانتي ، و يترارك ، وشاكسير ، وملتون ، وشاتوبريان ، وأسيان . ثم تعلم الإيطالية والإيجليزية وعكف على دراسة تاسيت .

ثم حركته دواعى الصِّبى إلى الحب فنال من صفوه ومن رنقه ، وتامت قلبَه فتاة من (ميلى) فأولع بها ولوعاً خبل عقله وشف جسمه . فبعث به أهله إلى إيطاليا ليبرأ ويسلو . ولما عادت أسرة (البربون) إلى الملك سلك نفسه فى نظام الحرس ، ولكنه ما عَتم أن ترك الجيش إلى السياسة . على أن شيئاً من ذلك لم يشغله عن قرض الشعر ، فنشر منه ما أحله فى الذروة بين شعراء الغزل ، ومهد له الطريق إلى الأكادعية الفرنسية سنة ١٨٣٠ . وفي سنة ١٨٣٢ استأنف الرحيل ، فعبر البحر مع زوجه وابنته إلى الشرق ، فزار سور مة وفلسطين . وفي بيروت رزأه الموت في ابنت. وكان لامرتين إذ ذاك قد بلغ أوج الشهرة ، وتسور شرفات الجد ، وصافح كف الثروة ، فأتاه الخبر في بعلبك أنه انتخب نائباً عن دائرة (بيرج) فعاد إلى فرنسا ودخل مجلس النواب . ولما سئل عن الجهة التي سبتخذ فيها مقعده أجاب: (في السقف) إشارة إلى أنه فوق المنافسات الحزبية والأهواء السياسية . وفي سنة ١٨٤٨ رشح لرياسة الجهورية ، فظهر عليم لويس نابليون . وانقلب نظام الحكومة سنة ١٨٥١ فاعتزل السياسة . وطاردته في شيخوخته جيوش الفقر ، وفدحته أعباء الدين ، فنصب للعمل خسة عشر عاماً لا يفتر قلمه ولا يكل عزمه ، حتى كسب ستة ملابين فرنك قضى بها دينه . ثم مدت له الحكومة يد المعونة فرتبت له وظيفة مقدارها خسمائة ألف فرنك يُعطاها في كل سنة ما دام حياً . ولكن للنية لم تدعه يتمتع بهذا الرزق غير عامين ، ثم اخترمته سنة ١٨٦٩ في وحشة من الناس ووحدة من الأهل. فقد توفيت قبله زوجته وأولاده ، فلم يغمض عينه غير حفيدته

شعره

كان لامر تين يقدم فى رأيه رجل الفمل على رجل القول ويقول: (إن الشعر ينبغى أن يكون ساوة الفراغ وزينة الحياة ، ولكن قوت اليوم وملاك الميش هو الجهاد والممل). على أنه خلق بالطبع شاعراً غر البديهة فهاض القريحة ينطبق عليه ما قاله هو على لسان الشاعر المحتضر: «أنا أغنى ياسحابتى كما يتنفس الإنسان ، ويغرد العصفور ، ويعزف الهواء ، ويخر المـاء »

ولقد كان شعره الحى العميق المؤثر بدء عهد جديد للشعر الوجدانى . وطالما قال بلهجة الفخور : « إنه أبدل إلهة الشعر من قيثارتها ذات الأوتار السبعة أعصاب القلب البشرى يحركها ما لا عَدَّله من خلجات النفس وهزات الطبيعة »

كان تأثره داخلياً ذاتياً فها فكر فى غير نفسه ، ولا استمد إلا من حسه . ومن قوله : « إن الشعر غناء الباطن » . والحقيقة أن لا مرتين أواد أن يشعر فننى كما قال ابن الأثير في البحترى

فكان منذ صباه موسيق الجل ، موزون الكلم ، وثاب الخيال ، فياض الشعر ، يستمد وحيه و إلهامه من مصادر تلاثة : من نوازع القلب ، وجمال الطبيعة ، وحماسة الإيمان

مؤلفاته

للامرتين مؤلفات كثيرة لا يتسع المقام لتفصيلها وتحليلها . فبحسبنا أن نسردها سرداً . فئولفاته النظمية هى ديوان التأملات ، وخير ما فيه ما قاله فى « ألثير» أو چوليا

وديوان التأملات الأولى ، ونغات شعرية ودينية ، وتأملات شعرية . وجوسلين ، وسقطة ملاك

ومؤلفاته النثرية عى الرحلة الشرقية ، وتاريخ الجيروندين ، والمسارات: وهى كتابان لخص فيهما تاريخ شبابه وجلة حياته . أولها جرازيلا ، وثانيهما رفائيل ، ثم ديوان رسائله

لامربين والسيرة جوليا شارل

فى ربيع سنة ١٨١٦ أصيب لا مرتين بحرض فى الكبد ، فأشار عليه طبيبه بالاستجام فى إكس ، فوفد علمها فى أواخر أكتوبر . واتفق أن كان

فى المصحة التى نزل بها فتاة مريضة هى السيدة چوليا شارل زوج الأستاذ شارل ناموس المجمع العلمي الفرنسي . فكان أول ما لفته إليها وعَطَفَه عليها شحوبها البادى ، وهزالها الملح ، وعزاتها الساكنة ؛ ثم فتنه منها ملاهها الشاعرة

غرفة لامرتين في إكس ليبان

وثقافتها النادرة ، ولهجها البارعة وقسامتها الرائعة ، فانصل بها وأغرم بحبها ، وقضى معها ثلاثة أسابيع على ضفاف بحيرة بورچيه ، ذاق فيهما حلاوة الغزل الجيم ولذة الحب النبيل ورقة الشعور المحض . ثم عادت إلى باريس وعاد هو إلى (ميلى) ولم يرها ثانية إلا فى يناير سنة ١٨١٧ فى منزل زوجها بباريس ، فتساقيا كؤوس الحب مترعة صافية فى أرباض الماصمة الجميلة ورياضها مدة أربعة أشهر . ثم افترقا على أن يتلاقيا مع الخريف فى سثوا . ولكن القدر أبى عليهما هذا اللقاء . فذهب لاسرتين

إلى إكس ينتظر قدوم حبيبته ، فما وجد غير النبأ الفاجع بإشفائها على الموت ، فارتد إلى ماكون . وهناك أثاه نعيها . فهاله الحبر و برح به الحزن ، واشتد عليه الصبر ، وانبجس الدمع من عينيه والشعر من قلبه ، فأتى فى

چولیــــا حبیبة لامرتین

غرفة چوليا في إكس ليبان

> رثائها وذكراها بالمعجب المعجز . وقصائده فى (ألڤير) وهو اسمها المستعار أشد ما فى ديوان التأملات استهواء للشعور وامتلاكا للنفس كان لصلة هذه السيدة بلامرتين أثر عميق فى حياته ، وصدى مُدوّ

فى شعره . ور بماكان تأثيرها فيه لا يقل عن تأثير السيدة دفرنس فى روسو . وفيا نشره الأستاذ (دوميك) من رسائلها سنة ١٩٠٥ ما يؤيد ذلك وفى سـنة ١٨٤٥ أخذ يكتب ذكرياته عن هذه الحادثة تحت اسم رفائيل مستميناً بمذكراته ورسائله على ما ناله النسيان وعبث به الزمن ، فكان من ذلك هذا الكتاب الذي ستقرأه الآن



لامر نين

مف دمة

بغلم الأستاذ الدكنور منعور فهمى بك

ألف الكُتاب إذا ما وضعوا مقدمة لكتاب من الكتب أن يضمنوها بمض ما يحتويه هذا الكتاب من مبتكرات الفكر وأمهات السائل، وحسنا بفعلون ، فإن مقدمات الكتب هي مداخلها التي تهيي القارئ إلى ماسيقرأ ، وتعد فكره لما ينساب فيه من مختلف الماني وشتى الصور . على أنني تهيبت أن أضع مقدمة لقصة رفائيل عند ما تكرم أخي الأستاذ الزيات بدعوتي إلى ذلك ، لأني خشت ، إن أنا نحوت في هذا الكتاب منحى الكتَّاب فصغرت صورته ولخصت فكرته ، أن أكون قد شوهت شيئاً من جماله ، وأنقصت كثيراً من كاله . لأن قصة رفائيل جال حي وأدب راق وفن صاف ، وهيهات أن ينقل المرء إلى القارئ صورة من صور الجال الحي وهل تستطيع ريشة المصور مهما آتاها الله من الرقة والدقة أن تنقل صورة صحيحة لحسناء لابس الجال معناها ومبناها؟ أم هل يستطيع قلم الكاتب مهما نال منحسن الصياغة وقوة البلاغة أن يلخص كتابا فنيًّا من كتب الأدب، ويبسط للناس ما فيه من روعة وحسن ؟ إن من حاول ذلك شقى عليه الأمر والتوت به السبيل . إن خير ما أنصح به لن يريد أن يمتم نفسه بأثر الجال الحي أن أغربه برؤية ذلك الجال حياً . وخير ما ينتصح به من يريد أن يتذوق الأدب أن يقرأ ما كتب الأديب. وعلى ذلك ينبغي أن يقرأ هذا الكتاب من فأتحته إلى خاتمته .

على أنني فضلا عن تهيبي تلخيص ما في الكتاب تحرجت أن أدفع بقلى فيميدان ليس من فرسانه ، فإن الكتاب من وضع أديب كبير ، ومن ترجة أديب كبير، وجدير بقلى أن يدع مضار الأدب للأدباء، ويترائ عال البلاغة للبلغاء . ولكن حرص على إجابة الصديق سهل على مااستصعبت ، وهدى قلى إلى ما أحببت، فبدالى أن أقتطف من الكتاب بمض زهراته لأجملها دليلا على مافيه من سمو البيان ورقة الأدب. ولكن اقتطاف شيء منه ليس باليسير الهين ، فإن كل ما يقع عليه نظر القارئ لا يخلو من درة فكرية ، أو نكتة بيانية ، أو انسجام حسن ؛ فكيف لا يحار الإنسان إذا أراد أن يتخير شيئًا دون شيء ؟ وكيف يترك قطمة فيها عظمة الفكرة إلى أخرى فيها سحر اللسان ؟ ففي الكتاب ماشئت من دقة الوصف ورقة الغزل وعمق الفكرة وفلسفة الشك وصدق النقد ونشوة التصوف ونغمة الموسيق وحلاوة الإعان وطهارة الحب. وسترى في كل صفحة من صفحات الكتاب مثالا صادةا على كل ذلك . على أن أضوأ نواحي الكتاب وأجلى مظهر فيه رفع الحب إلى مستوى التقديس والعبادة . وقد يزعم نفر من الذين لا يرون في الوجود إلا الحقائق المادية أن ذلك الحب العذرى النقي هو اختلاق شاعر، أو تصوير مصور ، وينسى هؤلاء أن من خير وظائف الكتاب والفنانين أن يستنزلوا من الساء إلى الأرض عالمًا وسطاً بين عالم هذه الأرض المظلمة التي نسير عليها ونتأثر بحقائقها ، وبين عالم الكمال الذي تحن إليه النفس وتازع إليه الإنسانية ، و إن هذا العالم السهاوي الوسط يرفع الناس من حقائقهم الكدرة إلى حقائق أصنى، وإن ما يبدو من الأمور الناس بعيد المنال قد يدنون منه شيئًا فشيئًا مع مرور الزمن ، حتى إذا ما بلغوه أصبح حقيقة من وجودهم، وجزءاً من سلوكهم وأخلاقهم. ألم تكن تلك الحقائق الحلمية من شفقة على المظلوم ، واحترام لحقوق الإنسان ، خيالات الشعراء في المصر النابر فأصبحت اليوم حقائق أو شبه حقائق؟ إن المثل الساء من الأوض إلى الساء .

وشى و آخر فى الكتاب أعلى وأجل: ذلك هو الوصف بنوعيه الحسى والنفسى . ومنذ القدم انطوت النفس البشرية على نزعتين مخصبتين ظهرتا على أشد ما تكونان فى عصر النهضة الغربية ، وأمدتا بوحيهما وهديهما حركة للدنية . فالأولى نزعة لفيف من مفكرى النهضة إلى سبر أغوار النفس ليتبينوا ما فى عالمها من معان ، ويصفوا ما فى ساحتها من مشاهد.

وقدماً تطاولت الرقاب إلى معرفة خفايا النفس واستجلاء عالمها القدمى، وجابت محراواته طوائف الفلاسفة وفئات التصوفين، فإذا عاد إلينا أحدهم بنبأ لا نستخلص منه إلا أن في هذا السالم ما يدهش وما يحبر . لذلك تلجلبت ألسنة الحدثين عنه ، وكان جل ما نسمع من المتصوفة وأضرابهم رموزاً وتمتمة أشبه بر أقى المشعوذين والسحرة . وذلك لأن أكثر شؤون النفس مستفلق لا تجد المبارات إلى تصوير ممانيه سبيلا . ودام ذلك الأمون، حتى قيض الله للناس رجالًا من عصر النهضة جلوا بألسنتهم تلك الشؤون، وصفوا بأقلامهم تلك الشؤون، في حسب ذلك لفات الغربين عنصراً جديداً قواها وعاها ، لأن الكاتب الذي ينوص في أعماق نفسه ليتصيد المماني صافية جلية لا يلبث أن يعود إلى القراء بدور من الألفاظ المربة أن يعود في السحة اللغة فترداد الما وجلاء وقوة . أما الذي قالثانية فهي امتداد في أنسجة اللغة فترداد الماه وجلاء وقوة . أما الذي قالثانية فهي امتداد

العقل إلى معرفة الوجودات الحسية واكتناه طبائع هذا الوجود الخارجي. والرجود الخارجي هو هذه الأشياء الحيطة بنا ، وإن عالمها ليضيق بضيق علم الإنسان بميزاته ، وضآلة فهمه لصفاته ، وقصور نظره عن استطلاع جهاته ؛ ولكنه يجل ويتسع بمقدار إحصاء الرء الشؤونه ، وتناول بيانه لهذه المبارات التي بمقدار وفرتها تغيى أن الإنسان على قلته قد اتصل بالكثير، وعلى ضعفه قد جابه من هذا الكون المسير، فصاغ للموجودات المسيات وعلى ضعفه قد جابه من هذا الكون المسير، فصاغ للموجودات المسيات خفياً عليه . ولا شك أنه بقدر ما يبلغ الإنسان من معرفة هذين العالمين ، وبقدر ما يتقصى النظر في مهامه هذين الكونين ، يكسب لسانه و يرقى بياته . وفا الكتب المقدسة أن الله لما سوى آدم علمه الأسماء كلها . و لهل أبا البشر بلغ بتوفيق ر به درجة من الم لا يغوقها إلا علم الله . و ذلك لأن معرفته بلغ بتوفيق ر به درجة من الم لا يغوقها إلا علم الله . و ذلك لأن معرفته بلغ بتوفيق ر به درجة من الم لا يغوقها إلا علم الله . و ذلك لأن معرفته بلغ بتوفيق ر به درجة من الم لا يغوقها إليه أسماء الموجودات الخارجية ومعرفتها كان ذلك كال العلم ، وفضل الله يؤتيه من يشاء

فكا أن الأستاذ الزيات باختياره ترجمة هذه القصة التى استمدها كاتبها من جمال الطبيمة وجلال الإيمان وشرف الماطفة قد حرص على أن يقرئنا صحيفتين فيهما دقائق الكونين من عالم النيب والشهادة ، أو من عالم المعنى وعالم الحس . وبهذا الحرص قد خدم اللغة العربية أجل خدمة . وأى خدمة أعظم من أن يعين الإنسان لفته على بلوغ دقة الوصف ورشاقته ، وتحليل الشعور ودقته ؟

والخيول و كرّها ، ووصفوا أساليب القتال من مجاولة ومصاولة ، ومناظر الطبيعة من سحاب وهضاب و بر و بحر ، ووصفوا الخور ومزجوا بين بعض الأوصاف وألموا أحيانا بوصف حالات النفس من هيام وغمام ، أو زهادة وابتهال . لكن هذه الأوصاف التى توخوها لم تكن إلا جزءاً صغيراً علوا به القليل من حالات النفس ، وقدراً يسيراً كشفوه من مساحة هذا الكون الخارجي . فبعد مفي عصرهم امتدت معارف الإنسان إلى أرض غير هاتيك الأراضى وإلى سموات غير هاتيك السموات ، وتغيرت نفس الإنسان وتطورت ، وكسبت من العلم ورقت ، وأصبحت الأرض غير الأرض ، والساء غير النفس . فإذا نقل إلينا الناقلون كتابا حديثاً يتضمن أوصافا لأرض غير التى أحسها العرب ، ويحتوى مشاعر، غير التى أحسها العرب ، فإنهم بسملهم هذا يمدون في لفتنا سبباً ، ويضيفون إلى زهراتها العرب ، وإلى حياتها حياة

إن رفائيل أثر من آثار هذا المصر الحديث ، وثمرة من ثمار هذا الزمن المتأخر ؛ وهو آية من آثار هذا المسر الحديث ، وثمرة من ثمار هذا الزمن المتصوير الدقيق والتعبير الرقيق والخيال المتوثب . فلما تبينت أن لفتنا العربية لم تعجز عن نقل ما فيه من البدائع الحسية والمعنوية تذكرت نجة قامت حديثاً بين جاعة من أدبائنا يذهب بعضهم إلى أن اللغة العربية دون غيرها من لغات الغرب في تسمية الأشياء وتصوير الماني . ويذهب البعض الآخر إلى أن العربية قد وسعت المعاني كلها ، وتناولت جميع الأغماض ، من ذوات وأعماض . ويبدوني أن الغريق الأول قد أحاطوا بالكثير عما دون الغربيون من علم وأدب وفن ، ولكنهم ألموا بالقليل عما احتوته اللغة العربية الموربية المعتونه اللغة العربية

من المبارات ، وسجلته من الاصطلاحات ، فظنوا أنها لا تطاول اللغات الأخرى ، فأثموا في بعض همذا الظن ، ويتسوا من أن تحقق لهم العربية ما يجيش في صدورهم من المشاعر ، وما علموه وشهدوه من تباين الآيات ، وضروب الصناعات ، وشتى الخترعات . وكأن هذا الفريق فها يراه في أمر اللغة لا يخلو بمضه من غيرة صادقة علمها ، ورغبة محمودة في إعلاء منارها ، و بعضه عن افتتان بأدب الغرب فتنه عن لغته وأدبه ؛ و بعضه من جهل بما في العربية من ثروة وقوة وعظمة ؛ ومن جهل شيئًا عاداه . أما الجماعة الذين أفرطوا في الوثوق بخصائص اللغة العربية وحسبوا أنها قاربت كالها، وكادوا يقولون فيها ليس في الإمكان أبدع بما كان ، فإن أكثرهم بمن لم ينل حظًّا من العلم بما في آداب الأم ، وفاته أن فضل الله لم يكن ليتركز فى إنسان ، ولا يحبس على مكان دون مكان . ولمل أشد ما ورط هؤلاء الجاعة في هذه الدعوة نوع من العصبية المحمودة الأثر في حفظ مشخصات الأم وتقوية مقوماتها ، أو نوع من التعصب عقيم ، وركون إلى خود ذميم . وعندى أن هؤلاء وأولئك لو أنصفوا أنفسهم لوجدوا أنهم يقاتلون في غير عدو ، وأن نجيجهم لو تأملوا ليس له مبرر ، لأن اللغة ليست إلا نفوس الناس تتحرك فتجرى ألفاظاً على اللسان، وتعابير في الأذهان، عند ما تدفيها الدوافع والحاجات ، وتهزها هزات التقدم وأسبابه ، وترنحها سكراته وتطربها نغاته . فلو أن نفوس القوم طاوعت حاجات الزمن لطاوعت لغتهم أموره ، ووسمت مراميه ، واحتالت إلى ذلك بأنواع النحت والاشتقاق ، و بعث ما كان مقبوراً ، وكشف ما كان مستوراً ، ولوجد كل قائل ما يقول

وخير برهان على ذلك أن قصة رفائيل التي تحن بصددها يقرأها الإنسان

عربية سحيحة على أسلوب العرب، وبيان العرب، وفيها رخامة ألحانهم ورنات أوتارهم، وهي تحمل إلينا كل ما قاله وصوره كاتب من أكبر كتاب الفرنجة بلنة الفرنجة وأسلوبهم ولحنهم. أو يقول المتطرفون بعد ذلك إن اللغة جامدة ؟ أو يقول الجامدون بعد ذلك إن نفوسنا لا تتأثر بما تنقله إلينا اللغة من مشاعر الغير وأساليبه في تصوير الوجود ؟

* * *

بق على أن أقول كلة فى رفائيل من جهة الترجمة . وتوطئة لذلك أثبت هنا ما نقله البستاني فى مقدمة الإليادة عن العالمي عن الصلاح الصفدى قال :

دولقرجة في النقل طريقان : أحدها طريق يوحنا بن البطريق وابن الناهة الحمى وغيرها . وهو أن ينظر إلى كل كلة مفردة من الكلمات اليوفانية وما تدل عليه من المعني فيأتى الناقل بلفظة مفردة من السكلمات العربية ترادفها في الدلالة على ذلك المعني فينتها وينتقل إلى أخرى كذلك حقيقاً في على جلة ما يربد تعربيه . وهذه الطريقة دويتالوجهين : أحدها أنه لا يوجد في السكلمات العربية كالت تقابل جيم كالت اليوفانية ، ولهذا وقع في خلال التعرب كثير من الألفاظ اليوفانية على حلماً . الثاني أن خواص التركيب والنسب ألاسنادية لا تطابق نظيرها من لفة أخرى دائماً . وأيضاً يقم الحلل من جهة استمال الحيازات وهي كثيرة في جميم المفتات

الطريق الثانى فى التعريب طريق حين بن إسحاق والجوهرى وغيرها ، وهو أن يأتى بالجلة فيحصل متناها فى ذهنه ويسر عنها من اللغة الأخرى بجملة تطابقها سواه ساوت الألفاظ أم خالفتها ؛ وهذا الطريق أجود . ولهذا لم تحتج كتب حين بن إسحاق إلى تهذيب إلا فى العلوم الرياضية لأنه لم يكن قيا بها ، بخلاف كتب الطب والنطق والطبيمى والإلهى فإن الذى عربه منها لم يحتج إلى إصلاح »

ثم قال البستانى بعد ذلك: « و إن هذين الطريقين اللذين أشار إليهما الصلاح الصفدى منذ زهاء ستة قرون هما الذهبان المعول عليهما فى النقل حتى يومنا . وليس وراءهما مذهب ثالت فى التعريب الصحيح » وعندى أن الترجمة فن من أدق الفنون ينم عما للمترجم من سلامة الله و براعة القدرة ولاسيا في الترجمة الأدبية . وذلك لأن الفظ الواحد في لغة من اللغات قد يقابله لفظان أو ثلاثة في اللغة للترجم إليها ؛ وقد يحصل أن اللغة للتقول إليها ليس فيها من الألفاظ ما يعبر عن معنى يحمله لفظ واحد في لغة أخرى . وفي هذه الظروف تظهر قوة المترجم و براعته وفنه . إذ تراه يتخبر من الألفاظ الكثيرة لفظاً دون آخر ، إما لأن ما اختاره يكون أدق من جهة المغنى ، وإما لأنه فضلاً عن دقته يكون أوقع من حيث الموسيقى والانسجام . وتراه أحياناً يقدم الفاعل على الفعل ، والخبر على المبتدأ ، ويؤخر جهلة تقدمت ، ويقدم أخرى تأخرت ، دون أن يحيد عن القصد أو يخرج عن المعنى

ولقد وجدت فى ترجة رفائيل أن الأخ - شكر الله له جهوده - جمع فى منهاجه فى الترجة فضائل الأساليب جيماً . فلم يفرط فى نظام الكلات إذا سلم المعنى ، فكا أنه توخى بذلك خير ما فى أسلوب ابن البطريق والحصى ، ولم يفرط فى معنى إذا لزم الأمر التفريط فى مبنى ، فكا أنه توخى بذلك خير ماجاءت به طريقة حنين والجوهمى . وبين ترويجه للطريقين قد أفاده تمكنه من اللفتين المنقول إليها والمنقول عنها ، فتخير الألفاظ وصقل الأسلوب وأدى الأمانة بما يقتضيه الدقة والإيجاز . والخلاصة أن الأستاذ الزيات كان فناناً فى فنه ، موفقاً فى عمله

على أننى كنت أوثر أن يلتزم النقل عن نسخة واحدة بمينها ، فإن تفاوت الطبعات أدى لا مرتين إلى شيء من الزيادة والنقص فى بمض مواضع الكتاب ، ولذلك جاء بعضه منقولاً عن نسخة والبعض عن أخرى ، وبين الأصلين تفاوت يقتضى لمن يريد أن يراجع الترجمة أن يعالجها من نسختين وفى ذلك ما فيسه من مشقة . على أن عدم الحرص على نسخة واحدة لم يخرج المترجم الفاضل أبداً فى مواضع الزيادة أو مواضع النقص عن قول المؤلف وعمله ، ولم يكن فيا لم يحرص عليه مقترفاً صغيرة ولا كبيرة (١)

أسأل الله للأخ الكريم أن يوقع في عمله ، و يمد في أجله ، لينقل إلينا كثيراً من هذه الروائع الأدبية ، فإن الله قد خصه بما لم يخص به الكثير بن من النقلة من الوقوف على سر اللغات ، وآتاه من القدرة على صحيح الترجمة وفصيحا ما لم يؤته الكثير من متماطيها ، فلا يسعني إلا أن أرجوه أن ينقل إلينا الكثير والكثير ، فإنما ينقل بذلك لفتنا المربية إلى خطوات في سبيل تقدم افضلاً عما يغذى به عواطف شبابنا وعقول شيوخنا من هذه المثرات الشهية ، والزهرات العطرية ، التي تفتحت في رياض الغرب فكان لكل قطر من شذاها نصعب ما

منصور قهمى

⁽۱) معاملة مهمة للناقع : رأى لامرتين بعد الطبعة الأولى لرفائيل أمد فى بصفه الجمل سُيئاً من المبالغة أو بعضا من الحدة ، فتناولها بالحذف فى الطبعات الثالية ثم غير فى تقسيم الفصول ، ولحاده أمامى ساحة النرجمة هائاده الطبعثاد، ، فسكنت أوافقه مرة وأخالف أخرى ابتفاء الجمع بين فضيتى النسختين ، فاذا قوبلت الترجمة على احداهما دوده الأخرى ظهد فى بعضه الحواضع منها اختلاف يكوده فى النسخة الأخرى اتفاقا ولا شك

الاهداء

أخوى الحبيبين «ع.س» و «ح.س» المحال المكتاب اسمحالى أن أقدم إلى حبكا الخالد هذا الكتاب الخالد. فإن لكا جيل الأثر في إشراق سطوره، وانبثاق نوره: فمن عينك الساجية با أختاه فهمت لغة الدموع، ومن نفسك الصافية أدركت معنى الحساسة، ومن قلبك الفياض أحسست طهر المودة، ومن لسانك المذب اقتبست هذا البيان

أما أنت با أُخَى فن نظرتك الوديمة فهمت جال الطيبة، ومن بسمتك الرقيقة استشمرت إخلاص الأخوة، ومن ملامح وجهك الأبلج عرفت دلائل النبل

فأنها صورة ما فى هـنه الصفحات المشرقة من عواطف كريمة ومواقف عظيمة وشمائل حاوة ؛ ولولا أن عليكما طابع الشرق الجميل ، لقلت إنكما حوليا ورفائيل ٢٠ مارس ١٩٣٦

فانحة الكانب وخانمة رفائيل

ليس رفائيلُ اسم ذلك الصديق الذي كتب هذه الصفحات ، و إنحا هو عَلَم كنا كثيراً ما نطاقه عليه مزاحاً ودُعابة ، لأنه كان وهو في صدر شبابه ورونق يفاعته شديد الشبه بصورة لرفائيل (١٦) وهو غلام ، تجدها بروما في إيوان بر بريني ، و بغاورنسا في قصر بتي ، و بغرنسا في متحف أللشر . كذلك كنا ندعوه بهذا الاسم لأن أخص صفاته وأظهر بميزاته ، شمور قوى بالجال في الطبيعة والفن ، حتى لكأن أنفسه مراة للجال الحسى والمعنوى المبثوث فيا خلق الله وفيا صنع الإنسان . ومرجم ذلك فيه إلى حساسة بارعة كادت تبلغ حد المرض لولا أن كف من غربها الزمن ؛ فكنا نقول إن به مرض الداء ، إشارة إلى ما يسمونه مرض الوطن ، وهو ما يأخذ إن به مرض الوحدة والهم الفراق سكنه ووطنه . وكان هو يوافقنا على ذلك في ابتسامة رقية .

على أن هذا الحب الذى شغف قلب للجال كان طريقاً إلى بؤسهِ وشِقوته ، ولو كان فى غير حاله لكان سبيلاً إلى نبوغه وشهرته . فلو أنه أمسك الريشة لصوَّر «عذارى فُولِجْنُو^{۲۲)}» ، أو استعمل للِنحت لمُثَّلَ

⁽١) رقائيل صنريو هو أشهر المسورين وأقدر المثانين في الذهب الإجدامي Romantisme. تقلت فيه وفي صاحبيه لمو فار دفنسي وسيخائيل أنج عبقرية الذن في ههد النهية . وكان له المسكان الأسمى في بلاط البايين بولميوس التاني وليون العاشر . وقد شارك في زخر فة الفانيكان وترك على قصر عمره من الروائم الفنية ما ظفر بالتخليد ، ومع على التقليد . وله بأربينو سنة ١٤٨٧ وقوفي عام ١٥٧٠ ودفن بالبنطيون (٧) هي صور يختلفة الهذراء صور هارفائيل لكاتحرائية فو لجنو إحدى للمذ الإيطالية

«بشيشيه كا وفا(۱)» ، أو كان يعرف انه الألحان الدوّن رفيف الرج البحرية تهبّ أنّ شاكية على ألياف الصنوبر في إيطاليا ، أو أنقاس الفتاة الناعة النائمة تعلم بمن لا تريد أن تسميه . ولو أنه كان شاعراً لكتب مناجاة أيوب لله ، وموضحات هرميني لتاس (٢) ، وحديث روميو وجولييت في ضوء القمر لشكسبير ، وصورة هيدى للورد بيرن . وكان حبه للخير لايقل عن حبه للجال ؛ إلا أن حبه للفضيلة كان لجالما لا لكالما، ولنفاستها لا لقداستها . وما كان الطمع ظاهراً في أعماله ، ولكنه كان باطناً في خياله . فلو أنه عاش في عهد الجهوريات الأولى أيام كان الرجل يمو كله في جو الحرية كا يمو في عهد الجهوريات الأولى أيام كان الرجل يموكه في جو الحرية كا يمو المحسم المرسل في المواء الطلق والشمس الضحوك ، إذن لرق رق قيصر (٢) ، ولتكلم كلام ديمستين (٤) ، ولمات ميتة قاطون (٥) . ولكن جدّه الهيف العاثم ولتكلم كلام ديمستين (١) ، ولمات ميتة قاطون (٥) . ولكن جدّه الهيف العاثم

⁽۱) فى المتولوجياً أن بسيشيه فتاة بارعة الجال أحجها (أمور). وقد افتنالصورون والثانون تصويرها وتشليمها. ومن هؤلاء أنطوان كانوقا المثال الإيطال (۱۹۷ – والداون تقالون كانوقا المثال الإوران مطوقاً بذراعه خصر بسيشيه وهو يريها فراشة ، وعنله الآخر ممسكا بها يمنها من المقوط فى هلوية (۲) تاس شاعر إيطال قدير له كتاب خلاس أورشليم وهو من البدائم الحالدة فى سورنت سنة ١٩٤٤ وتوفى بائماً فقيراً سنة ١٩٥٥

⁽٣) يريد يوليوس قيصر القائد الروماني العظيم

⁽٤) دُعَــَتِنَ أَشَهُم خَطَاء الموفان . ولد بأتينا سنة ٢٨١ ق ، وأعب وهو صغير الناس منه لمستقر المستقر المستقر الناس المستقر وضعف سوته والنفة لمستقر الناس منه لمولا أن شبعه ساتيروس الممتل الشهير وأفهمه أنه لاينقصه إلاحسن الأداء وإجادة الإلقاء . فابنتى حجرة تحت الأرض واختنى فيها لميرن لسانه . وكان يحلق نصف وأسه لبرغ منهسه كلي المزدة ناك الحجرة . وكان يحمد الجبل عدواً أو برق صغراً على ساحل البحر وهو بلق أبياتاً من الشمر وفى فه بعض الحصى ليحل عقدة لسانه . وظل على تلك الحال سنين حتى ملك أعنة الفلوب بفصاحته ، ووقف فى وجه فيلس بدافع عن حرية بلاده ، وبذود عن استقلال شميه ، توفى سنة ٢٧٧ ق ، م

⁽٥) كاطون دوتيك هو خديد قاطون انسين ، ولد سنة ٩٥ ق.م واشتهر بدفاعه عن الحرية أمام استبداد قيصر . ثم اخترق جسمه بسيفه على أثر هزيمة طبسوس سنة ٤٦ ق م ، فكانت حياته ومماته رمزاً لشجاعة القلب ، ورباطة الجأش ، وشرف النفس

قمد به على الرغم منه فى دَعة البطالة وعزلة التأمل؛ فكان له جناح يبسطه و ينشره ، دون أن يجد حواليــه هوا، يحمله و يُعلَيره . ثم مات غريضَ الشباب وهو يلتهم الفضاء بالنظر دون أن يظفر منه بمجال ومَسْبَح !

لقد كان هذا العالَم فى دنياه خُلماً ، فعسى أن يكون هذا الحلم فى أخراه حقيقة !

أرأيت صورة الفتي رفائيل التي حدثتك عنها منذ قليل ؟ إنها صورة غلام ناشيء في السادسة عشرة من عمره ، على وجهه أثر من الشحوب وسَفُمْ قليل من شمس روما ؟ ولكن خديه لا يزال عليهما رُواء الصبي وزَغب الطفولة ، وكا نما يتألق بريق من النور على خَمَل بَشرته . مرفقه متكيء على منضدة ، وساعده منتصب تحت فوده الأيمن فاستراح الرأس على راحته ، وأصابعه الجيلة الوضع قد طبعت على الذقن والخد خطا خفيفاً أبيض . أما الفم فرقيق ساهم حالم ، والأنف دقيقُ ما بين المينين ضارب قليلا إلى الزرقة ، كا ثما رقة البشرة شفَّت عن لازَوَرْد الوريد ؛ والسينان ذواتا لون أزرق صاف قاتم كلون سماء الأبينينَ قبل الفجر ، تنظران إلى الأمام في طموح قليل إلى الساء ، كا تما تتبصران ما هو أسمى من الطبيعة ، وهما مشْبَعتان إلى أقصاها بالنور ، غُضلَّتان قليادٌ من الأشعة للغموسة في رُضاب الندى أو فيض الدامع ؛ والجبهة قوس يكاد يتم عقده ، ترى من وراشها اختلاج عضلات الذهن تحت البشرة الناعمة الرقيقة ؛ والصدغ مفكر ، والأذن منصتة ، والشعر مرسل فاح مقصوص لأول مرة على غير انتظام ، يلقى شيئًا من ظلاله على الحد واليد؛ وعلى الرأس قَلَنْسُوةٌ صفيرة مسطوحة من القطيفة السوداء تفطى أعلى الناصية ثم تسقط على الجبهة . فن مر أمام هذه الصورة تفكر ثم اكتأب دون أن يعرف سبباً لتفكيره واكتئابه . تلك عبقرية ناشئة تحلم على عتبات القدر قبل أن تدخل ، ونفس شابة واقفة على أبواب الحياة تفكر فيا تقبل عليه وفيا تصير إليه



هذه صورة رفائيل التي وصفها هنا لامريين وهي من أبدع ما خطته يد فنان نقلت عن الأصل المحفوظ في متحف اللقر ، والـكن لم يستطع الحفار وا أسفاه أن يظهر منها إلا هذا الحيال المشوه

إذا علمت ذلك فأضف سنة أعوام إلى عمر هذا الصبى الحالم، ثم وصَّح هذه الملامح ، ولوَّح هذا الشعر ، هذه الملامح ، ولوَّح هذا اللهون ، وغضَّن نلك الجبهة ، وكوَّم هذا الشعر ، واكسر هذا النظر ، وارسم الأسمى على تلك الشفة ، ومدهذه القامة ، وأبرزْ تلك المضلات ، واستبدل بهذه الحاة الإيطاليسة التي ترجع إلى عهد ليون

الماشر حُلة قائمة ذات شكل واحد لفتي نشأ في عهــد البساطة بين القرى والحقول ، لا يريد من الثوب إلا أن يستره في حشمة ؛ ثم امسح على هذه الميئة كلهابشيء من النحول الناشي من إدمان الفكر ، أو إلحاح الألم، يكن لك من مجوع ذلك صورة صادقة ناطقة لرفائيل وهو في العشرين من عره كانت أسرته فقيرة على طول ما أقامت في جبال فور بز منبت أرومتها ومدّرج طفولتها. فأبوه كان من رجال الحرب، ألق السيف وأخذ الحراث على نحو ما يفعل أشراف أسبانيا، ولم يبق له من كرامة ولا وجاهة ولا اعتبار إلا في الشرف الذي رجح عنده بكل شيء. وأمه كانت لا تزال شابة جميلة يحسبها الناظر لمشابهتها إياه أختاً له . ربيت في حجر الترف ، وتقلبت في أعطاف النميم ، وشبت على أناقة الحاضرة ؛ ولكنها لم تحتفظ من هذه النشأة إلا بمبير اللهجة وخلابة المنطق. فلما تُفيت إلى هذه الجبال وعاشت بين زوج نالت به حاجة قلبها و بنية حبها ، وأولاد وجدت فيهم كل رضاها وغاية فخرها، لم تأس على ماض ولم تسخط على حاضر، و إنما طوت كتاب شبابها الجيل على هـ نه الكلات الثلاث: ربها، وزوجها، وأولادها. وكانت تختص رفائيل محيها و إعزازها، وتودلو كانت تملك تصريف القدر فتجمل حظه حظ ملك . ولكنها وا أسفاه ! ما كانت تملك غير قلمها أداة لرفعه ووسيلة لنفعه . فعارض القدرُ أملها باليأس ، وقوض الدهم بناء حظها حتى الأساس من ثروة ضليلة وأحلام جميلة!

وكان حينئذ شيخان من رجال الكنيسة قد اعتصابهذه الجبال بعد عهد الإرهاب بزمن يسير فراراً من الضطهدين الذين يتعقبونهما لاعتقادها آراء في التصوف لا أدريها. فوجدا في بيت هذه الأم ملاذاً وهي، وأحبا رفائيل وهو يومئذ في حجرها، وتنبآ له نبودة، ورصدا له كوكباً، وقالا لها:

(ارعى بقلبك هذا الطفل) والأم من طبعها أن تعتقد . فكان هذا الاعتقاد سندها فى البأس ، وأملها فى اليأس ؛ إلا أنه حمَّلها فى سبيل تربيته فوق طاقتها ، ثم تكشف لها برقه عن سحاب خلَّب ووعد كذوب

عرف رفائيل وهو في الثانية عشرة من عره ، فتساهمنا الوفاء، وتقاسمنا للودة ، حتى كنت أحَبُّ الناس إليه بعد أمه . ولما قضينا عهد الدراسة عدنا فتلاقينا في باريس ثم في روما . وكان قد أقدمه إليها قريب لأبيه لينسخ معه كتباً مخطوطة من مكتبة الفاتيكان . ومن ثُمَّ وقع في نفسه الميل إلى اللغة الإيطالية وأدبها فثقفها وأتقنها إتقانه للغته . ثم كان كثيرًا ما يرتجل مقطوعات من الشعر الرقيق ، ونحن في ظلال الصنوبر من مدينة عفيل ، والشمس راقدة على سرير الشفق تودع النهار ، والسهل ممتلي "بعظام روما ورفاتها، فيهيج أشجاني و يستدر حوالب عيني . ولكنه ما كان يدون شيئاً مما يقول ، فسألته مرة : « لمـاذا لا تكتب شعرك يا رفائيل ؟؟ » فأجابني قائلاً: « عباً ! وهل يكتب الهواء ألحانه التي تسمها من هذه الأوراق الهازجة ؟ أم هل يكتب البحر أنينـــه الذي يلفظه على كُتْبانه وشُطئانه ؟ لاجال فها أيكتب. وإن أقدس شيء وأنفسه في قلب الرجل لهو المكنون الذي لا يظهر . الآلة من لحم واللحن من نار ! فماذا أنت صانع ؟ و إن بين ما تحسه وبين ما تمبر عنه من البعد لَمَا بين النفس وحروف الهجاء ، أعنى اللانهاية . فهل تريد أن توقع على ناى من القصب أننام الغلك؟ »

ثم تركت رفائيل ، وعاد القدر فلف به شملى فى باريس . لقيته يبحث بحث النُعَفَّى الخائب عن عمل يخفف أعباء نفسه ، ويفر جضائقة تحسه . وكان الشباب من أترابنا يطلبونه ويبحثون عنه ، والنساء ينظرن إليه وهو مارً بهن فى الشارع نظرة ذى عكق . ولكنه أبداً لم يغش أبهاء السمر ولم يحب من النساء غير أمه . ثم فقدنا أثره وجهلنا خبره على حين بفتة مدة ثلاث سنوات كاملة . ثم علمنا من بعد أن ناساً رأوه فى سو يسرا ، وفى ألممانيا ، وفى سَغُوا ، ثم فى بار يس أثناء الشتاء يقضى هنريساً من لياليـــه على جسر من جسور السين ، أو على رصّف من أرصافه . وكان ظاهمه ينم على القاقة والموز ، ولكننا لم نستبطن دخيلة أمره وحقيقة فقره إلا بعد سنين . كان وهو غائب متَّجَه أفكارنا وموضوع أحاديثنا ، لأنه من الأفذاذ القلال الذين يتحدَّونك أن تنساه ، أو تشغل عنهم بسواهم

ثم ضرب الدهر، بيننا ، وصدع البين شملنا ، فلم نلتق إلا مصادفة بعد فراق اثنى عشر عاماً . و إليك كيف كان ذلك : كان لى في إقليمه إرث ، وكان من هذا الإرث قطعة أرض أريد أن أبيعها ؛ فلما بلنت هذه البلاد تنسمت خبره فقيل لي إنه فجع في أبيه وأمه وزوجه على فترات من السنين. ثم أصيب في ثروته ، بعد مصابه في أسرته ، فلم يبق في يده من ملك آبائه إلا مسكن من برج عتيق مربع مهدم يشرف على واد من الأودية ، و إلا حديقة وبستان ومر ج في هذا الوادي، وخسة أو ستة فدادين من نكاد الأرض يفلحا هو نفسه على بقرتين عجفاوين ، فما يميزه من جيرانه الفلاحين غير الكتب التي يحملها معه إلى الحقل . ولكنه منذ بضعة أسابيع احتبس في طلله البالي ها عاد يبصره أحد . فظن الناس أنه ربما استأنف تلك الرحلات الطويلة التي كانت تستغرق سنين . وسارت كلات الأسف على أفواه العارفين به والمنتفمين منه ، وقالوا : ﴿ إِنْ فُرَاقَهُ بِلاءً عَلَى الْجِيرَةُ وَأَهُلَ الَّحِي ، فقد كان على فقره 'يُفْضل عليهم افضال الغنى ، وكثير من الغُرش الجميلة في هذه البلاد منسوج من أصواف ضأنه . وكان في المساء يسلم أطفال الضياع المجاورة القراءة والكتابة والرسم . ثم هو يدفئهم بناره ، و يطُّعهم من خبزه ، والله

يملم هل يَفْشُل عنده بمد إطمامهم شيء يأكله إذا ما نقص الثمر وقل الحصاد كهذه السنة المحفاء»

بهذا اللسان كان القوم محد وننى عن رفائيل. فأحببت أن أزور على الأقل مسكن هذا الصديق القديم. فاقتادى إليه بعض الناس حتى بلغ بى سفح الأكمة التي قام عليها برجه الأسود تكتنفه اصطبلات واطنة في وسط أيكة من شجر البقس والبندق. فاجتزت عبرى ناضباً من مجارى السيل على جذع شجرة ، وصدت إلى البرج في ظريق لاحب (١) من الحجارة ، فرأيت على جانب جديب من الحضية بقرتين وثلاث غنات ترعى في حراسة شيخ كليل البصريذكر الله على مسبحته وهو جالس فوق شعار منحوت من الحجر قد سقط من عقد الباب. فتقدمت إلى هذا الشيخ واستفهمته عن رفائيل ، فقال لى : إنه ما سافر ، و إنما اعتراه مرض ثقيل ألزمه القراش منذ شهرين . وهو يرى أنه لا يخرج من هذا البرج إلا إلى تلك القبرة . ثم منذ شهرين . وهو يرى أنه لا يخرج من هذا البرج إلا إلى تلك القبرة . ثم أشار الشيخ بيد عارية الأشاجع (٢) إلى المضبة المقابلة فرأيت فوقها القبرة . شم في الشال ينفتح لك عن الفاعة الكبرى ، فادخل تجده ممدداً على الباب على الشال ينفتح لك عن الفاعة الكبرى ، فادخل تجده ممدداً على صريره وديماً كالملاك ساذعاً كالطفل

قال ذلك وهو ينهنه دممه المسفوح بظهر يده . فصعدت سلماً خارجيا وعراً يستند إلى جانب البرج ، وينتهى برحبة صغيرة عليها سقف من الخشب والطوب تناثرت قراميده فوق بلاط السلم ؛ ثم جذبت الرتاج إلى الشال ودخلت فإذا منظر لا أنساه ما حييت : غرفة واسعة تشفل مساحة

⁽١) الطريق اللاحب: الواضح

 ⁽٢) عارى الأشاجع : قليل لحم الكف . والأشاجع أصول الأصابع

الفراغ الذي بين الحوائط والبرج ، بها شباكان كبيران ذوا قواطم من الحجر ، زحاجهما الغَبَّر المكمم مُدْخل في من معات شطر نجية معيَّنة من الرصاص، وهي مرصوفة بالطوب مسقوفة بجذوع غليظة من الخشب قد اسودت من الدخان ؛ ومدفأة مرتفعة ذات قوائم من الخشب المضلم في غير دقة ، تدلى من علاقة فها قدر عماورة من البطاطس تحتها حطبة تحترق من طرفها . ولس في هذه الفرفة من أثاث غير كرسيين عاليين مسندها من الخشب المعقول ، وظهارتهما من قاش رمادي احتمل (١١) لونه فما تستطيم أن تعرف أصله ؛ ومنضدة كبيرة على جانب منها خبر ملفف في خوان ، وعلى الجانب الآخر أوراق وكتب مبعثرة مهوشة ؛ ثم سرير ذو أعمدة نخرة ؛ وستور من الصوف الأزرق الفواف قد هصرت حول الأعمدة حتى تأذن للنسم أن يدخل من الشباك المتوح ، والشمس أن تلقي أشعتها على اللحاف المنشور ؛ ورجل جالس علىحافة هذا السرير لايزال في ربيع العمر ولكنيا شفه السقم وبراه البؤس فعاد من المزال مثل الخيال . كان حين فتحت عليه الباب يفتت قطم الخيز لسرب من أفراخ الدُّوري والسنونو ، يضطرب و يموج على أرض الغرفة تحت قدميه . فلما أحست العصافير وقع قدمي طارت فوقعت على رفرف القاعة وفوق سماء السرير . وعرفتُ رفائيل من خلال شحوبه ونحوله ؛ فإن صورته و إن فقدت صباحتها ، لم تفقد سماحتها ، و إن ذهب عنها جمال الحياة ، فقد يق عليها جلال الموت . وكان شعره الأصود يتهدَّل حلقاً فوق كتفيه كما يتهدل شعر الحراث بعد عناء اليوم ؛ وكانت لحيته طویلة مرسلة ، قد نبتت علی نسق طبیعی متعادل ، فترکتك تری جمال

⁽١) احتمل لوله : تغير

مقطع الشفتين، و بروز الوجنتين، وتقوّس العينين، وتجويف الصُّدغين، و بياض البشرة؛ وعليـــه قميص مفتوح عن صدر ناحل شديد العضل والمصب، فاد تركه الوهن ينتصب لـكَسَبَ هيأته جلالاً وعظمة

عرفني من أول نظرة ، فخطا إلى خطوة وذراعاه مبسوطتان يريدأن يضني إلى صدره ، ولكنه سقط على حافة السرير ، فبادرت إليه وكلانا لا يملك سوابق دممه . ثم تحدثنا فقص عَليٌّ تاريخ حياته وهو سلسلة متصلة من الإخفاق والخيبة . فتارة بالفقر الذي قصم جناحه ، وأفسد صلاحه ؛ وتارة بالموت الذي حال بينــه و بين اقتطاف الزهمة أو اجتناء الثمرة . ثم حكى لى فجيعته بأبيــه وأمه وزوجه وولده ، وكيف رماه الدهم في عمله بالخذلان ، وفي أمله بالحرمان ، حتى خلمه بالقهر من ملك أبيه ، وألجأه إلى هذه المزلة في هذه الأنقاض الباقية من بيت الأسرة ، لا أنيس له إلا هذا الراعي الهرم الذي يخدمه من غير أجر إبقاء لحرمة البيت وإرعاء على مجد أهله . ثم ذكر لى ذلك السقم الذي غَوَّته وأذواه وسيسقط به على الموت إذا ما سقطت أوراق الخريف ، فيدفن في مقبرة القرية التي ضمت عظام آبائه وأحبائه . ثم قال وهو يشير بأصبعه إلى صف الطيور الواقعة على رفرف السرير: ﴿ أَندرى مَا الذي زاد هُمُّه عَلَى كُلُّ هُمْ وَفَاقَ أَلَّمُهُ كُلُّ أَلْمُ ؟ هَي هذه العصافير الساكين التي اتخذت منها خُلَصَائى ، وجعلتها آخر أهل ولأنى ! إنها ستبحث عنى فى الربيع للقبل فلا تجد لى ريحًا ولا تحس منى حركة . ولن ترى بَعْدُ ذلك الزجاج للكسر فتدخل الغرفة من خلاله ، ولا ذلك الكتان التساقط من حَشيَّتي على الأرض فتبنى عشها من نُساله . على أن الحاضنة التي أوصيت لها بما تركتُ من رزق يسير ستُعنَى بهذه الطيور

ما دامت حية -- وفي ذلك بعض العزاء -- فإذا ما فارقت الحياة بق لما الله الذي لا يحرم الصغار ولا الضعفاء ، نعمة الأكل والماء . وكان الحنان بادياً في حركاته وكلماته وهو يتحدث عن هذه الطيور الصفيرة ، فكأن رقة قلبه لما عنهما الخلوص إلى الإنسان ، لجأت بسطفها و برها إلى الحيوان . ثم قال : أتلبث في هذه البلاد زمناً ؟ فقلت له : نم . فقال : حسن ! إنك إذن ستغمض عيني وسأكل إليك أن يُشَق ضريحي في أقرب الأماكن إلى ضريح أمى وزوحى وولدى ، ثم طلب إلى أن أدنى منه صندوقاً كبيراً من الخشب النقوش كان مطموراً تحت عدَّل من أعدال الذرة في إحدى زوايا الغرفة . فوضعت الصندوق على السرير وأقبل هوعليه يخرج منه رِزَماً من الورق ظل يمزقها نصف ساعة وهو صامت . ثم رجا من حاضنته أن تلق بجذاذاتها في النار أمامه . وكان في هذه الأوراق طائقة كبيرة من الشعر في كل اللغات، وصفحات كثيرة في موضوعات متفرقة وأوقات مختلفة كأنها ذكريات. فسألته على استحياء لماذا تحرق كل هذا ؟ أليس للرجل بجانب ميراثه المادي ميراث أدبي يتركه لمن بعده؟ ربما تحرق فيا تحرق خواطر وعواطف تبعث في بعض النفوس الحياة والقوة . فقال : « دعني أفعل ، فحسب هذا العالم ما فيـ من دموع . ولا جدوى على الناس في أن نضيف إلى تلك المبرات هذه القطرات . إن هذه الأشمار ريش قر يحتى الشابة العابثة ، وقد نَسَلْتُهُ من زمن واستقلت أجنحة الأبد » ثم استمر يمزق و يحرّ ق وأنا في أثناء ذلك أتأمل المزارع الجدباء من خلال الزجاج الحطم . ولما فرغ من ذلك دعاني إليه وقال : « خذ هـ ذا المخطوط الصغير فأنقذه وحده ، فليس لى جَلَّد على إحراقه . ولو تركته بعدى الآنخذت حاضنتي من أوراقه أكياساً لبذورها ، وأنا ضنين بالاسم الذى يملأها على الهوان والدنس . خذه واحتفظ به حتى تعلم أنى مت فيكون لك الخيار حيثئذ إما أث تحرقه وإما أن تتركه إلى أن يبلنك الكبر فتجد فى قراءته الحين بســد الحين ذكرى صديقك

فأخذت اللف وغيبته في ثيابي ، ثم خرجت وفي نفسي أن أعود إليه غدا وفي كل يوم لأخفف عنه بالمناية والحديث عب، أسقامه ، في أخريات أيامه . وما كدت أتوسط السلم حتى رأيت زهاء عشرين طفلاً محمل كل منهم بالوجه(١) في يده ، وهم يصمدون الدَّرَج ذاهبين إلى رفائيل يأخذون عنه الدروس التي حرص على تلقينهم إياها حتى على سرير موته . ثم أبصرت على بعد منهم قسيس القرية آتياً يقضى صدر الليل مجانبه ، فحييته فحياني و به ما بي من الأمي والحزَن . ولما عدت في اليوم التالي إلى البرج كان رفائيل قد استوفى في الليل أنفاسه وقضي نحبه . وكان ناقوس القرية المجاورة قد شرع يدق دقة النعيُّ ، والنساء والأطفال قد خرجوا من دورهم باكين معولين ينظرون إلى جهة البرج، ورجلان يحفران الأرض في حقل صنير أخضر بجانب الكنيسة يشقان فيه ضريحاً تحت صليب! . . . فدنوت من الباب فرأيت غمامة من عصافير السنونو تطير نائحة حول الشبابيك المفتحة ، لا تَفْتَرُ عن الدخول والخروج ، كا نما اجتاحت أعشاشها جائحة . ولما قرأت هذا الكتاب فهت لماذا ألف رفائيل هذه المصافير ، وماذا كانت تبعثه من الذكري في قلبه ، حتى ساعة لقاء ربه ا

⁽١) البابوج: القبقاب أو العمندل

1

إن من الأمكنة والأجواء والساعات والفصول والأحوال الخارجية لما يتصل سلكه بحبات القلب ومشاعره ، حتى لتخال الطبيعة جزءاً من النفس ، والنفس جزءاً من الطبيعة ؛ فإذا فصلت المسرح عن الرواية ، والرواية عن المسرح ، ذوى المشهد وانمحت العاطفة . جَرّد (ربيه) من شواطئ بريطانيا الصخرية ، و (أتالا) من مُروج الصحراء الوسيعة ، و (آلام قرتر) من أندية السواب الكثيفة ، و بول وقرجيني من غوارب الماء المشبعة من المسروب وجبال (المرن) الناضة من الحرارة ، فإنك لا تفهم شات بريان ولا جوت ولا بر تردد دُسَنْ بيبر

إن بين الأماكن والأشياء علاقة وُثقى ، لأن الطبيمة واحدة فى قلب الرجل وفى عينه . إنما نحن أبناء الأرض ، وما يجرى فى عُصارتها من الحياة هو نفسه ما يجرى فى عروتنا منها ، وما تحسه هى وتقوله لأعيننا بلسان مناظرها ووجوهها ، وطلاقتها وعبوسها ، ينبين فى نفوسنا رَجْعه وأثره . هيهات أن تستكنِه طاطفة فى غير موضعها الذى نبتت فيه واستقرت به !

۲

هناك لدى مدخل سغوا – وهو ذلك التيه الطبيعى لتلك الأودية المبيقة المتحدرة إلى سويسرا وفر نسا تحدُّرَ مدارج السيول على جبال سغبلون وسن برنار وسنيز – ينحلُّ من عقدة جبال الألب واد فسيح الرقمة قليل الوعورة ، يشق له بين المخاصر والأنهار والبحيرات طريقاً إلى چنيف وأنيسى بين جبال القط وجبال بوج الحائطية . فإذا أبصرت عن شمالهرأيت ضلمامن جبل القط قد نتاً على امتداد فرسخين فضرب في السهاء قاتم اللون واحد الشكل مُوطأ الذروة ، تحسبه سوراً منسع المرض قد مردوا سطحه على خيط بناء . ثم تكاد لا نجد ما يقطع هذا التماثل المندسي الاسنين أو ثلاث أسنان برزن من صغرة شهباء في طرفه المندسي الاسنين أو ثلاث أسنان برزن من صغرة شهباء في طرفه الشرق ، فدللن الأعين على أن ليس ليد الإنسان عمل فيه ، المسرق ، فدللن الأعين على أن ليس ليد الإنسان عمل فيه ،

من ناحية شمبيري فيمتد في أحشاء السهل في سلاسة وابن ، ثم يترك وراءه وهو مبيط درجات وهضبات ُتَفَسَّها أشحار التنوُّون(١) والجوز والقسطل(٢) ، وتُوسَّج(٢) بينها أغصان الكروم العارشة . فإذا سَرَّحت بصرك في هذه المُخْضَرَة الموحشة الملتفة رأيت خلالها المنازل الريفية تلوح بيضاء على مسافات بعيــدة ، والقبابَ العالية تظهر شمّاء فوق القرى الحقيرة ، والأبراجَ البالية تبدو سوداء فوق القصور المشرّفة (٤) المتيقة . وفي قرارة ذلك المنحدر الأوهد تبصر السهل وقدكان في غاير الدهم بحيرة فيحاء لا تزال تحفظ من شكلها الأول غَوْرَها الطمئن ، وشُطئانُها المتعرجة ، ورءوسها البارزة ؛ غير أنها استبدلت بأمواجها الزُّرْق أمواكامن خُضرة الجوز، وحُوَّة (٥) الرج، وصفرة الحصيد. ثم تقوم في سُرَّة هذا الوادي الأبطح بضمةً نجودكانت في عهدها الأول بُحزراً ، وفوق تلك النجود منازل يجالها يبيس النبت ، ويظلها وَريق الشجر . ثم ترى من وراء هذا الحوض الناصب جيل القط وهو على أشد ما يكون إجداباً ووعورة ، قد طمن في أديم السماء بروْقيه^(١) ، وخوَّض في بحيرة صافية المــاء بقدميه .

⁽١) التنوب: شجر عظم يثبه الصنوبر (٢) الفسطل: أبو فروة

⁽٣) توشج بينها: تشكها (٤) المسرفة: ذات المسرفات

 ⁽a) الحوة: لون بين السواد والخضرة (٦) الروق الفرن

وتلك البحيرة تطول على التقريب ستة فراسخ في عرض يتراوح بين فرسخ وثلاثة . تراها وهي تتجه إلى فرنسا وعرة الشاطئ جرداء الساحل، فإذا ما أتجهت إلى سَفْوا رأيتها على النقيض من ذلك : تطمئن وتندغم في أجوان وخلجان تُغَثَّى جانبها النياض والرياض، وتكتنفها المرائش والكروم، حتى تنمحي عند رَجْمُ البصر في صغور شاتليون ، وهناك ينصب طفح مياهها في نهر الرون. وفي الجانب الشهالي يقوم على قاعدة من الحجر الصفو ان ٩٧ دير (الْهُنْكُمب) - وهو مدفن الأمراء من آل سفّوا - فيلق بظلال أسواره على أمواج هذه البحيرة . وذلك الدير قد احتضنه جبل القط فوقاه الشمس فأمسى في ظلمة متصلة تذكر نا ذلك الليل الأبدى الذي غثبيَ هؤلاء الأمراء وقد هبطوا من عروشهم إلى هذه الرموس^(٢) ، اللهم إلا في الطُّفَل^(٢) فتلقى عليه الشمس نظرة فَيَمِض في جنباته مريقٌ من النور كأنه يُظهر للناس مرفأ الحياة آخر اليوم

وعلى وجه البحيرة وتحت صغور الجيل تنساب زوارق الصيادين من غير شرّع ، فتتشابه ألوانها بألوان الصخور لتَطاوُل

⁽١) الصفوان: العبلد الأملس (٢) الرموس: القيور

⁽٣) الطفل: قبيل غموب الشمس

عهدها وقِدَم حواشيها . وفى السهاء ترى أسراب النسور الشهب لا تفتُر عن التحليق فوق الزوارق والجنادل ، كأنما تريد أن تنازع الشباك على قنائصها ، أو تنقضٌ فوق الطيور الصائدة التى تقتنى أثر القوارب على طول الشاطئ

۳

على مقربة من هذه البحيرة بجد مدينة إكس ينمقد فوقها الدغان، وبرتفع منها الضجيج، وتسطع في الأنوف روائح مياهها الحارة الكبريقية. وهي طبقات صاعدة على حدور روة واسمة من الكروم والمروج والبساتين، يصل ما ينها وبين البحيرة درب طويل مظلل الجانين بأشجار الحور المتيقة، تحسبه عَثْر فَة (١) من مخارف السرو التي تَدفع إلى المقابر في تركيا. وعن يمين هذا الدرب وعن شمالة تبصر المروج والحقول محترقها أخاديد السيل حَصِبَة ناصبة، وتظللها أدواح الجوز الباسقة تتدلى على أفناها عساليح (١) الكرم وعناقيده المارشة. فإذا لتى البصر فُرجة بين وقد أوراق الجوز وأعناب الكرم أخذ منظر البحيرة الزواء، وقد

⁽١) المُحْرَفة . طريق بين صفين من الشجر

 ⁽۲) الساوج ما لان واخضر من قضبان الشجر والكرم

اختلفت على وجهها ألوان السهاء باختلاف ساعات النهـــار : فمن صفو وطلاقة ، إلى عبوس وشحوب

ولما حلات هذه المدينة كان سواد المصطافين قد رحل. وأست الفنادق والأندية بعد ازدحامها بالسافرة وأهل البطالة خَلاء مقفرة ، فلم يبق إلا بعض البائسين من ذوى الماهات جالسين في صوء الشمس على عتبات الفنادق الحقيرة ، و إلا بعض اليائسين من المرضى ينقلون خُطاه الواهنة الوانية في حر الظهيرة على ما تساقط من الأوراق الجافة أنمناء الليل

٤

أبكر الخريف رخى النسيم رضى الشهائل ، فلون أوراق الكرم والكرز والقسطل هنيهة بلون الورد ، ثم أرسل عليها صقيع الصباح يَضُر بُها فتَسَاقط على الأرض تساقط الفيث الهتون . وكان الضباب يسحب رداء الكثيف على الأفق إلى وقت الظهيرة ، فتظنه سيلا طنى فغمر الأودية والمهول حتى لم يترك فوقه إلا رءوس الحور الباسقة ، وتُقن التلال الشاهقة ، وشِمَاف الجب ل

⁽١) السف بالكسر: الباحل

الحيط. فإذا متع (۱) النهار هبت رياح فاترة فتكسح هذا الزبد وتقشع ذلك الضباب. ثم تتقحم مخارم الجبال وأفواه الشعاب فترتط في الصخور والأمواه والشجر، فتسمع لها زفز فة رخيمة شجية، تعلو ثم تنخفض فتخالها في بضع دقائق قد مرت على جميع أو تار الطبيعة فحركتها بأنفام الفرح والقوة والكآبة، فيبلغ أثر هذه الريح وتفنى كما نفنى أحاديث الأملاك في اللانهاية، ويعقبها سكون لا عهد للآذان بمثله، ميمن عليك مذاهب حسك. ثم تسكن سكون لا عهد للآذان بمثله، ميمن عليك حتى تسمع دقات قلبك ونامة نفسك ؛ ويعاود السماء منظرها الضاحك الطلق فتكون أشبه بسماء إيطاليا ؛ وتظهر جبال الألب خمق في رقيع من السماء لا عدً له ولا حد، وتنساقط حبات الضباب رنانة على سفير (۱) الشجر، أو تتلالاً وهاجة على أزهار المروج كالشرر

على أن ساعات الصحوكانت قصيرة. فما أسرع ما تسرق ظلال المساء الندية خطاها فتنتشر على الآفاق انتشار الكفن وما قضت هذه الآفاق من شمسها الفاربة لُبالة! ثم تموت الطبيمة موت الشباب والجمال على أتم ما تكون طلاقة وأناقة!

⁽١) متع النهار : بلغ فاية ارتفاعه قبل الزوال

⁽٢) سنير الشجر: ألأوراق الجانة الساقطة

مثلُ هذا البلد، وهذا الفصل ، وتلك الطبيعة ، وذلك الحُمُّود الذي استولى على كل ما يحيط بي من الأشياء ، كَمِمَّا ينسجم مع نفسى الخامدة وشبابي العاطل انسجام النغات في اللحن الجميل. ولقد زدت مهذه البيئة هموداً على همود ، وغراقت في بحر كُجِّيٍّ من الحزن ؛ غير أنه حزن حي ملئه التصور والتأثر والاتصال الوثيق باللانهاية ، والضوء الشاحب في المين ، والأمل الخائب في النفس، فاكنت أرغب في الساوعنه ولا الإفلات منه . هو داءمن أدواء الإنسان ، ولكن الشعور به كان للة مغربة لا شكاة مضنية ؛ والموت الذي يفضي إليك كان أشبه بالنيبو مة اللذمذة في الوجود المطلق. فقررت أن أستسلم إليه وأسترسل فيه، وأن أصرف نفسي عن صوارف الحياة ، وأضرب حولي نطاقا من الصمت والعزلة والفتور يحجبني عن كل شيء ما عدا الله والطبيمة وكنت قد لقيت وأنا أجتاز شمييري صديق لويس . د . فو جدَّه على الحال التي أنا فيها: حِين مُتَّفَضٌّ من سخف الحياة، وصدر منقبض من مض الحوادث ، وعبقرية مدفوية في ضلال المجتمع ، وجثمان مُرْ هَق بخواطر النفس ؛ فدلني على بيت منعزل فىالمدينة يقوم على تدبيره طبيب بالغ السن طيب القلب هو وزوجه ، وقد جمالاه المستشفين مُصَحَّة ومثابة. يصعد الذاهب إليه من المدينة فى طريق ضيقة بين المنابع الحارة . فإذا أخذ منظره من خلفه وجد حديقة مُسَوَّجة بالمرائش والأروقة ، ومن ورائها مروج حادرة ، وخائل ناضرة ، وأدواح من شجر القسطل والحور ، يصلها بالجبال غيطان وغدران لا تبصر فيها غير قطمان المنز وسوائم الماشية ووعدني لويس أن يقدم إلى إكس فيقيم ميى إذا ما فرغ من عمله في شبيرى . وسأجد و لا شك بوجوده روحاً وغبطة ، فنحن أخوان جمتنا أواصر المم ، وألفت بين قلبينا وحدة الشجن . والمساهمة فيا يضر ، أجل منها فيا يسر ، وصلة البؤس أو تق في السدور وأعمق في النفوس من صلة النميم . وليس في النامى غير لويس من يخف خلاطه على قلي في هذه الآونة . لذلك بت غير لويس من يخف خلاطه على قلي في هذه الآونة . لذلك بت

ō

نرات بدار الطبيب فلقيني أهلها لقاء جيلا، وأفر دوالي خرفة تطل نوافذها على الحديقة وما وراءها من مروج. وكانت النُرفات الأخرى أوشكت أن تخلو من نازليها فا يجتمع على المائدة إلا أهل الدار ومريض أو ثلاثة من فقراء شبيرى و تورينو، قدموا الحامات بعد انصراف الجاهير ليجدوا العيش أخف مؤوفة وأقل

كلفة. فلم أجد في الجاعة من يستطيع أن يطار حنى الحديث ، أو يمقد يبنه وبينى مودة . وأحس الطبيب وزوجه ذلك فأقبلا يمتذران إلى عن إبطاء الموسم في المدة ، أو إسراع الزائرين في المودة . ثم أخذا يكلمانني بلسان الإعجاب والتجلة ولهجة الحنان والرحمة ، عن فتاة أجنبية قمد بها عن الرحيل هزال مُلح يخشيان أن يحول إلى فناء بطىء . يقولان إنها وفدت عليهما منذ شهور واتخذت مسكها من الدار في طابق منعزل ، وظلت فيه هي وجاريتها لا تنزل إلى قاعة الاجتماع ، ولا تأكل على المائدة المامة ، وإيما مطلة من خلال الأغصان على الحديقة ، أو على السلم عائدة من مطلة من خلال الأغصان على الحديقة ، أو على السلم عائدة من نرهمها بين جواسق (١) الجبل

فأدركتنى لهذه الفتاة رقة ورحمة. ذلك لأبى وجدت فى حظها مَشَابه من حظى : فكلانا طريد هَمَّ ووحيد غربة ، وكلانا نِضْو سقام وأليف وحشة ، وهى مثلى تنجنب الضوضاء وتتقى عيون الناس. على أننى بالرغم من هتاف الناس بها^(٢) وإعجابهم بظرافتها وأدبها ، لم أجد من نفسى باعثاً على رؤيتها . لأنى لاأريد أن أرى أحداً ولا أن يرانى أحد . فقد خبَتْ وقدة القلب وحادث جذوته رماداً ،

⁽١) الجوسق . النصر الحلوي معرب جوسك (كثك)

⁽٢) عنف الناس خلاة : ذكروها بجمال

وسئمت نفسى تلك الميول الحقيرة المبتسرة ، وأجمت الموارد الآسنة الكدرة ، وغَضَّ من طرق الحجلُ والسدم على خطابا ارتكبتها، وأسباب رثَّة وصلتها، ومواقف غزية وقفتها؛ وفقدت الثقة التي تدفع بعض الناس إلى لقاء الناس وعقد الصلات بهم ماكنت أفكر كثيراً في الحب. بل كنت على النقيض من ذلك أغتبط وأُزْمَى بقتلى تلك الأهواء الطفلية في قلي ، وقدرتى على تحمل بُوْسَى الحياة بنفسى. أما السمادة في هذه الدنيا فاكنت أحسب لها وجوداً

٦

كنت أفضى بُكر أيلى ف خرفى أطالع الكتب الى بعث بها إلى صديق من شميرى . وفى الأصائل أخرج فأرود وحدى ما توعر وأوحش من مواقع الجبال الى تكتنف وادى إكس من جهة إيطاليا . فإذا أمسى المساء عدت مدود القوى مرتهك المفاصل ، فأجلس إلى المائدة ، ثم آوى إلى مخدى فأرتفق (١) قاعدة الشباك ساعات طويلة ، أتقصى بالنظر وجوه الساء فأسمر بالجذاب أفكارى إليها كا يشعر الواقف على شفا الهاوية بالجذاب

⁽١) ارتفق : انكا على مرفق يعم

جسمه إلى قاعها . فكأ نما فى السهاء قوة تجذب النفوس ، كما أن فى الأرض قوة تجذب الجسوم . أرقد فى بحر لجّى من هذه الأفكار لا أبحث فيه عن ساحل ولا مرفأ . وأستيقظ على شماع الشمس وخرير البنابيع فأستحم وأستأنف بعد الفطور تَجَوال

فني ذات ليلة لحت وأنا أطل من نافذتي على الحديقة نافذة مضاءة بجانب غرفتي ، يشرق منها تحيًّا امرأة قد اتكات كا اتكات ، وأخذت تباعد بيدها عن جبينها نحصل شعرها الفاحم المتهدل لترى هي أيضاً الحديقة ، ولتنظر إلى جلال الجبل وجال السهاء وقد ازدهم فيهما القمر ؛ فما استطمت أن أميز منها في هذا الضوء الشاحب غير صورة نقية كاسفة ، في إطار من الشعر المنذودن المرسل . ثم ورد صوتها على سمى وهي تتحدث وتأمر المنذة ، ففعلت لهجتها الأجنبية الصافية في قلبي فسل السلاف ، وأثرت نبرات صوتها السقيم الرخيم في نفسى تأثير السحر . وبتي ذلك الصوت المذب يطن في أذني طنين الصدى البيد حينا من الزمن بعد ما أغلقت النافذة

لم يقع في مسمى ما يشبه هذا الصوت حتى في إيطاليا . فلقد كان يرن بين ثناياها المُفتَرَّة رئين الأوتار المدنية على شفاه الأطفال

في جزر الأرخبيل إذا ما حركوها وقت المساء على شاطئ البحر. كنت أفكر في رجع هذا الصوت و في أثره ، وما كنت أحسب أن سيكون له في حياتي رنين بعيد المدى عميق الأثر. ثم كان الغد فشُغات عنه شمابُ قلى فنسيته . حتى كان أحدالاً بام ؛ فبينها أنا داخل بعد العصر من باب الحديقة الصغير، بصرت بهذه الفتاة الأجنبية جالسة على أحد المقاعد تحت نظر الشمس تستدف بأشمتها الفاترة. لم تشمر بصوت الباب حين أغلقته فلم تُرَعُ ، وظلت تحسب نفسها وحيدة؛ ولبثت أناطو يلاأرمقها خِفْية بمجامع عيني ، لا يفصلنا إلا بضع خطوات وكرمة أغرَبْها من الورق بواكر الصقيع. وكانت ظلال الأوراق الباقية على هذه الكرمة تصارع وحدها أشمة الشمس على وجهها المشرق. هي ممشوقة القد، بائنة الطول، قد أرسلت على جسمها الناحل غلالةمن الجوخ مبسوطة الغضون محلولة المُرَى، فكانت فها أشبه لدُمية من الرمر في ثوب فضفاض، تُمجَب بقوامها وروائها ، دونأن تميز جزءاًمن أجزائها . ثم تدثرت بشال أبيض أنيق الوشي غيبت فيه جسمها فلم يبدمنه إلا كفّان عاريتا الأشاجع ، دقيقتا الأنامل ، قد تلاقتا على ركبتيها وهما تعبثان نرهرة من زهر القرنفل الأحمر الوحشي الذي يزدهم على الجبال في أحضان التلج ، ويسميه الناس لسبب لا أدريه : القر نفل الشاعر.

ثم اتخذت من فضل شالها قناعاً وقَتْ به شعرها أندية الساء فكنت تراها - وقد تطرحت من السقم على نفسها ، ومال عنقها على كتفها ، وعقدت أهدائها الوُطْفُ أجفانَها الدُّعْجَ من يَهَرَ الشمس، وتضمّر وجهها وانكفأ لونهامن طول الفكر — أَشْبَهَ بتمثال الموت؛ ولكنه الموت الذي ينقل النفس من أودية الهموم وشماب الأحزان إلى أنحاء النور والحب في حياة سميدة خالدة. نهها وقع قدى على جفيف الورق، ففتحت جفنين فاترين عن عينين ساجيتين ، في صفاء البحر أو زرقة اللازورد ، يحف مهما أهداب طوال سود يحتال على تقليدها حسان الشرق بالصناعة لنَزدْنْ فِي نَجَلِ الميونَ ، وكَعَلِ الجِفونَ ، وحدَّة النظر ، وقوة الجاذبية. ولم أرفيا رأيت من عيون الناس ألحاظاً تصيب مرماها على بمد مداها كألحاظ هذه الفتاة . فقد كانت أشبه بنيران الشهب الثاقبة في حَلَّك الليل ، تحاول أن تمسَّك وهي صادرة من السماء عن بُعدشاسع ونوًى سحيق . ولها أنف إخريق أشَمُّ حُلُوَ القناء يملوه جبين مرتفع ضيق كأنما ضغطته فكرة قوية ، وشفتان رفيقتان على زاوينيهما أثر الذبول من حرقة الهم"، وثنر شتيت الثنايا صدفي اللون كثغور الغيد من سكان السواحل الرطبة على البحار أو الجزر، ووجه كالبيضة المكنونة أخذ ينأله النحول من

تاحية العثدغ ومن أسفل الفم ، وسحنة هي أولى أن تكون هيئة فكرة لا هيئة إنسان . وفضلاً عن هذه الملامح الساحرة والمخايل الشاعرة ، يستهويك من هذا الوجه سقام يرجع سببه إما إلى هوى عرق ، وإما إلى جوى مُجَرِّح ، فيفترق بصرك حتى تنطبع فيه الصورة الخالدة . ذلك عَرَض لمرض من أمراض النفس تنم عليه قسامة بارعة ، وجهارة رائمة ، وجمال لا تعلق به قريحة مصور ، ولا تسعو إليه تحييلة شاعر

مررت بها عُبلان فييتها باحنشام وتجلة ، فأثار اقترابي منها طبيعة الخفر فيها ، فتوردت وجناتها الصفرة ؛ وانطلقت أنا في المشي أمامها لا أربع على شيء حتى بلنت غرفتي وأنا مضطرب الحواس واجف القلب لا أدرى أية رعدة أقلَّني من برد المساء . وبعد هنيهة بصرت بالفتاة تعود إلى المنزل فألقت على نافذتي نظرة فارغة ثم دخلت مخدعها . ومر اليوم يعقبه اليوم وأنا أراها على الله الحال في تلك الحال في تلك الساعة ، إما في الحديقة ، وإما في الفناء ، دون أن أفكر أو أجسر على الدنو منها ، حتى كنت أقابلها أحيانا في زورتها على البحيرة ، أو على حارها فوق الربي والخائل ، في زورتها على البحيرة ، أو على حارها فوق الربي والخائل ، يسحبها لفيف من البنات الصغيرات يتُدنبها ويقطفن لها نمر يصحبها لفيف من البنات الصغيرات يتُدنبها ويقطفن لها نمر

أ كثر من تحية ألقيها في إجلال وحشمة ، فتردها هي في ذهول وهَمّ ، ثم يأخذ كل منا سَمْتَه فوق الجبل أو على متن الماء

٧

على أننى كنت أشعر بانقباض الصدر واضطراب البال فى كل مساء لا أراها فى نهاره فأنزل إلى الحديقة دون سبب معروف ولا داع موجب ؛ وأمكث فيها على الرغم من برودة الليل أراعى نافذتها بنظرى ، وأتحامل على نفسى فلا أنصرف حتى أرى ظلها خلال الستائر ، أو أسمع نغمة من بيانها أو نبرة من صوتها

كانت الردهة التي تشفلها في المساء ملاصقة لفرفتي لا يفصلها عنها إلا باب ضخم من شجر السنديان موصد بر تاجين ، فاستطمت أن أسمع وقع أقدامها ، وحفيف أثوابها ، وخَشَخشة كتابها حين تصفف ورقه . وربما خيل إلى أحيانا أني أسمع نامة نفسها ؛ فوضمت مكتبي ومصباحي في ظهر هذا الباب مسوقاً إلى ذلك عن غير قصد ، لأني أجدني مع هذه الأصوات والحركات أكثر أنسا وأقل وحشة . وتصورت أني أعايش هذا الطيف المجهول الذي ملا حياتي وشغل يوى . وقصارى القول أني أحسست في قلبي نوازع المحوى وأعراض الصبابة قبل أن يقع في ظنى أني أحب

لم يلاقني هواهافي خطرة أو نظرة أو فكر ةحتى كنت أثوقاه فلاألقاه، وإنما كانأشبه بالغاز المنتشر في الجو ساجني من كارمكان: في السهاء والماء؛ في الهواء والضياء؛ في وحدتي القابضة ، ومشاميتي لهذه الفتاة الفامضة ؟ في هذه الجولات البعيدة التي لا تبعدني عنها إلا ليكون شعوري محاذييتها أشد وأقوى ؛ في ثوبها الأبيض أراه على بمد من خلال تَنُوبِ الجِبل ؛ في شمرها الأسود تُهَدَّله نسمات البحيرة على حافة الزورق؛ في وقع خطواتها على السلم، وصوت قدمها على أرض الغرفة ، وصرير قلمها على القرطاس ؛ حتى في. سكون تلك المشايا الطويلة التي كانت تقضمها في القراءة أو الكتابة أو التفكر ، وفي سحر الجمال الفاتن الذي أراه ولا أنظر إليه ، وأعمله واضماً من وراء الجدر لا يحجبه ستار ولا ظلمة على أن هذه الماطفة القوية لم تصحبها في نفسي رغبة في استطلاع سر هذه العزلة ، واختراق هذا الحجاب الواهي الذي ضربناه بيننا باختيارنا . وماذا يعنيني من امرأة ضاوية الجسم أو عليلة الفؤاد قابلتها حرصاً في هذه البلاد الأجنبية ؟ لقد نفضت يدى كاكنت أظن من شواغل الحب ، ولم أرد أن تصاني بالحياة ثانية علاقة من علاقات النفس والحس ، أو يستولى عَلَىُّ وهن من صعف القلب أومر ض الشعور . لقد كنت أحتقر الحب وأنتني منه ، لأنى لم أر فيه إلا الدلال العابث ، والتَّجنَّى الأَشِر ، والنَّرق الحاد ، والدنس المُريب . اللَّهم إلا حب أنطو نين فلم يكن إلا نزوة فتانة من نزوات القلب وزهرة ريانة من زهرات النفس أعجلها القدر عن شهود الربيع

٨

ليت شعرى من تكون هذه المرأة ؟ أهى علوقة من نوع الإنسان ، أم طيف من طيوف النيب ، أم ظاهرة من ظواهر الجو ؟ تبدوق سما عنيلتنا ثم تذهب وما تترك غير لألاء يزيغ القلب ويخطف البصر ؟ أهى من وطنى أم من وطن بعيد نازح فلا أستطيع اللحاق بها بعد الخضوع لحبها ، فأقضى بقية أيلى بين عبرات تقرّ الجفن وحسرات تقض الجوائح ؟ ولعمرى أهي عبرات تقرّ الجلب فتستطيع أن تجيب عن حي بمثله ؟ وهل من المقول فارغة القلب فتستطيع أن تجيب عن حي بمثله ؟ وهل من المقول أن امرأة بارعة الحسن فارهة الجال ، يكاد شبابها يستحير (١) ، وعرها أنام أن تفترق الأبصار بجالها ؟ وتتنس القلوب بجالها ؟ وبينه ، دون أن تفترق الأبصار بجالها ، أو تقتنص القلوب بجالها ؟ وبينه ، فهو ماثل في قلبها وهي ماثلة في قلبه ، وهو يعيش على حبه كا تعيش هي على حبه ؟

⁽١) استحار الشباب: تم واكتمل

كنت أشغل نفسى بهذه الأسئلة لأفرج عنها ذلك الضيق الكية للوئس. ووجدت من التبذل والضعة أن أدخل في شأنها ، أو أحاول الكشف عن دخيلة أمرها ، فربما كان أجل بي وأندى عَلَى " أن أُسِفَ" (" ولا أقع ، وأن أحوم ولا أرد

٩

على أن أسرة الطبيب الشيخ لم تكن لتتكرم عن مهاجة هذا السر، فأجابت داعى الفضول واستحبت لنفسها ولأضيافها أن يخوضوا في شأن هذه الفتاة الأجنبية ، وراحوا يستقطرون أخبارها، ويتمهنون بما حجب النيب من أمرها، ويحملون ذلك حديث المائدة وموضوع السمر، فكان ذلك يقع في أذنى دون أن أسأل عنه أو أثير البحث فيه ، بل كنت أحلول منمه أو قطمه فلا أستطيع . ولبثت أسمه في كل يوم وفي كل وَجْبَة ، من كل سن ومن كل طبقة : من الشيب والشبان ، والجوارى والغلمان ؛ ومن خدم المنزل وأدِلاً الجبل وملاحى البحيرة . لقد أثرت في كل قلب وامتزجت بكل نفس ومن أن تتصل بإنسان أو تتحدث إلى أحد؛ فكانت هي الفكرة دون أن تتصل بإنسان أو تتحدث إلى أحد؛ فكانت هي الفكرة

⁽١) أسف الطائر : دنا من الأرض في طيرانه .

في كل خاطر ، والفتنةَ في كل ناظر ، والكلمةَ في كل فم ، والجلال في كل قلب. إن في هذا النوع من الناس من يشمُّون الأنوار، ويخطفون الأبصار ، ويجذبون إلى مداره مَنْ حولهم ، دون أن يفكروا في ذلك أو يقصدوا إليه أو يشعروا به . لهم ما للشموس من نظام وجاذبية ؛ فهم يجذبون من تابسيهم الأبصارَ والأفكارَ والنفوسَ فتملق بهم ، وتجرى في الفضاء على ضوئهم . جمل الله لهم من الجال سلطانًا وجنودًا ، ومن السحر أغلالًا وقيودًا ، ومن الحب شرائم وحدوداً . فالناس يتبعونهم في الأرض ، ويشيعونهم إلى السماء ، حتى إذا غابوا عن عيونهم اعتراها البهرَ والجهر فلا ينظرون، وإذا نظروا لا يبصرون، حتى المامة وأوزاع الناس يشمرون مهذه الكائنات المليا-ولاأدرى بأى علامة عمر ومهم-فيعجبون بهم دون أن يفهموهم ، كالأكمه يدرك أشمة الشمس دون أن براها .

1.

علمت من أمر هذه الفتاة أنها تقطن باريس ، وأنها زوج لشيخ كريمسار ذكره فى القرن الماضى بطائفة من الأبحاث العلمية أضافت إلى حصائل العقل البشرى ثروة وافرة . راعه مارأى من جالها، وفتنه ماعرف من ذكائها، فتبناها قبل أن يبنى بها ليترك لها بعدموته اسمه وماله. وأحبته هي عبة الولد البار للوالد الحنون، ودأبت تنضح وده في كل نهار برسالة تُضَمَها أحاديث نفسها وأقلق و وازع هواها، حتى اعتراها منذ عامين نحول شف جسمها وأقلق زوجها. فاستوصف الأطباء فأمروها بالرحلة إلى الجنوب تغييراً لهوا، وترويحاً للنفس. وحال بين الشيخ وين مرافقتها علله الملازمة، فعهد بها إلى أسرة في لوزان يينه ويينها صلة موثقة. فابت معها أقطار سويسرا وإيطاليا ؛ ولكن تبدل الأجواء وتغير الهواء، لم يسحاعن جسم العليلة شحوب السق، ولم يعيدا إليها كال القوة. فجاء بها إلى مياه إكس طبيب من چنيف شافة أن يكون ما بها مرمناً من أمراض القلب. وهو لا بد آت مع الشتاء ليعود بها إلى باريس.

ذلك مبلغ ما أنمى إلى من خبرهذه الفتاة التى أصبحت عزيزة على . ومن قبل كنت أردد وأق كد أن تفصيل أمرها ودخيلة سرها شيء لا أشغل به فكرى ولا أجمل إليه بالى . فازددت لهذه الفتاة شفقة ورأفة ، وعن على أن أرى هذا الجال الساحر يصاب وهوفى ربيعه وزهر ته بهذا الداء الخام الذى يوقد الشعور ويلهب الإحساس ويرهف الذهن ، كلا أذاب الجسم وأفنى الحياة

ونقَص العافية . ولشد ما كان ياوع قلبي الحزُّ ن كما وقعت عيناى منها على هذه الخطوط الخفية التي رسمها الألم على طرف شفتها اللمياء التي أذواها الشحوب ، وحَوْل عينيها الزرقاء التي غزاها الأرق 1

كان يشغل بالى من هـذه الفتاة رشاقة ساحرة وقسامة رائمة ، فأصبح أكثر ما يشغلنى منها تلك الظلال التى نشرها الموت من حولها ، فتبدو من خلالها شبحاً من أشباح الخيال لا شخصاً من أشخاص الحقيقة . وفيا عدا ذلك لبثنا في موقفنا الأول نسير في الحياة متدانيين بالمجاورة ، متباعدين بالمناكرة ، لا يصل بيننا حديث ولا تدنينا مودة .

11

أخذت واكبر الثلج تلفع رؤوس التنوب على قم سقوا، وأنشأت الرياح البليلة تهب فوق التلال العالية، وتجمعت حرارة أكتوبر المتمة اللذيذة في جوف الوادى ، وما برحت النسائم الفاترة على شطئان البحيرة ومياهها ، ولألأت شمس الظهيرة خارف الحور الطويلة المؤدية إليها، وحركت الريح أغصان الشجر وذوائب الدوح ، فكان لها اهتزاز وحفيف يسحراف اللب ويسترقان المشاعر.

لذلك عنفت عن التجوال في الجبال، ورحت أرتع في ربى الوادى بين خائله وجنانه، ومسايله وخلجانه؛ ودأ بتُ أتضى شطراً من النهار على متون الماء حتى عرفتى الملاحون. وقد قيل في إنهم لا يزالون يذكرون تلك السياحات الطويلة التي كنت أحملهم عليها في الخلجان النائية والأغوار الموحشة من شواطئ فرنسا وسقوا. كذلك كانت الفتاة تستقل زورقها الحين بعد الحين إلى جولات لا تطول مدتها ولا يبعد مداها. وتوتيتها الذين يتولاه شيء من الزهو والفضر مجملهم إياها لا ينفلون عن النظر في وجه السهاء يرقبون ظواهمها ويستطلمون سرائرها. فإذا رأوا مخايل المطر أحسوا دلائل الحطر نبهوها إلى ذلك فتمود . لأنهم يؤثرونها على أنضهم ، فيفضاون صمها وسلامتها على زورقهم المردود وأجره المفتود ويومهم الضائع

على أن الجو خدعهم ذات مرة فهو نوا عليها عبور البحيرة، وزينوا لها أن نزور أطلال دير الهتكب على المُدْوَةِ الأخرى . فأقلع بها واحد منهم ، ولكنه ما كاد يبلغ الثلثين من عرض البحيرة حتى عصفته رمح هوجاء أرسِلَتْ عليه من مضايق وادى الرون فأثارت الأمواح وأفارت الزيد وطاحت بشراع السفينة وخلفتها في يد الموج الصاخب أشبه بقشرة الجوزة ، يجذبها

ويدفعها ، ويخفضها ويرفعها ، ولا عدة للملاح غير مجدافين يكافح بهما الموج الهاجم والخطر الداهم عن الفُلك الهلوع لم يعدالرجوع في طوقه ولا إمكانه ؛ وبينه وبين صغور الهتكب نصف ساعة من الجهد الجهيد والرهق الشدمد والغرق المتوقع . وكان قَدَرُ الله أوحظ نفسي يقود في هذا اليوم وفي هذه الساعة زورق المتين على وجه الماء ، ومعى أربعة من شداد المجدفين أقلمت بهم إلى جزيرة من جزر اليحيرة أزور فيها قريباً لصديق لويس يدعى دُشاتيُون ، قد شيد قصره الفخم على صخرة في رأس هذه الجزيرة . وكانت عيناي تتبعان زورق الفتاة على مدى الطرف، في اكدنانقترب من مرفأ شاتيون حتى بصرت بزورتها يسبث به النوء ويصارعه الموج ويرنِّق عليه الخطر . فرددنا زورقنا عن وجهه، ورجمناه على عقبه، واقتحمنا اللجة، وابتدرنا العاصفة بقلب واحدورأي جميع ، عسى أن ننقذالزورق الحالك المكروب وقد احتجب في أفق رجراج من الزيد المركوم. ولا تسل عن صبرى المغلوب ولُكِيَّ المسلوب وطرفيَ الحائر أثناء الساعة التي قطعنا فيها عرض البحيرة! على أن الله كتب للهالكين السلامة، فقيض للزورق ساعةً لحقناه موجةً كالجبل قذفت به إلى الساحل أمام أطلال الدير . فشهقنا من السرور وصحنا من الفرح وألقينا

مأنفسنا في الماء متسابقين إلى الزورق لنحمل المريضة الغريقة إلى الشاطئ . وكان الملاح المسكين يطلب منا المونة والنوث بحركة المحزون وحالة المجنون وصوت الثُدَلَّة ، ويشير بيده إلى جوف الزورق . فدنونا ثم نظرنا فإذا الفتاة هامدة الجسم فاقدة الرشد ، وإذا الماء قد غشي ساقيها وذراعيها بطبقة من الزبد والصقيم ، إلا صدرها وما علاه فقدكانا بنجوة من الماء . وكان رأمها كرأس الميت مسنداً إلى صندوق صنير من الخشب يضع فيه الملاحون متاعهم وآلتهم، وشعرها متهدلاً على سالفتيها وكتفيها كجناحي طائر أسود قد غرق إلى نصفه في غدير ، ووجهها البــاقي على إشراقه ورُواڻه تنتشر عليــه سكينة النوم الهادئ انتشار الجمال الرائع تتركه الروح على وجوه الفتيات يوم الفناء ، أو شفق الخلود على الملامح التي يريد تخليدها في ذاكرات الأحياء. أبداً ما رأيتما ولن أراها في مثل هذه السحنة الإلهية القدسية . فهل كان الموت ميلاداً لهذه الصورة الساوية ؟ أم أراد الله أن ينقش على لوحة خاطري لأول انفعال أكملَ هيئة لأجل صورة ، لتكون على الدوام لميني مثالًا مشهودًا ، ولقلبي تمثالًا معبودًا ؟

بادرنا إلى الزورق لننشل المحتضرة من فراشها المزبد ونحملها إلى خلف الصخور . فوضعت يدى على صدرها فكأنما وضعتها على دمية ، وأدنيت أذنى من شفتها فكا أه الدنيتها من شفقى طفل نائم . وكان قلبها يخفق شديداً غير منتظم ، و نفسها يتردد فاتراً غير متصل ، فأدركت أن ليس بها إلا إنماءة طويلة من أثر الذعر والبرد . وتقدم بحار فأخذ بقدميها ، وجملت أنا كاهلها ورأسها على صدرى ، ثم حملناها دون أن تحس ولا تمى إلى كوخ صياد تحت صغرة المتكب كان اللاحون يتخذونه فندقاً يؤوون الدير

كان هذا الكوخ مشتبلاً على حجرة منيقة مظلمة منبرة من الدخان ، كل ما فيها من الأثاث مائدة موقرة بالخبز والجبن وقنانى الحر . ويجانب المدفأة سلم خشى يصمد بك إلى عُرفة واطئة تنيرها كُوّة ناظرة إلى البحيرة ، قد شغل فراغها ثلاثة أسرة ذوات أبواب من الخشب أغلقت عليها . دخلنا الكوخ فإذا أهله رُقود فوق الأسِرَّة ؛ فلما شعر وابنا استيقظوا ، وأقبلت ربة البيت وممها فتاتان فأخذن السيدة وألقينها على حَشِيَّة قريبة من المدفأة ، وأوقدن لها ناراً هادئة من القش وأعواد الرَّتَم (١٠) ، وخرجنا نحن وأخذ النسوة ينضون عنها ثيابها ليجففها ويمسحن عن جينها وأخذ النسوة ينضون عنها ثيابها ليجففها ويمسحن عن جينها وشعرها ما تقطر من ماء البحيرة ، ثم رفعها ولا تزال غائبة إلى

⁽١) الرتم : ضرب من الشجر زهره كالحبي ويزره كالمدس (le genet)

أحد الأسرة بعد أن مددن عليه ظهارة بيضاء أدفأنها بحجارة ساخنة من حجارة الموقد على عادة القروبين في هــــذه الجبال ، وجَرَّعْها نُطَفًا من الخل والنبيذ عسى أن يمو د حسما وترتد إلما نَفْسَمًا فَمَا رَجِعِن بِطَائِلٍ . فَلَمَا ذَهِبَتَ عِنَايَتِهِنِ هُو اء ، وعِنَاؤُهِنِ هباء ، انفجر ن بالبكاء والمويل ، وطفقن يرددن قولمن : «ماتت الآنسة ! توفيت السيدة ! لم يبق إلا البكاء ودعاء القَسُّ » فانضم إليهن البحارة وم حياري من الخطب ، سكاري من الكرب، وأخذوا يولُّولون ويُعُولون، وصمدت أنا مجلان على السلم ودخلت الغرفة وأقبلت على السرير فلمست جبينها بكني فأحسست 4 وهبج الحمي، ووجدتها تُنْسم بانتظام نَسَم الريح الضعيفة، فأسكت النساء وأعطيت أصغر الملاحين ديناراً وكلفته الذهاب إلى طبيب قيل إنه يسكن قرية فوق تلمة من تلاع جبل القط على فرسخين من دير الهتكمب . فانطلق الملاح يمدو مسرعاً . وقر الآخرون في أماكنهم مطمئنين على حياة السيدة ، وأخذ النسوة يذهبن من الردهة إلى النرفة ، ومن القبو إلى عُبْم الدجاج ، ساعيات لإعداد الطمام ؛ وبقيت أنا جالساً على عدل من دقيق الذرة بجانب سرير الفتاة ، بداي معقودتان على ركبتيّ ، وعيناي شاخصتان إلى وجهها الساكن وجفتها المغمض . وأقبل الليل فقامت إحدى الفتاتين فأغلقت النافذة وعلقت بالحائط مصباحاً صغيراً، فسقط ضوؤه على عبس (۱) السريرالأبيض ووجه الفتاة الناعس كما تسقط أضواء الشموع على الميت المسجّى . آه ! لقد سهرت ليلى بعد ذلك على وجوه أخر ، ولكن وا أسفاه ! لم يكن لليلها صباح ولا لنومها يقطة !

11

ما أظن أحداً فى الناس وقع له ما وقع لى أثناء هذه الساعات الطوال من شخوص البصر وهيام الفكر فى جو من التأمل المحبب والتفكر الشديد. فقد كنت موزع القلب مقسم الخاطريين الحب والموت ، لا أدرى ماذا يُبيَّته لى النيب فى ضمير الليل: أيكون لى من هذا الوجه الملكى الماثل أمام عنى حزن وألم يبقيان بقاء الأبد، أو حب وعبادة يتخللان منى مسالك الروح فى الجسد ؟

كان نوم الفتاة ناياً قلقاً ، ولكن اضطرابه لم يقوعلى إيقاظها ، وإنما عبث بالفطاء فانحسر عن إحدى كتفيها ، وتهدل عليه حاق غلاظ من شعرها الأثيث الناع ، وناء جيدُها الضعيف بثقل رأسها فالتوى قليلا على الوسادة ، وتخلصت إحدى الذراعين من اللحاف

⁽١) المحبس : ثوب يطرح على ظهر الفراش لينام عليه (الملاءة)

و نامت تحت المنق ، فأمكنت الراثي أن يميز لون مرفقها الماجي من لون القبيص الرمادي الغليظ الذي دُرها ﴿ النسوة ، وتلاُّلاُّ فىأصبع من أصابع يدها الضالة فى ليل شعرها خاتم صفير من الذهب المرصع بفصوص من الياقوت قدانمكست عليها أضواءالصباح وكانت الفتاتان قد نامتا في ثياب النهار على أرض الغرفة والأم قد أخذها الوسن على كرسي من الخشب فألقت برأسها وذراعها على متكَّنه . فلما صاح الديك في الفناء ، وغررد المصفور في الروض ، استيقظ النسوة وخرجن إلى عملهن محملن قباقيمن في أيديهن حتى لايحدثن صوتًا ولا حركة. ثم أخذت أضواء الفجر تسيل من خصاص النافذة الملقة ، ففتحتما رجاة أن يكون لنسيم الصباح العليل ، وهواء البحيرة البليل ، وشعاع الشمس الجيل ، أثر في إيقاظ الحياة في هذه الفتاة . فقد أصبح متمناي وغاية هواي أن تتنبه ولو مخمود أنفاسي وفقد حياتي

دخل النسيم نديًا بارداً فلا الغرفة وأطفأ المصباح الخافت، ولكن النائمة لمهمب ولم تتحرك. وسمست النسوة المساكين يصلين جماعة صلاة الصبح في خفوت وقنوت ورهبة. فوقع في نفسي أن أصلى أنا أيضاً. وذلك دأب النفوس إذا أرهقها الأمر فحلً عراها وهد قواها فزعت إلى القوة الإلهية تلتس مها القدرة في العجز، والجلادة على الخطب، والصبر عند المصيبة. فجنوت على الأرض وشبكت يديَّعلى حافة السرير، وحدقت ببصرى في وجه الفتاة ثم صليت وأطلت الصلاة بقلب خاشع وجفن دامع وشمور متقد. وسالت مذارف عيني فحجبت عني صورة من أدعو لها الله وأرجو لها البقظة

كنت أستطيع أن ألبث على هذه الحال ساعات طو الادون أن أشعر بمرور الزمن ، أو أحس ما نال ركبتى من أذى البرد وصلابة الحجر ، مادامت نفسى فانية في شعوروا حدوارادة واحدة . ولكننى شعرت فجأة بيد لمست يدى وسقطت برفق على رأسى كالو تريد أن تنصى شعرى عن وجهى وأن تبارك على . فصحت من الدهش و نظرت فإذا عين المريضة مفتوحة ، وإذا فها ناسم ، وإذا يدها مبسوطة تبحث عن يدى وهى تقول :

لك الحمد ما رب إلقد رزقتني أخاً إ

14

نبهها برد الصباح يبنا كنت أصلى ، فرأتنى على الحال التى وصفت : وجعى على حفاف سر برها غريق فى شعرى وعبراتى ، وحرارة شفتى ممزوجة بحاسة دعواتى . وكان لها مرب الضوء

ماساعدها على معرفتي ، ومن الزمن مامكنها من التفكير فها كانت عليه وفيا صارت إليه . رأت نفسها قد أصابها النشيان وهي فعنة عن الناس ووحشة من الحياة ، فأفاقت منه وهي بين حنان وعطف يفيضان من عيني مؤمن لا تعرفه . كانت محرومة نسب القلب وصلة الروح وهي في ربيع شبابها المتروك، فوجدت بجانبها بنتة وجها وهيئة وعناية وصلاة ومدامع لاتكون إلا لأخ ولاتصدر إلا من أخ. فلم تمالك - وقدظفرت بهذه السعادة في الساعة التي شمرت فها بمودة الحياة - أن حركت لسانها مهذه الجلة المؤثرة (لك الحمد بارب لقد رزقتني أخا ١) فأمسكث يدها المبسوطة إلى ونحيَّتُها عن جبيني إكباراً لما أن تمسني ، ثم قلت : أخ؟ أوه! كلا باسيدتي لست أخا ، و إما أنا عبدٌ لِمَواك وظل لشخصك ؛ لاأبتغي الوسيلة إلى نميم الدنيا وسعادة الآخرة إلا بأن يكون لي الحق في تذكار هذه الليلة، والاحتفاظ بصورة هذه الحورية التي تستطيع وحدها أن تحبب إلىَّ الموت لأجلها ، أو تهوَّن علىَّ الحياة في ظلها . وبينها كنت أنطق هذه الكلماث بلسان ثقيل متردد ، وصوت خافت متهدج، كان ورد الحياة يتفتح في وجنتيها ، وابتسامة حزينة تنتشر على شفتها ، وشك مريب في هذه السعادة يبدو في عينها . وما أسرع ما اختلفت على وجهها ألوان القدر : فن نمرة الموتإلى

زهرة الحياة، ومن حلم الحيال إلى يقظة الحقيقة! لقدار تسمت عَلَى ملامح وجهها الوسيم النضرشتي المواطف ومختلف الصفات في وقت واحد: فذهول ونشوة ، وسقم وراحة ، وكا بة وفرح ، وظرف وحشمة؛ وكنت تقرأ في خايل وجهها، وتدرك من دلائل صمتها، مانعيا عنهالصحف المنشّرة، والكتب المحدة، والجل المزورة، من الصراحة والطمأ نينة والثقة والأمل. إن وجه الإنسان لسانعينه. وإنُّ عَيَّا الشباب لينقل أسر ار المودة الصامتة من نفس إلى نفس نقلا تمجز عنه لغات العالم. ولاجرم أن ثيابي المبللة ، وخُصَل شعري الطويلة المرسلة ، ورباط رقبتي المرخى المنحل ، وعيني المرهاء من الأرق، ولوني الكاسف من الفَرَق، وضراعتي وذهولي أمام هذا الجال الطاهم المنب، وما اعتراني من القلق والانفمال والجذل والابتهال، وظلام هذه الغرفة الجرداء، وقيلى وسطها دون صوت ولا حركة ، وأشعة الشمس تهرعيني و تضيء بقايا الدموع على خدى ؟ كل أولئك كسب وجعى وملاعى قوة خارقة وإشارة ناطقة وعبارة صادقة ، نمَّت لها عن فؤاد غير كذوب ، ووداد غير مشوب، وحنان لن تجد مثله على كثرة الناس وطول الحياة ولما أعياني احتمال هذه الصدمة ، واستقلتني من رهبة الصمت وجلال الموقف رعدة ، دعوت النسوة فأقبلن . وماكادت أنظارهن تقع على الفتاة حتى هفت قلومهن من دهشة المفاجأة واعتقدن أن انبعاثها من غشيتها معجزة . واتفق أن جاء في هذه الساعة الطبيب الذي بمثنا في طلبه البارحة ، فأمر هابالراحة ، ووصف لها نقيماً من أعشاب هــذا الجبل فهدأ به قلبها وسكن . وأقبل الطبيب علينا يسكن روعنا ومذهب خوفنا، ويعلن أن هذا المرض لاخطر فيه ولا محذور منه، وإنما هو داء من أدواءالنساء يصيمهن في مرس الشباب، فإذا تنفس بهن العمر انكسرت حدثه وبعدت نوبته. أما سببه فإفراط في الحس يترك ما فاض من الشعور وطني من الحياة أشبه بالموت وليس 4 ، إلا إذا مدَّه وقوَّته علل النفس الباطنة فإنه يصبح إذ ذاك انقباضًا دائمًا واكتئابًا لازما ، مجمل الحياة مربرة المذاق عسيرة الحل . قال ذلك ثم انصرف ، وخرج النسوة على أثره يبحثن في المروج عن الأعشاب التي وصفها . وأخذالناسلات يكوبن ثياب الفتاة في الحجرة . أما أنا فغادرت المنزل لأجول وحدى في خرائب الدير العتيق . على أن قلم كان مفمًا بتأثرء الخاص فما أظنه يتسع لهذه الطلول والدُّمن أصيحت حياتها اليوم في المامد كياة الأوامد ، لا تربط الرهبان بإخوانهم آصرة، ولا تدنيهم من الناس منفعة، ثم يتبخرون على جنادل الديور ويلحقون من غَبَرَ ، دون أن يكون لمم في القلوب ذكر ولا في الوجود أثر . فليست الرهبانية إذن محل إجلالي ولا مثار إعبابي ف هذا الدير ، وإنما أعبب الإعباب كله بالطبيمة وقدرتها على احتلال ما أخلى الإنسان من أماكن وغادر من مساكن ١ إن هندستها الحية البادمة في اليقطين الناشبة جذوره في ملاط البناء، والموسج واللبلاب الذاهبة عساليجها في الهواء ، والقرنفل المتعلق والنبات المتسلق على صدوع الحائط فيكسوها حلة من الخضرة ، لهي أجل في العين وأسمى في القلب من هندسة الإنسان في الحجارة الجامدة والستور الخامدة بالريشة والمنحت . وإن ما نراه ونسمعه اليوم من لألاء الشمس ، وعبير النبت ، وخرير الماء، وألحان الهواء ، وهدير الموج، وتغريد الطير ، ودوئّ البحيرة ، وأصداء الغامة ، في ساباط هذه الكنيسة القويَّض ، وفي صخبها المهدم، وتحت قبابها المزقة المعلقة ، لأروع وأجل مما كان يملاً ها بالأمس من أضواء الشموع ، ودخان البخور ، وترتيل الرهبان المتشابه في مواكب الصلاة وحفلات القداس

إن الطبيعة أكبر قساوسة الله ، وأمهر مصوريه ، وأقدر

شمرائه، وأبرع مغنيه. وإنك لتجدفى عش المصفور تتناغى فيه أفراخه تحت رفرف الهيكل الدارس ؛ وفى أنفاس الرياح تهب من البحر حاملة إلى أديرة الجبل المقفرة خفوق الشُرُع وأنين الأمواج وغناء الصيادين ؛ وفى الزهور ينتشر أرَجها فى الفضاء وينتثرورتها على القبور؛ وفي صدى أقدام الزائرين تقع على مضاجع الموتى من هذا الدير ؛ تجد فى هذا كله من التقى والروعة والتأثير ما كان فى هذا الدير منه وهو فى إبان عهده ، وعنفوان مجده !

نم لا يزال بجوار هذا المكان بقية من بنى الإنسان بنفوسهم الصغيرة وميولهم الحقيرة ؛ ولكن جلال الله فى الطبيمة أكبر وأظهر . فترى عُلاه وسناه ينشيان هذه القبور مع ضوء الشمس ونور السماء لا محصهما سحاب ، ولا تصدهما يباب

10

لم أكن في هذه الآونة مالكا لمشاهري ولا ضابطاً للمواطري ، حتى أوضع في نفسي هذه الأفكار المهمة . فقد كنت أشبه برجل آده عب فادح فألقاه عن ظهره ثم انطلق عافياً من تعبه ، يبسط عضلائه المقبوضة ، ويمرئس أعضاءه المرضوضة ، ويتنفس ملء رئتيه ، ويسير حيث شاء فسيح الخطوكاً تما يريد أن ينهب الفضاء، ويستنشق كل ما فى الجو من هواء . لم يكن ذلك السبء الذى ألقيته وتخلصت منه غيرقلبى . فإنى منذ أعطيتها إياه شعرت لأول مرة بمام الحرية وكمال الحياة . إنحا خلق الإنسان للعب . فهو لايشعر برجولته وإنسانيته إلا يوم يشعر حقيقة أنه يحب . أما قبل ذلك فهو يبحث ويقلق ويضطرب ويضل فى شماع فكره ، حتى إذا وجد الحب وعرفه وتف واستراح وخلى زمامه بهد القدر

صمدت إلى سطح هناك فسيح مهدم تكسوه الأعشاب، ويتد على جوانبه اللبلاب، ثم جلست على حائطه المطل على البحيرة، وأدلبت ساق نحو اللجة، وأرسلت عين تجولان فى عُباب الماء وعَنان الماء وقد التقيا عند الأفق، فاكنت أدرى أين تبتدى السماء ولا أين تنتهى البحيرة، فيل إلى أنى أسبح في طبقات الأثير، وأغوص في لجيج الفضاء المطلق. ولكن السرور الذي تسبح به نفسي وتمرح كان أوسع وأروع وأضوأ وأعمق من الجو الذي يسبح فيه جسمى ألف صرة. وليس في الإمكان أن أعرف هذا السرور أو بالحرى هذا الصفاء الباطن، فقد كان أشبه الأشياء بسر بسيد النور شاع في جوانب نفسي بالإحساس لا بالكلام، أو بالشمور الذي تدركه المين إذا انتقات

إلى النور بعد الظلام ، أو أشبه شىء بنفس الصوفى إذا اعتقدت حلول الله فيها بوحيه وهَدْيه . فهو فور من غير نار ، وسكر من غير خُغار ، وراحة من دون عناء ولا سكون !

لو أنى على في هذه الحال ما أنى من القرون على هذه البحيرة لما شعرت أنى لبثت أكثر من ثوان معدودة : ذلك هو فقد الشعور بالزمن الذي يعترى الحالدين في الجنة !

17

كذلك كان الشمور في نفسي غير ممين ولا مبين ولا محدد . فقد كان كمالاً لا يقدِّر ولا يفصل ، ووحدة لا تجزاً ولا تحلل ، لا من طريق الفكر ، ولا من طريق المقل . لم يكن مبعثه جال هذه المرأة الفاتن الدي أعبده ، لأن ظلال الموت لم تزل ممدودة بين جالما وعيني ؛ ولا الصلف والزهو بأنها تحبني ، لأني أجهل مكانى منها ، فرعاكنت في عينها حلما بدا ثم تبدد ؛ ولا الأمل في نيل هذه المتمة الجميلة ، لأن إجلالي لها كان فوق هذه الشهوات السافلة والملذات الباطلة فلا أخطرها ببالي ؛ ولا المباهاة بالظفر في سبيل هذه المرأة ، لأن هذه الصفة الذميمة ليست من عادتي ولا خلق ، وليس في هذا المكان القفر من أباهي أمامه بحبي ،

وأستطيل عليه بإختيالي وتُحبّى ؛ ولاالرجاء فيأن يجمع بيننا الزواج ، لأَتَى أَعَلِمُ أَنْهَا زُوجَةً ؛ ولا اليقين بأَنَّى سأَنْتُم بِرَوِّيتُهَا ، وأسمد نفسي بصحبها ، لأني لست مطلق الإرادة ولا حر التصرف ، وعما قليل تنبو الديار ويتصدع الشمل ؛ ولا التأكدَ من أن لى مَكَانًا في قلمها ، ونصيبًا من حبها ، لأني أجهل دخيلة نفسها ومطمح هواها ، اللهم إلا حركة وكلة عبرت بهما عن شكرها لیدی وجمیلی . کان مبعث شعوری وسروری شیئاً آخر غیر هذا كله : كان عاطفة نزيهة نقية هادئة لا يشوبها غرض من أغراض الحياة ، ولا عَرَض من أعراض المادة . كان شعور الراحة بجده من ظفر بحاجة طالما نشدها فا وجدها ، وبدركه القلب العابد القانت أعوزه معبوده وعز عليه شهوده ، فَيُعضُّهُ الألم وتُرْمضه المذاب ، حتى إذا احتدى إليه علق به علوق الحدمد بالمناطيس، وفنيَ فيه فناء النفس في الهواء الطليق. ومن أعجب الأشياء أني لم أكن عجلان إلى النظر إليها ، والوقوف بين يديها ، والاستماع إلى صوتها العذب المشتهى ، وهي التي أصبحت مناط آمالي وقبلة خاطري ومنتجع هواي إ ذلك لأني رأيتها فاحتويتها ؟ وليس في مقدور أحد أن يستردها مني ، أو يبعد صورتها عني ؟ فأنًا على القرب والبمد والمشهد والمنيب أراها في نفسي ، وما عدا

ذلك لا يشغلني ولا يعنيني . إن الحب الكامل المطمئن صبور ، لأنه مطلق ولأنه خالد . فانتزاعها مني انتزاع لقلي ، لأني أحسست منذ رأيتها أنني ملكتها ، كا تملك الدين النور حين ترمقه ، والرئة الهواء حين تستنشقه ، والنفسُ الفكر حينا تشلقه . لقد رأيتها وحسبي ذلك . والنظر والتأمل لذة وراحة . وسواء على أمنحتني حبها وشغلت بي قلبها ، أم مرت على فلا تفطن إلى . لقد غشيني ضوؤها وغرني سناها فلم تعد تستطيع هي استرداد ما نالني من أشمتها وبهائها ، كما لا تستطيع الشمس أن تسترجع ما منحت الطبيعة من حرارتها ولألائها . وأحسب أنى — وإن ما منحت الطبيعة من حرارتها ولألائها . وأحسب أنى — وإن فيه الحرارة والنور ، على كر الأيام ومر العصور

۱۷

أفاض هذا الاعتقاد على حبى سكينة الدوام، وهدوء اليقين، وسعة اللانهاية، ونشوة الفرح الذي لا تقر فورته، ولا تسكن سور ته على طول الأبد. فتركت الساعات تمر دون حساب ولا عد، ثقة بأن ما أملى منها لا حصرته ولا حد. وكان في استطاعتي أن أفارق هذه الفتاة قرناً من الدهر دون أن يعبث هذا الزمن

البميد بحيى، فلا يقلل يوماً من خلوده ودوامه، ولا ينقص شيئاً من كاله وتمامه . لقد كنت أذهب وأؤوب ، وأقمد وأقوم ، وأسرع وأبطئ وأمشى على الأرض لا تمسها قدماى كأني شبح من أشباح النيب، ترفعه قوله السبَّاحة عن أديم الثرى فينزاق عليـه دون أن يمسه . كنت أفتح ذراعي للهواء وللماء وللفضاء كأنى أرىد أن أعانق الطبيعة أشكرها على أن تجلت بأنوارها وأمرارها وحياتها وجمالها في هذه المرأة الفاتنة . وكنت أجثو على الصخور والشوك دون أن أحس ، وأركم على شفير الهاوية دون أن أرى ، وأرفع صوتى بالكلام المهم يطني عليه صخَّ الأمواج الهادرة فيذهب، وأغوص في رقيع السماء اللازوردية بنظراتى الدائبة الثاقبة لأكشف فيهاعن وجود الله نفسه فأشكره أنا لم أعد قط إنسانا ، وإنما كنت تسبيحة هائمة وتحية داعة ، أصبح وأغنى ، وأبهل وأصلى ، وأذكر وأشكر ، بالفيض والإلهام لا بالنطق والكلام، فشاعري ثملة فرحة، ونفسي هائجة مرحة ، وجسمي ينتقل من هاوية إلى لجة غير ذاكر هَيولاه ، ولا ممتقد بالزمان ولا بالمكان ولا بالموت. وهكذا فجر الحب في قلى ينابيع النبطة، وأيقظ في نفسي روابط المواطف، وجلا لعيني مسارح الخاود ا

ما فطنت إلى فرار السامات إلا حين لألأت شمس الظهرة الأشجار من صغرة إلى صغرة ، ومن جذع إلى جذع ، وقلى واجف تكاد تنشق حنايا الصدر من وجيبه . فلما دنوت مرخ المنزل الذي أوينا إليه المريضة ، نظرت فإذا هي جالسة في مرج وراء البيت تحت حائط مديم بالصخور ، وثوبها الأبيض يلمع في ضوء الشمس فشمشع خضرة الروض ، وكومةٌ من العلف تَمد عليها الظل فَوقتُها شمس الظهيرة . كانت تقرأ في كتاب منشور على ركبتها ، فقطمت القراءة هنيهة وأقبلت ترتعرو تلسب مع الأطفال الذين جاءوها يقدمون إليها الزهور والكَسَّتناء . فلما أبصرتني هُّت بالنهوض إلى ، فشحمتني هذه الحركة على التقدم فتقدمت؛ وقامت هي تلقاني وعلى خـــدمها حرة الخفُر ، وعلى شفتها اختلاجة الحياء، فزاد ذلك في خطى وقلل من نشاطي. وربكتنامعاً غرامة الموقف ، وأخذت علينا مذاهب القول ، فليثنا ردكامن الزمن لا نحد حديثا نفتحه ، ولا حادثاً نشرحه ، حتى أومأت إلىَّ إيماءة مضطربة خفية بالجلوس في ظل الكومة على مقرية منها . فظننت أنها كانت تنتظر في وأنها أعدت لي المجلس قبل عيثي . فأخذت مكاني في أدب وحشمة ، واستمر مني ومنها السكوت . وماذا كنت تريد أن نقول ؟ لقد كان كلانا يبحث دون طائل في حنايا ذاكرته ونواحي خياله عرب تلك السكايات المبتذلة التي يتداولها الناس تداولهم للنقد المزيف . فيكتمون سها أفكاره بدل أن يعلنوها، ويهمون بها آراءه دون أن يبينوها. أما الحديث الخاص فقد كان شأنه أعجب ، لأنا خشينا أن يقصر فَيُخْل ، أُو يطول فَيُمل ، فَآثِرُنا أَنْ نَكُظُم عَلَى مَا فَى نفوسنا فلا يتعدى الشـفاه ؛ وازداد على طول الصمت احمرار الوجه وانكسار الطرف. ولمل هذه الحال كانت تطول لولا أن ارتفت أجفاننا وتلاقت أبصارنا ، ورأى كل منا في عين الآخر مكنون سره ومستور أمره . رأيت في عينها فيضاً من الشعور والحساسة ، ورأت في عيني ولا ريب وفراً من الطهر والحاسة ، فلم يستطع كل منا أن يرد بصره عن وجه أخيه ، وأجهشت مآقينا بالدمع فى وقت واحد، فرفعنا أيدينا بحكم الغريزة إلى عيوننا لعلما تخفى ما فضحه الدمع ونم عليه الجزع

لاأدرى كم لبثناعلى هذه الحال إلى أن قالت بصوت متهدج ولهجة بطيئة رزينة: « أبند أن ذرفت عَلَّ عبرتك ، ومنحتنى اخوَّتك ، تهاب الكلام ولا تجرؤعلى الحديث ؟ إن دمه تسكبها

عين نزيهة من قلب مجهول لهي أثمن من حياتي وأجل نعم الله على -ثم أَشْرَبت صوتها نعمة المتاب الرقيق وقالت : لعلى عدت غريبة في عينك ، منذ أصبحت غنية عن عونك ! أما أنا فاكنت أعرف منك إلا اممك ووجهك ، والآن عرفت نفسك معرفة ما كانت تهيأ لى في قرن . فقلت لها : أما أنا ياسيدتي فلا أريد أن أعرف منك ذلك الجثمان الحي النبي يشبه ما للناس ، وتصله بهذه الحياة علائق كملائق الناس، وإنما أريد أن أعرف ذلك السر الذي سما بك إلى أفق الوجود ، ودعاني إلى أن أراعيك بنظرى على ُبعد، وأستحضرك في قلبي كل لحظة . فقالت : ﴿ لا تَخدع نفسك هذا الخداع ولا تُضْف على من قلبك هذا النوب الساوى والنور الإلمى ، فإنك لا تدرى مقدار ألى إذا انكشفت الأيام عن صلال هذا الوهم، وفساد هذا الزعم، وتبدُّد هذا الحلم. لا تر فيَّ أكثر من امرأة بائسة تقضى نحبها في ظلمة اليأس ووحشة المزلة . وكل ما تزودته من النـاس ، وادخرته من الحياة شيء من الرحمة قليل . ستملم ذلك حق العلم يوم أكشف لك عن حقيقة حالى وباطن أمرى . ولكن أخبرني قبــل ذلك عن شيء فيك طالما ساورني منه إشفاق وقلق منـــذ رأيتك في الحديقة . ما بالك وأنت في ميعة الشباب ومرح الصبي وجمال

الخلقة تسير مع الهم وتستأنس بالوحشة ؟ لمـاذا تتحامى الناس وتمتزل أهل المنزل وتؤثر الانفراد بنفسك في مجاهل الجبــل أو البحيرة ، أو تحتبس في غرفتك لا تبرحها طول ومك؟ والناس يقولون إن مصباحك يبيت هزيماً من الليل مضيئاً. هل ينطوى ضميرك على سر لا يستريح عكنونه إلا إلى الخاوة؟ قالت ذلك ثم انتظرت على قلق بادٍ وإشفاق ظاهر وهي ناكسة الطرف غافة أن ينم وجهها على ما يحدث جوابي في قلبها . فأجبتها : إن هذا السر هو أن ليس لى سر . هو الشمور بعبء ذلك القلب الذي لم تهجه إلى الآن في صدري حماسة ، ولم ترفعه بين جوانحي حيّة. هو الألم مما أصاب هذا القلب الكسير الذي جدت مه على الحب الناقص والمواطف المكذوبة ، ثماضطر رت إلى استرجاعه داى الشناف ، مضطرب الوجيب ، عنوفاً عن اللهو ، يؤوساً من الحب وهو في غرب شبابه وحدة شعوره

ثم قصصت عليها ما يمنيها من تاريخ حياتي وجملة أمرى بلسان صادق ولهجة صريحة . أخبرتها أنى درجت من مهد صفير فقير متواضع ، وأن أبي كان عسكريا عتيق المزاج وثيق التركيب، وأي كانت لطيفة الشعور صافية الحس ، غذت حداثها بلبان العلم ، وجمَّلت شبيبتها بحلية الأدب . وحدثتها عن أخواتي

وما هن عليه من خاوص النية وسماحة الخلق ، وعن نشأتي في حصر الطبيعة بين أطفال الجبال من مواطني وجيرتي ، وولوعي بالدراسة السهلة الخالبة ، وعطلتي القاهرة من الأعمال الكاسبة ؛ وقصصت علما نبأ غرامي الأول الصادق بابنة الصياد في نابل ، وعلاقاتي الفاسدة بباريس وماجرته إلى هذه المخازي من رعونة في خلق، واضطراب في عيشي ، وخجل من نفسي : ووقفتُها على شغفي بالجندية ووقوع الصلح يوم دخلتها وانتظمت بها، وخروجي إلى الجولان في كل بلد وتحت كل كوكب، ورجوعي إلى أسرتي وما بين جنبيٌّ إلا خيبة المسمى وإخفاق الأمل ؛ وما أصابني بمد ذلك من انقباض الصدر ولزوم الهم ورجاء الموت ، وما نجم عن ذبول الجسم ورقة البدزمن همودالنفس وفتور العزم وما يختنى وراء شعرى الأسود ووجعى النضر ومعاطني اللذنة وأربسة وعشرين ربيعا من شيخوخة باكرة في النفس ، وطبيعة نافرة من الميش، وزهادة رجل أخلقته السنون وحطمته السن المالية

كان لسانى يفيض بذكر ماكابدت فى حياتى من جفاء وخشونة ، واشتراز ورعوبة ، وخوروقنوط ؛ ولكن قلبي أصبح منذ هذه اللحظة لا يعرف معنى هذه الأسماء ، ولا مجد أثراً فيه لهذه الأشياء . فإن نظرة واحدة منها جددت كيانى ، وغيرت وجدانی ، و بستنی من رقود . فأنا أتكلم الآن عن نفسی كما أتكلم عن إنسان مات أو حادث فات لا صلة بينه و بين إنسان وليـــد وحادث جدمد

فلمافر غت من حديثي نظرت إليها نظر المهم إلى قاضيه ، فإذا هي مرتمدة الجسم ساهمة الوجه من الجزع تقول: رباه 1 لقد أفزعتني محديثك ورُعْتني . فسألتها ولماذا ؟ فقالت لأنا نتشامه في أكثر الأشياء، وإن لم تشمني في الوحدة والشقاء. إن تاريخ حياتك إذا تغيرت فيه الأسماء والظروف كان تاريخ حياتي لا يزيد ولا ينقص، والفرق أن حياتك تبتدى. ، أما حياتي . . . فنمتها أن تتم الجلة بأن وضعت على قدميها شفتى ، وطوقتهـا بذراعى كأنى أرىد أن أعوقها فلا تطير . وصحت قائلا : كلا ! كلا . إنها لن تنتهي ، وإذا قضى الله لها المامة فلتكن لحياتي أنا أيضاً . وكان من أثر هذه الصرخة العصبية ، وتلك الحركة الاضطرارية ، أن سرت في جسدي رعدة قوية ، فلم أجرؤ على رفع وجهي ور الأرض بمد أن جمت قدمها إليها. أما هي فقالت بصوت الوقور الحليم : انهض من مكانك ، ولا تطع قلبك في حب شيء يسير كهذا الغبار الذي يعلق بشعرك الجيل ولا يلبث أن تهب عليه أعاصير الخريف فتــــذروه . لا تدلس على عقلك الرأى في هذه

الفتاة المسكينة التي تراها ، ولاتخدع نفسك عن حقيقتها ، فليست إلا ظل شباب وأثر جمال وخيال حب ، واحتفظ بقلبك للآتى كتب الله لهن الحياة . أما طرائد الموت فأعطهن ما للأموات : مداً رفيقة تسندهن في الخطوة الأخيرة ، وعيناً مخلصة تذرف علين دممة صميرة . قالت ذلك بلهجة رزينة حازمة صابرة ، فارتمد جسمي واضطرب فؤادي . ولكني حين رفعت بصري إلها ، وأشمة الأصيل تنمكس عليها ، فتزيدها ضياء ورواء، رأيت نضارة وحهها وطلاقة ملامحها نزداد ازدهارهما ساعة فساعة ، كأنما أشرق في قلبها شمس جديدة ، فلم أستطع أن أصدق بكون الموت في هذه الحياة ، ولا بخفاء الخطر في علائم هذا الأمن. وبعد فأأدري ماذا يشغلني الآن وسمني ؟ إن كان الله قد قضي في هذه الحورية بالموت ، فالموت هو الذي أقصده وأنشده . ومَن يدرى ؟ لمل الحب الشامل الكامل الذي تظاأ إليه نفسي يكون فيه ، ولمل الله لم يُرنى هذا النور الذي يوشك أن يخبو على الأرض إلا لأمتدى بسناه فأتبعه إلى القبر ثم إلى السماء . ثم قالت بلهجة لا تشبه لهجة الخليــلة التي تتكلف وقار الصوت وتعمد جد الكلام، وإنما تشبه لهجة الأم الصفيرة، أو الأخت الكبيرة، التي تتحدث في عقل وحكمة إلى ولدها أو أخيها : لا تستغرق

مكذا في أحاديث النفس وكواذب المني ، بل ألق بالك إلى : أنا لا أريد أن تتملق بوم باطل وحلم زائل وظاهم مموه . أريد أن تفهم حقيقة من تملكها نفسك وتحبس عليها هواك ، وتعلم أني لا أستطيع استحقاق هــذه النفس ولا استبقاء هذا الحب إلا بالخديمة والكذب؛ والكذب كان ومازال أبعدا لخلال عن نفسي وأثقل الرذائل على طبعي ، حتى لو عامت أن نميم الجنة معلق على شيء من النفاق والكذب لاجتويته آبية ، وصدفت عنه راضية. فما السعادة المختلسة إلاجحيم القلب وشقاء النفس ووخز الضمير. قالت ذلك وعلى وجهها نقاء الطومة ، وفي صوتها ولاء القلب، وفى عينيها صفاء الضمير . غيل إلىَّ أن الحقيقة الخالدة تمثلت في هذا الجثمان الطاهر ، واستقبلت ضوء الشمس الباهر ، ثم بعثت بصوتها إلى الآذان، وبنظرها إلى الميون، وبروحها إلى القاوب فاستلقيت على حَفا في الكومة عندقد ميها ، واعتمدت رأسي بكني المني، وشخصت بيصري إلى شفتها حتى لا يفوتني منها نغمة ولاحركة ولانسمة

مقربة من بلد ڤرجيني،وهوكما شاءت مخيلة الشاعر جزيرةافريقية من جزر الحيط المندى . ولا شك أنك لاحظت هذا في سواد شعرى وشحوب وجهى ، وصمته في هيئة منطق واختلاف لهجتي . وقد حاولت أن أمحو هذه النغمة من شفتي فما استطمت. على أننى أوثر من صميم قلبي أن أحتفظ بهذا الجَرْس لأنه الأثر الوحيد الذي أبقته صروف الأيام من طفولتي . فهو يذكرني بشي يشبه النواح في رفيف النسمات على موج البحر ، وبساعات القيظ تحت ظلال جوز الهند. وأظهر ما بتحلي لك من خصائص مولدى تلك الرخاوة التي استعصت على الإصلاح في وقفتي ومشيتي، فهي تخالف ما للفرنسيات من نشاط وخفة، وتنم على ما في نفوس المولودين في المستعمرات من استرسال مع الطبع ، وجفاء في الخلق ، وطبيعة صريحة لاتمرف التصنع ولا الرياء اسم أسرتى التي تعرف به هو : د . . . وأما اسمى الخاص

اسم اسرتی التی تعرف به هو : د . . . و اما اسمی الخاص فهو چولیا . ولما حدثت مذبحة البیض فی سان دومینیك فرت أمی وأنا معها رضیمة من وجه الموت فی سفینة من السفن و لكن قضی الله أن تفرق السفینة و الملك أمی ، و یلتینی البَمُ فی الساحل فتلتقطنی زنجیة أرضعتی ثم ردتنی إلی أبی بسد بضع سنین . و طاردت أبی فی مأمنه عادیات اللیالی فساءت حاله ،

واغتُصب ماله ، واعتلت صحته وحكم عليه بالنني والتشريد . فهاجر بي وبأختى إلى فرنسا ، وكنت ومشذ في السادسة من عمرى وأختى تكبرنى قليلا . ثم نزل بنا في بريتانيا على قوم فقراء من أهله . وما لبث غير قليل حتى أدركته منيته ، فكفلتني إحدى قريباته وتبنتني . حتى إذا بلغت اثني عشر ربيعاً فيمني فهما الموت ختقدمت إلى الحكومة بالرعاية والمون جزاء لأبي على ما قدم من خير في سبيل الوطن ، فآوتني في ملجأ من الملاجيء الفاخرة التي أعدتها لبنات الشهداء الذين بذلوا دماءهم أو لفظوا ذماءهم ف حب فرنسا ، فنشأت في أحضان النميم والترف ، ودرجت في رَبع المفاف والشرف، تحوطني الحكومة بالرعاية، ويخصني أهل الدار بالمنامة ، فنما جسمي وذكا عقلي ، وتفتحت أكمام صبای عن شیء کانوا بسمونه الجال. ولـکنه جمال رزین حزین منقبض ، جال زهرة من نبات الأقاليم الحارة انشق عنها كُمُّها تحت جو لا تمرفه ولا تألفه فأدركها الذول عما قليل . على أن هذا الجمال وهذا الذكاء لم ُيصبيا قلبًا ، ولم يَسْبيا عينًا ، في غير الملجأ الذي أعيش فيه . فإن رفيقاتي اللاتي جمتهن في أواصر المحبة وعطفتهن عليٌّ عواطف المودة ، ونزلن من قلى منازل الأهل ، كن يغادرن الملجأ واحدة بعد واحدة . إما إلى أمهاتهن وإما إلى أزواجهن ، وأنا مقطوعة الصلة لا تدعونى أم ولا يزورنى زائر، ولا يذكرنى ذاكر ، ولا يتقدم إلى خطبتى شاب ، لأننى كنت في البيوت والمنتديات نكرة من النكرات ، لا يتحدث عنى متحدث ولا يسمع بى سامع . فكان الأسى يُرْ ، فض جوانحى ويُقِضُ نومى كلما رأيت صواحي يفادرننى تباعاً ، وأيام الأنس بهن تنقضى سراعاً ؛ ورأيتنى متروكة في وحشة العالم ، مجهولة في ظلمة الوجود ، يكابد قلى عذاب الترمل الدائم قبل أن يذوق الحد و يعرف الحبيد !

ولطالما سحّت مدامعي خفية ، وانثنيت بالملام على الزنجية التي التقطتني فلم تدعني فريسة للأمواج في وطني الأول ، فما كانت أفسى على من الناس في وطني الثاني .

وكان رجل نبيه الصوت مرتفع السن يزور المهد الحين بمدالحين من قبل الامبراطور ليقف على تقدم التليذات في الملوم والفنون التي يتلقينها عن كبار المملين في العاصمة . فكان أولياء المعهد يقدمونني إليه في كل مرة مثالا حسنا ونموذجا صحيحاً لما يبذلون من الجهد في تربية هؤلاء البتامي . فقرت صورتي في ذهن الرجل ، ورأيت منه صورة التي وحدباً على منذ طفولتي ، حتى قال

⁽١) الصورة : اليل

على مسمع منى غير مرة: إنه شديد الأسف على أن ليس له ان . فني ذات وم دعيتُ إلى غرفة الرئيسة فوجدت فيها ذلك الشيخ الجليل ينتظرني . فلما رآني اعتراه ما اعتراني من الميبة والرهبة . ثم أخذ يقول: أي بنية! إن السنين تمر على كل الناس، ف يتي منها طويل عليك قصير على". وقد سلخت اليوم من عمرك سبعة عشر ربيعًا ، وفي بضمة شهور تبلنين السن التي تخرجين فيها من هذه الدار إلى العالم . ولكن ليس في المالم من يبسط ذراعيه للقائك، ويفتح مصراعيه لإيوائك؛ فأنت عديمة الوطن والأسرة والمال والأهل؛ والبلادُ التي عرفت الحياة فيها، ودرجت بين ربوعها ومنانها، استولى عليها الزنوج. فحرمانك من الحياة المستقلة الراقية ، أو الحامة الخلصة الواقية ، أزعجني منذ سنبر عليك . فإن ابتفاء الفتاة الرزق من طريق الممل أمر محفوف بالمكاره والمكائد ، والتجاؤها إلى كرم الأصدقاء نزول بالنفس الكبيرة إلى مواطن الضراعة ؛ والجال البارع الذي حباك مه الله ضياء يكشف به عن ظلام الحظ ويدل عليك الرذيلة ، كما مدل الذهب السارق على نفسه ببريقه . فبمن تمتصمين اليوم من هذه الأحزان التي تتوعدك، أو تلك الأخطار التي تترصدك؟ فأجبته: لا أدرى . وإنى لأعلم منذ طويل أن لاعاصم لى من

حظى المشئوم وقضائى المحتوم إلا الله أو الموت

فماود الشيخ الكلام وعلى ثغره ابتسامة الحزىن الهائب قال: إنى فكرت في مأمن ثالث ، ولكني لا أكاد أجرؤ على عرضه . فقلت له : اعرضه باسيدى ، فإنك منذطويل تحمل لى في قلبك وعينك ولسانك حنان الأم ونظر الأب ولهمة الأمين الناصح . وأرى أنى أميم أبى حـين أسمعك ، وأبى أطيعه حين أطيمك وأتبعك . فقال : أتعاملينني معاملة الوالد؟ ما أسعد من كانت له ابنة مثلك ! وما إخالك تبخلين على بالمفو إذا عامت أنه ·· وقم في بالي هذا الخاطر ، ولمع في خيالي هذا الحلم . ولكن اصغي لى ثم ردى على بكل ما في طبعك من حربة ، وما في عقلك من روية . لقد بلنت سلحل الحياة وأصبحت هامة اليوم أو غد $^{(1)}$ ؛ وليس فى الدنيا من عَقيمِ من أخلف له ما حصَّلت من سمعة جميلة وثروة قليلة . ولقد قطعت مراحل عمرى وحيداً لا تشغلني شاغلة عن هـــذه الأبحاث التي أفنت جسمي وأحيت اسمي ، وأنا اليوم أكاد أرسى إلى شاطئ الحياة ، ويسلمني الوجود إلى العـدم ، وكأنى واحسرتاه لم أعش ، لأني ما فكرت في أن أحب . لقد يكون من الفوات أن أرجع أدراجي في سبيل المجدالي اخترتها إلى

⁽١) أصبحت هامة البوم أو غد : كناية عن انتراب الموث

سبيل السمادة التي تنكيتها ، ولكني لأأربد أن أترك حياتي دون أَنْ أَبِقِها بِمد مماتى في ذاكرة بعض الناس بالماطفة ؛ والماطفة وحدها هي الخلود الذي أومن مه وأعتقده. وما هذه العاطفة إلا قليسل من شكر النممة وعرفان الجيل لا أربده إلا منك ، ولا أغرسه إلافيك . ولا سبيل إلى ذلك إلا إذا اصطنعت الشحاعة واستطمت أن تقبلي أمام الناس من هذا الشيخ الراحل اسمه ويده وقلبه. إنه يريد أن يكون الزواج ُجمةً ما بينك و بينه ، حتى يتسفى له أن يقبلك في داره ، وأن مخصك بإعزازه وإيثاره . أما الأمر في الواقع فلن يتمدى أن يكون لك أبا وأن تكوني له ابنة . ثم أمسك عن الكلام ونهض للقيام دون أن يقبل في هذا اليوم على ما قال جوابًا . على أن هذا الجوابكان حاضرا على بديهتي ، جارياً على شفتي ، ولا مكن أن يكون غير القبول . فإن هذا الرجل وحده مو الذي أظهر لي عاطفة تختلف عما كان يظهر ه سائر الزائرين من النظرات النامة على القيحة . والسكارت المطوية على الإهامة ، في ثوب من الإعجاب الجرىء والإطراء السذيء والمدح المبتذل الذي تندى له العذراء الخُفرَة. أنا ما عرفت الحب ولاأحسسته ، وإنما وجدت في قلبي فراغا ووحشة لفقد المشير وإعواز النصير وسوء المصير وعدم الأسرة . وخيل إلى أني أجد كل ما أفقد من والد تبنانى قلبه، ووسعنى حبه، وبوأنى من شرفه وجاهه الملجأ الأمين والحماية القوية من المستقبل الغامض والوجود المريب. إن رأسه قد علاه المسيب، ولكن محمته الطيبة تنيض على مخالطيه ومقريه الشباب والقوة. وإن سنه لتنيف على خسة أضعاف سنى ، ولكن ملامحه الجميلة الجليلة تبعث في النفوس جلال السن خاليا من شوائب الشيخوخة ، وإن وجهه ليلوح عليه جال النبوغ وجال الساحة ، وهما أثران من آثار الكبر يسترعيان الأعين ويستهويان القلوب، حتى عيون الأطفال والوب الصدة

..

فى اليوم الذى خرجت فيه من ملجأ اليتامى دخلت منزل الشيخ. ومضى الناس يدعونه زوجا ويأبى هو إلا أن أدعوه أبا. وبذل لى من ذات نفسه واحترامه واهتمامه كل مايستطيع بذله، وجملى شمسا وضاءة لهالة من الشيوخ الأجلاء المصطفين الذين ذهب سممهم فى الناس بالنبوغ فى الآداب والتممق فى الفلسفة والدهاء فى السياسة ، ونشروا على القرن الماضى سناء ومجدا، وملأوا مساممه ثناء وحمداً ، ونجوا من مقصلة الثورة ورق وملأوا مساممه ثناء وحمداً ، ونجوا من مقصلة الثورة ورق الامبراطورية ؛ وعقد أسباب المودة بينى وبين نخبة من كرائم

المقيلات اللاتى اشتهرن بين أهل العصر بذكاء الطبع وصفاء القريحة ، وكان يحرصني هو نفسه على تلك اليول القلبية والفكرة التي تسلى النفس وتُسَرّى الهم وتنوع حياتي الرتيبة^(١). وكان ينظر إلى علاثتي بالناس وهو أبمدما يكون عن سخافة الغيرة وجفاوة الطبع ، ولا يتحرج أن يُعَرِّفني إلى من تروقني صحبته ويمتعنى حديثه من ذوى الجاه والفضل . وكانت نفســـه تشر ق بالنبطة ، ووجهه يفتر بالبشر ، كما رآني أفضل أحداً من الجاعة وأختصه بالإقبال عليــه والتحدث إليه ، ولا يتردد هو أيضاً في إيثاره وإكباره . لقد كنت روح هذا البيت ومسبوده . وكان إجماع أهله على عبادتى ، وتنافسهم على راحتى وسعادتى ، من الأسباب التي أنامت في قلى عواطف الحب، ومكَّنت في نفسي عواصف الهوى ، لأن مشاعري وحواسي كانت معمورة بالسرور مغمورة بالملق فلم يبق فيهـا فضلة ولا بقية لأحد . ناهيك عاكان يبده إلىَّ زوجي من الأبوة الحنون والنفس المطوف، وإن كان حنانه لا يمدو في جميع أمره أن يضمني إلى صدره ، ويمس جبيني بثغره ، بعد أن يرفع عنه خصائل شعرى يده . لقد كنت ضنينة بسمادتي على الغيّر فما حاولت لها كمالاً

⁽١) الرتيبة : التي تجرى على وتيرة واحدة (monotone)

ولا زیادة ، واکتفیت أن أحسها دون أن أمسها مخافة أن تفزع فتطیر . علی أن زوجی طالما نسی علی وهو بمازحنی زهادتی وعزوفی . وأعلن غیر مرة أنه ینم بنسیمی ویهنأ لهناءتی

وحدث لي مرة أني ظننتني محبة محبوبة . وذلك أن رجلا نابه الصيت لنبوغه في الملم ، قوى النفوذ لصلته برئيس الحكومة ، خلابا بما أحرز من المجد والنصر ، جذابا عما يقى بعد شبابه من صباحة الوجه وجمال التسمات ، أظهر لي المطف والحبة. فهز من عِطني وحرك من هواي مجاملة وشكراً لا زهواً وكبراً، وأحببته حيناً من الدهم ، أو بالحرى أحببت الوم الذي خدعني فيه وغرني منه ؛ وكدت أسلم نفسي لماطفة ظننتها روحية فاصلة ، فإذا هي بهيمية سافلة . فانقلبت محبته بغضاً ، وعادت سماؤه أرضاً ، وجرى على وجهى عرق الخزى من هذا الخطأ الفاضح والضلال الميب . ثم استرجعت قلى واستنقذت حيى ، وضيقت على نفسي الخناق ، وشددت على عواطني الوثاق ، حتى لا تنصرف عن سمادتي المنشابهة الباردة . فني الصباح دروس عالية ومطالعات ممتعة في مكتبة زوجي ، وفي الضحي نزه خلوية معه في غابات سان كلو أو مودون ، وفي المساء سمر مع الأصدقاء ، وجلهم علاه الوقار وتوجــه المشيب ، يتناقشون في كل شيء بحرية

وصراحة وثقة ، وقلوبهم الباردة السمحة تتحدر إلى شبابى من علاها تحدر المـاء الخصِر من قم الجبال الثلجية

تلك هى حياتى : شباب مطمور فى ثلوج المشيب ، وجو فاتر بأ نفاس الشيوخ ، أنقذ روحى من يد الموت ولكنه أنحل جسمى بالسقم ، ومكّ فى طبعى بالسأم . آه ! لشد ما تفصل السنون الطويلة بين قلوبهم وقلى ! وماكان أطيب للنفس وأتلج للصدر لوكان لى بجانب هؤلاء صديقة أو صديق يدفئ خلاطه برودة خواطرى وهى تتجلد فى نفسى كما تتجلد أنداء الصباح على الزهور القريبة من ثلاجات هذه الجبال !

وكان زوجى ينظر إلى نظر الحزون، والأسى يكاديرهقه كلا رأى صوتى بناله الخفوت ووجهى يمسه الشحوب، ويتمنى ولو بجدً ع الأنف أن يمث فى نفسى روحا وقوة، وفى قلى حياة وحركة. وكان لا يفتر عن دعوتى إلى كل ما يزيح على ويذهب وحشى ويبسط انقباضى من مُتع الحياة وملاهى الديش، أو يمهد بى إلى من يعرف من صديقات وصواحب. ويضطرنى فى حنان ورأفة إلى الظهور فى الحفلات والمراقص والمسارح. وكانت نضارة شبابى ووضاءة وجهى تبعثان فى قلى المرور والزهو بما تفيضان على من حولى من النشوة والبهجة

وفي صباح كل ليلة من هذه الليالي الساهرة الزاهرة كان زوجى يدخــل علىّ الغرفة ويستنبئني عمــا أحدثتُ من آثار واسترعيت من أبصار وهززت من قلوب . ثم يقول لى بلسان رقيق عذب: أنتإذن لمتشعري بأثر جالك في الأعين، ولابسحر جلالك في القاوب! إن قلبك الشاب وهو في العشرين من سنه خلتي شيخًا فانيًا كقلي . أوه ! ما أسعدني أن أراك تصطفين من هؤلاء المفرمين بك ، الحافين من حولك ، شابا سرى الخلق نبيل النفس يتم يوما ما سمادتك بحبه ، ويجمل حياتك هنيئة بقربه ، ويفيض عليك بمدموتى الحنان مرن عينه وقلبه 1 فأجبته إن صداقتك حسبي . وإني لسميدة لا يكدر صفو حياتي ألم ، ولا يشغل بالى هم . فقال نم ، ولكنك تهرمين وأنت صبية ، وأنا أريد أن تعيشي لتغمضي عينيٌّ، وتذرفي دمعة فالية على . فجددي شبابك وأحبى قلبـك ودومي مهماكلفك الدوام حتى لاأكامد تُرَحاء فقدك ، ولا أتجرع غصص الحياة من بعدك . ثم دها الأطباء طبيباً بعد طبيب ، فأعنتوني بتكرار الفحص وكثرة الأسئلة ، ثم. اجتمعت كلتهم على أني معرضة لتشنج القلب ، وقد بدت أعراض الداء الأولى ، فلا بدلى من هزة عنيفة في حياتي الهامدة ، وغيبة-طويلة عن هذه المعيشة الراكدة ، وتغيير تام للمواء والسماء حتى.

يمود إلى طبيعتي الحارة ما فقدته من النشاط والقوة في ضباب باريس، فما تردد زوجي في إيثاره سلامتي وبقائي مع البعد عنه، على سروره برؤيتي كل يوم بالقرب منه . فاتفقنا على الرحلة ؛ وكان ود لو برافقني فيها ، ولكن حال بينه وبيمن ودادته عوائق السن وتكاليف الوظيفة . فعهد بي إلى أسرة أجنبية كانت راحلة بفتاتين من سنى إلى إيطاليا وسويسرا فسُحْت معها عامين ، ورأيت هذه الجبال وتلك البحار التي ذكرتني بمناظر بلادي وأيام صباي ، واستنشيت نسائم هذه الأمواج الفاترة ، وهوا، هذه الثلاجات المنمش ، فلم يستطع شيء من ذلك أن يرد على شبابي الذاهب ولاعمري المفقود . فأرسلني أطباء چنيف إلى هذا المكان ليجربوا آخر حيلهم، ويأتوا على كل ما بقي من أملهم. وأمروني أن أقيم به ما دام لشمس الخريف شماع . فإذا دنا الشتاء انصرفت عنه إلى زوجي . وقد كنت أرجو أن برى ابنته بمد عودتها صميحة الجسم رفافة الإِهاب ريانة الشباب قومة الأمل في المستقبل ، ولكني وا أسفاه لا أعود إلا لأسود يومه وأطير نومه وأسم بالحسرات ما بق من حياته . وربما حُمَّ القضاء فينطفئ سراجي أمام عينيه ، وألفظ نفسي بين ذراعيه . ثم قالت بلهجة الطمئن المحتسب: وسواء على بمدذلك الحياة والموت، فإني أرد حياض النية مني وردتها وعيني قريرة ونفسي راضية . ذلك لأبي حققت الأمل الذي طالما ارتقبته ، ووجدت الأخ الذي رجو مه وانتظرته ، ذلك الأخ الذي ملا أوهامي وأحلامي ، وشــفل بالبحث عنه لياليّ وأبامي ، وقبَّح مثاله في عيني وخياله في ذهني كُلُّ غلوق سواه . ثم حجبت عينها بكف سَبْطة البنان طَفْلَة الأنامل، فسالت من خلالها عبرة أو عبرتان على خدها الأسجيم الجيل ، وقالت : أجل ! إن أحلام لياليَّ الطويلة قد تمثلت في صورتك هذا الصباح لدى يقظني . أواه من فوات الوقت وسوء البخت ودنو الأجل! لقد أصبح متمناى الآن أن أعيش القرون لأطيل شموري بأثر تلك المحاجر التي جادت على بالبكاء، وتينك اليدين اللتن عطفتا على بالدعاء ، وتلك النفس التي غمر تني بالرحمة والرثاء . ثم رفعت طرفها الباكي إلى السهاء وقالت: وهذا الصوت الذي دماني أخته ! وما أحسبه يمود فيسلبي سمادة هذا اللقب الجميل لا أثناء حياتي ولا بعد بماتي

۲.

فهوى رأسي على قدميها من فرط السمادة ، والتصق بهما في لا يحير جوابًا ، ولايستطيع خطابًا . وأقبل الملاحون يعلمو ننا أن البحيرة قدهدأت ، وأن ما بقي من النهار لا يكاد يبلغ معنا شاطي * سڤوا. فلهضنا من مكاننا واتبعناه بخطى متثاقلة مختلجة كما يترمح النشوان مادت بعطفه الخر . وأى قلم يستطيع أن يصف الشعور الذي ملكني حين أحسست جسمها الرخص على ما به من شفوف الألم يثقل على في لطف ورقة ، كانُّها يلذ لها أن تشعر و تشعر ني بأني أصبحت منذ اليوم قوة ضعفها وثقة نفسها وسندحياتهما . ولا أزال أسمع وقدم على هذه الساعة عشرون حولاصراخ الأوراق الجافة تتكسر تحت أقدامنا ، وأرى ظلينا وقد بلغا مثلينا يصيران ظلاً واحداً رمت م الشمس الغارة على خضرة البستان ، فكان كالكفن المتنقل مع الشباب والحب ليدرجهما في ثنايا المدم قبل حاول الأجل. ولا أزال أشعر أيضاً مدف،منكما على صدرى، ونوَسان جديلة من جدائل شعرها على وجهي . وما أنس لا أنس محاولتي إمساكها بشفتي لينسني لي تقبيلها! أبها الزمن ا ما أقدرك على أن تدفن في مثل هــذه اللحظة مسرات لها دوام الخلود ، وملذات لها سعة اللانهاية! ولكن ما أعجزك عن أن تمحو من القلوب آثارها ، وتنسى النفوس تذكارها! .

كان وجه البحيرة الليلةَ في هدوئه ودفئه ، على قدر ما كان البارحة في اضطرابه وبرده ؛ وكانت الجبال غرق في صبغ خفيف من البنفسج تعظم فيه وتبمد كلا طغي عليها فمحاها . فما كنت تدرى أهي جبال أم ظلال ضخمة متنقلة لطيفة تتراءي من خلالها سماء إيطاليا الحارة! وكان رقيع السماء اللازوردية مزدانا بقزعات أرجوانية من الغيم كأنها الربش الدامي نسل من جناح كر كيّ مزقته النسور . ولم تمد الأمواج الصدفية المتطاولة تقذف على الصخور غير قطع صغيرة من الزبد ؛ وكان الدخان الساطع من الجواسق العالية يتمزق على جوانب جبل القط ثم يصمد إلى السماء ساحباً ذلاذله هنا وهناك على رَيِّده وشعافه ، بينها تجدالشلالات تتحدر في مدارج السيول كائم بخار الماء. وكانت صفحة البحيرة شفافة كالزجاجة تتراءى فها -إذا نظرت -الوجوه والمجاديف، دافئة لا تشعر إذا أمررت أناملك على وتر الماء إلا بهزة خفيفة لطيفة . وكان يحجبنا عرب عيون الملاحين ستار قصير على نحو ما ترى في قوارب البندقية . وكانت جوليا مضطجمة على مقعد من مقاعد الزورق مرفقها على الوسادة ، وجسمها مدثر بالشيلان اتقاء البرد ، وقدماها في معطني بعد أن طويته مراراً على نفسه ، ووجهها تارة في ألظل وتارة تنعكس عليه أشعة الشمس الغارية فيتملل ويشرق. وكنت أنا مضطحعاً على كومة من الشَّبَاك في أقصى الزورق مفم القلب أخرس اللسان ، عيناي شاخصتان إلى عينيها لا تكادان تطرفان. وما حاجتنا إلى الكلام ما دامت الشمس والجيال والمساء والسماء والهواء والماء والمجاديف وهزات الزورق اللذيذة وأنظارنا وأنفاسـنا وأرواحنا تترجم عنا بأصدق لهجة ، وتشرح عواطفنا بأجلي بيان؟ لقد كنا نخشي أن تكدر الأصوات صفاء هذا السكون، وتشوه الكلمات جال هذا الصمت. وكان نخيل إلينا أننا ننتقل من زرقة الماء إلى زرقة السماء دون أن نرى الساحل الذي تركناه ، ولا الساحل الذي قصدناه . ثم تنفست الصمداء كمن ناء مه حمل فادح فرفّه عن نفسه بإلقائه ، فأدركني شي من القلق علما وسألتما: أتتألمين ؟ فقالت: كلا ليس ما بي من ألم. وإنما كنت أفكر . فقلت لها : وفيم تفكرين ؟ قالت كنت أرجو أن الله يصيب الطبيعة كلها بالوقوف فلا تسير ، وبالجمود فلا تتحرك ؛ ويظل قرص الشمس غريقاً إلى نصفه وراء الصنوبر الذاهب في الفضاء، وكانه الأهداب لأجفان السهاء؛ ويستمر هذا المزيج من النور والظلام ضارباً في عرض الأفق،

ويدوم ماء البحيرة على صفائه وزرقته ، وهذا الهواء على دفئه ورقته ، ويقف هذا الزورق بين الشاطئين ، وقوف إنسان الدين بين الجفنين ، ويبق هذا الشماع الأثيري مشرقاً فوق جمهتك ، وذلك النظر الحنون المشفق منبعثاً من مقلتك ، وهذا السرور الذي يسمر قلى بعطفك ورحمتك ، إذن لكنت أفهم أكثر مما فهمت منذ سواني الله إنسانًا ، ورزقني فكراً ووجدانًا . فقلت لهما بلهجة الخائف القلق: إذن ماذا كنت تفهمين ؟ فصاحت قائلة : كنت أفهم الخلود تستوعبه دقيقة ، واللانهامة تستقصما إحساسة رقيقة . ثم استلقت على حافة الزورق وتشاغلت بالنظر إلى الماء تربد أن تكفيني ربكة الجواب. ولكني أجبت عما جرى على شفتي من المجاملة الفارغة والتظرف المبتذل ، لا عـا غر قلى من المفاف الحض والحب الخالص . وكان حسى الحيواني لا برى مثل هذه السعادة كافية ولا وافية ، إلا إذا كانت عِدَة لإنجاز ، أو مقدمة للذة . فلم تَخْفَ عليها دخيلة نفسي ؛ وشَرق وجهها من الخجل لى أكثر مما شرق من الخجل لنفسها . ثم ارتدت إلىَّ وعلى وجهها طابع الطهارة المهانة ، وقالت بلهجة ملوَّها الحنان والتأثر والجلالة لم أعهدها فيما سمنت منها من قبل : لقد أسأت إلى وبالنت ! فادن مني واصغ إلى . أنا لا أدرى إن كان.

ما أحسه لك في قلبي وما تحسه لي في قلبك هو ما يطلق عليه الناس اسم الحب في لنتهم الفقيرة الشوشة ، أم م يطلقون اللفظ الواحد على الأشياء التي لا تتشاه إلا في جَرْسها على شفة الإنسان ؟ لا أريد أن أعرف هذا ولا أحب أن تعرفه أنت أيضاً . ولكن الشيء الذي بجب أن تعرفه هو أن ما نشعر به من السعادة أسمى وأجل ما يستطيع إنسان أن يتذوقه من نفس إنسان آخر يشمهه وينقصه ويكمله . فهل توجد إلى جانب هذه السمادة التي لا تقدر ولا تعبر ، وذلك الطموح المشترك والهوى المتبادل الذي جعل من أَفَكَارُنَا وَعُواطَفُنَا وَنَهُوسِنَا وَحَدَةً لَا تَتَّعَدُدُ ، وَكُلَّا لَا شَجِزًا ، وجماً لا يتفرق ، كأشمة هذه الشمس التي تغرب وذلك القمر الذي يلوح حينا يتقابلان في السماء ، أقول هل توجد إلى جانب هذه السعادة سعادة أخرى هي فجة شوهاء تبعد عن روحيتها وخاودها بعد الذرة من الفلك والدقيقة من الأبد ؟؟ أنا لا أعرف هذا ولا أود أن أعرفه ولا أستطيع وا أسفاه أن أعرفه . قالت ذلك بلهجة الحزن المسمئز ، ثم أرسلت نفسها على سجيتها واطها أت إلى وأقبلت بأسرها على وقالت : ومالى وللألفاظ ودلالتها ؟ إني أحبك . وإذا كتمت ذلك نم عليه الوجود وفضحته الطبيعة . وإذا شئت فدعني أجهر بالقول وأُبُح ْ بالسر عن لساني ولسانك

إن كلينا يحب الآخر . فقمت مستطار اللب كمن مسه طائف من الجنون ، وأخذت أذهب وأجيء على الزورق الهادئ المرجَحِن ، ثم صحت قائلا: قولى ذلك وأعيديه ثم قوليه وأعيديه ألف مرة ، ولنقل ذلك مماً ، لنقله لله وللناس ، لنقله للسهاء والأرض ، النقله الصامت والناطق ، لنقله على طول الأبد ، ولتردده الطبيعة كلهامعنا اثم جثوت أمامها مشبوك اليدين متهدل الشمر مضطرب الحواس شديد التأثر . فوضعت إصبعها على في وقالت : خفض عليك جأشك ودعني أتم كلامي دون مقاطعة . فمدت إلى مكاني ولزمت الصمت وعادت هي تقول: نم لقد قلت لك ، وما قلت وإنما صرحت من أعماق نفسي حين عرَّ فتك أني أحبك . وأحبك عقدار ما عانيت من انتظار واصطبار ورجاء مدة ثمان وعشرين سنة من السنين المقم قضيتها في الفراغ أنظر ولا أرى ، وأبحث والأجد، وأجرى والأأصل، إلى من أدركه الوجدان وتم عليه الحلم. ولكن والهف نفسي على"! لقد عرفتك وأحببتك بعد فوات الوقت وذهاب الفرصة إذا كان مذهبك في الحب كذهب ساثر الناس، وفهمك للعشق كفهمهم إياد، وأظنه كذلك، فإن جلتك الدنسة الرعناء التي ألقيتها على منذ قليل دلت على دخيلة نفسك. فألق بالك إلى وتفهم ما أقول لك : إنى لك بجسمى وحسى ، وقلبي ونفسي ، لا أذودك عوف أمر ولا أدافعك عن سر ولا أقصيك عن منال . أقول ذلك دون أن أسى، إلى ذلك الشيخ الكريم الذي تبناني وأغناني، فإنه لم يرد قط إلا أن يكون لي أبًا ، وأن أكون له ابنة . فليس إذن ما يمنعني أن أعطيك من نفسي ما تحب ، وأمنحك من صلتي ما ترغب ، وألا أمنع منك إلا ما تأمرني عنمه . ولا يدهشنك أن تسمع مني ما لم تتعود سماعه من نساء أوروبا ، فإن شمورهن بالحب سواء أكان منهن أم لهن قليل . فهن تخشين إذا أعلنَّ عن حقيقته ، وكشفن عن دخيلته ، أن يفقد أثره في النفوس ، و مخمد شرره في القلوب . لست من هؤلاء ولا هؤلاء مني ، فلا تصلني بهن رابطة من وطن، ولا عاطفة من قلب، ولا قاعدة من تربية. لقد ربيت في أحضان زوج فيلسوف ، ونشأت بين جماعة من رجالات الفكر والمقل والعلم والحرية ، لا يموقهم عن النظر الصحيح والفكر الطليق قيود الدين ولاحدود المجتمع ولاسدود التقليد. فليس عندى ما عندهن من ضلال المقيدة وأفَّن الرأى وزيغ القلب الذي يطأطئ هامة المرأة العادية أمام محكمة غير محكمة الضمير . إن إلمي وإله طفو لنهن غير واحد . فأنا أعتقد بإله لاتبصره الميون، ولا تدركه الظنون؛ قد نقش على الطبيعة شارته

ووسمه ، وأجرى في الغرائز شرعه وحُكمه ، ويث في المقول أده وعلمه ؟ فالمقل والعاطفة والضمير هي وحدها فيض إلمامي ، ومصدر شرائمي وأحكامي . وليس في هذه الثلاثة واحدة عنمني من أن أكون لك . ولا أستطيع أن أصد نفسي عن تهاقها عليك، وتراميها بين يديك، إذا كنت لا تسمد إلا مهذا الثمن، ولا تنع إلا بهذه اللذة . ولكن هل تريد أن تكون الصلة بين سمادتي وسمادتك هي هـ نده الشهوة الماجلة والنشوة الزائلة ، وهى تُمْتِيع الوجدان وتسر النفس لو تركناها ، أكثر مما تلذ الجثمان وترضى الحسَّ لو قضيناها؟ ألا تمتقد أن حبنا يكون أمتع وأرفع وأبقي وأنتي ما دام مصونًا في خدر المفاف نازلاً في مناحي الخلود حيث لا يتقلب الحدثان ولا يمدو الموت أ فإذا تدلى إلى اللذة الحسية الوضيعة ، وتدنى إلى الشهوة الدنسة الحقيرة ، فقد كبرياءه ونماءه و بقاءه ؟ ثم سكتت قليلاً وعادت إلى كلامها تقول وقد شرق وجهها كأنما دنا من النار فتورد : ومع ذلك إذا بدا لك أن تطلب مني في ساعة من ساعات الشك ، أو في سكرة من سكرات الحب ، هـ ذا الدليل على إنكارى لنفسي وإيثاري لك وفنائى فيك فسأبذل لك من نفسى هذا الدليل. ولكن ثق بأبي لا أضمى بكرامتي وحدها ، وإنما أضمى بكرامتي ووجودي ،

وأنك حين تخطف طهارة قلبي ونزاهة حبي تخطف ممهما نفسي وحياتي وروحى ، وأنك حين تظن أن سمادتك أصبحت في يديك ، وأن حبيبتك صارت بين ذراعيك ، لا تجد في يديك إلا خيالاً ، ولا تضم بين ذراعيك إلا تمثالاً . ثم سكتت هي وانمقد لساني طويلاً . ثم زفرت زفرة كاد صدرى ينشق لها وقلت: لقد فهمتك . وإن يمين التقديس لك والتنزيه لحبك والإخلاص والوفاء لشرفك قد أقسمه قلبي قبل أن تتمي حديثك وتكشفي عن غرضك .

27

كان من أثر إذهاني لإشارتها واستسلامي لإرادتها أن فاض في قلبها السرور وازداد في نفسها جمال الحنان . وكان الليل قد نشر ذوائبه على البحيرة ، ونجوم السهاء قد تراءت في صفحة الماء، وسكون الطبيعة الخاشع قد ألق على الأرض فتور الكرى، وخشع صوت الهواء والشجر والموج فاستطمنا أن نسم المواطف في قلبينا تناجي المواطف، والأفكار تخاطب الأفكار ، بصوت رخيم خافت . وكان الملاحون ينشدون تلك الأفاتي المرجَّمة على رمال الساحل ، فذكر في ذلك

بسوتها، وكان صداه لا يزال يرن في أذنى، فقلت لها: آه! ليتك تسمِين هذه الليلة الجميلة بنفمة من أنفامك الحلوة تلقينها في هذا اللوج، وفي هذا الظلام، فيبقيان على الأبد مشتملين عليك مملوء من منك! وأشرت إلى الملاحين أن يسكتوا وأن مخففوا صوت المجاديف، فسكتوا ورفعوا المجاديف وتركوها تُساقط الماء على ننم الفناء كأنها موافقة موسيقية ذات ألحان فضية. غنت تلك القصيدة الإيقوسية التي تصف عواطف البحارة والرَّعاء مما . وهي عن لسأن فتاة أحبها شاب فقير من البحارة، ثم عزم الرحلة إلى الهند انتجاعا للرزق وطلباً للثروة . فلما شط مزاره ، وطال انتظاره ، زوجها أهلهامن شيخ كبير . وكادت تعيش بجانبه رافهة اسيدة لولا أن ذكرى حبيبها الأول كانت تنتابها الحين بعد الحين . وهاك مطلم هذه القصيدة :

 مآقى الميون مدامع الصوت . ثم ترجع إلى سياق الحكاية فى المقطوعة الثانية بنعمة مبهمة صاء نائية ، تعبر عن الذكرى الأسيفة الألمية المستسلمة . فإذا كان فى أيات سافو اليونانية نار الحب ، فإن فى هذه الأيات الإيقوسية دموع الحياة ودم القلب الجريح أصاه سهم القدر . أنا لا أعرف مؤلف هذه القطمة الموسيقية ، ولسكنى أدعو الله أن بجو دبالرحمة ثراه ، وأن يغمر بالبركة روحه ، لأنه وُفق إلى أن يضمن هذه الأبيات القصيرة ما شاء له الفن من الحزن الإنسانى المعيق ، فى أنّات هذا الصوت الرخيم الرقيق . وترانى منذ هذا اليوم لا أكاد أسمع مطلع هذا اللحن حتى أفر فرار الرجل يطارده شبح . وإذا دعتنى الحاجة إلى عبرة من عينى فرار الرجل يطارده شبح . وإذا دعتنى الحاجة إلى عبرة من عينى فرقرق فى ماقى الدموع وأنا امرؤ جامد الدين لا أعرف البكاء !

24

بلغنا ميناء بر شُويس وهو مرفأ صفير داخل البحيرة ترسى به السفن القادمة إلى مدينة إكس على مسيرة ميلين منها . وكنا في موهن من الليل ، فلم نجد هناك مركبة ولا مطية تبلغ الفتاة علىها المدينة ، والشُقة بعيدة لا تقوى الريضة على قطعها راجلة .

فطرقنا كوخين أو ثلاثة من أكواخ الساحل ننشدفيها مانريد فلم نجد. فلما استيأسنا من وجود ما نركب اقترح الملاحون أن يحملوا السيدة إلى إكس، وعمدوا إلى عجاديفهم فسلُّوها من حلقاتها وشدوا بعضها إلى بعض بالحبال. ثم وضعوا علما وسادة من وسائد الزورق قتم لهم بذلك عَفَّة وثيرة لينة ضجموا فيها الفتاة. وتقدم منهم أربعة فحماوا المجاديف كل واحد من طرف، وساروا لها في وناء ورفق لايملونها ولا يهزونها إلا ما اقتضته طبيعة المشي من اختلاج وحركة . وكنت أريد أن أقاسمهم مسرة حملها فآخذ بنصيب من هذا الحل الخفيف على الجسم والروح ، ولكنهم صنوا به على وأبوَّه في شيء من الغيرة والأثرة . فشيت بجانب الحفة وجملت بمناى في يديها لتعتمد عليها حين بميل بها الهودج، ولتتق ما الانزلاق من فوق الوسادة الصغيرة التي استلقت عليها. وسرنا على هذه الحال في طريق لاحب تكتنفه أدواح الحور ويضيئه لألاء البــدر لا تكلمني ولا أكلمها ، ولكنني كنت أشمر بثقل جسمها على ذراعي ، وبيدهـا الباردتين تقبضان على بدى ، وبشفتها الحارة تمر حينًا فحينا على أصابعي ، وبتيار من المطف والحنان يتدفق بين أضالمي ، فكان الصمت في هذا المقام أبلغ من فصيح الكلام ، وأدل على ما خاص قلبينا من اطمئنان وثقة. ولما بلغنامنزل الطبيب الشيخ وأنزلنا المريضة أمام غرفتها أحسست كأن عالما بأسره انقض بيننا، وشعرت أن يدى قدا بتلت من دموعها، فسحتها بثغرى، وجففتها في شعرى، وذهبت فارتيت على سريرى دون أن أخلع ثيابى، أو أغلق على بابى

78

بت أتقلب على الوساد وأتملل على الفراش ، أخادع الكرى وأجاهد الأرق ، فا حَدَعَتْ في عيني سنة ، ولا نمست مقلى بغمض . ذلك لأن المشاهد والحوادث التي مرت على عيني هـ ذين اليومين تمثلت في خاطرى وترددت في فكرى واضحة الصور قوية الأثر ، حتى شق على الاعتقاد بأنها مضت وانقضت . فسرت عَدُوى الحَي التي تلهب نفسى ، إلى أعصابي ووحسى ، فقمت ونمت عشرين مرة لعلى أجد هدوءاً من القلق ودواء من الأرق فا رجمت بطائل . فتركت السرير وحاولت أن أذهب اضطراب خطراتي باضطراب خطواتي ، ثم فتحت الشباك وأخذت أتصفح بعض الكتب فا فهمت شيئاً . فقمت أنقل المنضدة والكرسي من مكان إلى مكان عسى أن أجد محلا أقلى أقضى فيه بقية الليل قائما أو قاعداً . وكانت كل هذه

الحركات مسموعة في الغرفة المجاورة فأزعت المريضة المسكمنة، وما أشك في أنها مثلي لم تذق النوم طعماً . ولم تمض ثوان ممدودة حتى سمست وقع أقدامها على أرض الردهة ، وشمرت أنها تقترب من الباب المغلق الذي يفصل بين ردهتها وغرفتي . فألصقت أذنى بألواح الباب وأنصت فإذا فيأسمرأ نفامها المحتبسة وخشخشة ثوبها الحريري على الحائط، وأرى ضوء مصباحها يتحلب من خصاص الباب ومن تحته إلى أرض غرفتي . وقد كانت هي أيضاً تتسمع إلى ، وتربد أن تخفف من قلقها على ، فسمت مني ما سمت منها . فسألتني بصوت خافت : « هل أنت مريض ؟ » فأجبتها ليس مابي من مرض ولا ألم ، وإنما هو السرور زاد عليَّ وفاض مني . وشدة الفرح كشدة الترح تحم الجسم وتهز العصب. على أنها حمى الحياة فلا أخشاها ، وما جفوت الرقاد إلا لأعتم بها وأنم . فقالت لى : اذهب أيها الطفل فنم . وعلىَّ الآن أن أسهر عليك وأكلاك. نوبة بنوبة. فقلت لها: وأنت لماذا لا تنامين؟ فقالت : لا أريد أن أنام حتى لا أفقد لحظة من الشعور بهذه السمادة التي تغمر مشاعري وتعمر قلى . إن سمادتي بك أوسع من أجَلى ، وإن القليل الباق منه لا يكفي للتمتع بنعيمها كما أشتهى . فهل تمجب إذا بخلت بهذا القليل على النسيان والنوم ؟ لقد جلست

في هذا المكان رجاة أن أسمك ، أو أشمر على الأقل أني ممك . فقلت لها منمنماً : إذن فلم يكون ذلك من بُعد ؟ ولم يفصلُ بيننا هذا الحائط الغليظ؟ فقالت : أنظن أن لا فاصل بيننا غير هذا الباب فلا إرادة ولا عهد ؟ إذا كنت تعتقد ألا يحجزك عني إلا هذا الحاجز المادي فإن من السهل عليك أن تجوزه . ثم سمعتما تنزع رئاج الباب وهي تقول: أجل، تستطيع الآن اجتيازه إذا لم يكن في نفسك ما هو أنوى من الحب فيكسر من حدثه ، ويكفكف من شرّته . لا أريد أن أكون مدينة إلا لك ، ولا عمية منك إلا بك، وستحد حباً بعدل حبك، وقلباً يجاوب قلبك، ولكني قلت لك من قبل إنك ستجد أيضاً في هذا الحب موتى. فلم أحتمل شدة انفعالي من هذا القول ، ولا قوة اندفاعي إلى هذا الصوت ، ولا مقاومة هذا الاندفاع بالوازع الخلق العنيف ، فسقطت أمام الباب المغلق منسرق القوى سقوط الريمي أقصد قلبَه مهم مُرَاش. ثم سممتها هي أيضاً في الجهة الأخرى قد طرحت وسادة على الأرض ثم جلست عليها . وقضينا على تلك الحال هريماً من الليل نتساقط الحديث بصوت خادت من خلال الفُرجة المتروكة بين أرض الغرفة وأسفل الباب . حديث من أحاديث القاوب ونجوى الأنفس ، لا تعرفه الألسن ولا تترجمه

اللمات ، طائف طواف الأحلام بين السهاء والأرض ، يتخلله كثير من السكتات الطويلة تتبادل فيها القلوب معانى لا تعبر عنها الألفاظ ولا الألحاظ ولا بجرى منالها على الشفاه . ثم صارت السكتات أطول ، والأصوات أخفت ، وتحلل بى التعب فغلبنى النعاس وخدًى إلى الحائط ، و داى مشبوكتان على ركبتى .

20

صوت من نوم وقد ارتفع الضعى وتلألأت الغزالة في صدر الأفق ، وانتشر ضوؤها الوهاج في أرض الغرفة . وأخذت عصافير الخريف الدُّورية تبحث في عساليج الكرم وفروع الكشمش بأرجلها ومناقيرها وهي تزقزق تحت نافذتي . وكأن الطبيعة سبقتني إلى التنبه والانتماش فأخذت زخرفها وازَّينت احتفالاً بيوم مولدنا في هذه الحياة الجديدة . وكأن ما في البيت من ناطق وصامت كان مثلي تلوح عليه البهجة وتحركه نشوة الطرب . وما كنت أسمع إلا خطى القهرمانة في الدهليز ذاهبة آيبة تحمل الفطور إلى سيدتها ، وإلا أصوات البنات فالمدات بالزهور من رُبي الوادى وخمائل الجبل ، وديدة البنات ورنين أجراسها في الفناء تنتظر الفتاة لتصلها إلى البحيرة أو إلى

أَيْكُمْ الحُورِ . فبدلت ثياني وقد اتسخت من النبار والزند ، وغسلت عينيٌّ وقد مَر هتا من السهاد والأرق، وسرحت شعرى الأسود ، ولبست دُزْلكا من الجلد يلبسه صيادو الوعول في الألُّب. ثم تقلدت بندقيتي ونزلت إلى المــائدة المامة أفطر مع أسرة الطبيب وضيوفه . وكان حديث المائدة يجرى عن العاصفة التي هبت بالأمس على البحيرة ، وعن الخطر الذي حاق بالفتاة المريضة ، وعن غشيتها في الدبر وغيبتها مدة يومين ، وعن السمادة التي كتما الله لي في إسعافها والمودة بها . فرجوت من الطبيب أن يذهب إليها يستفهمها عن صمها، ويسألها لي الإذن في صبها. فصعد إليها ثم نزل بها وهي من غبطتها وجذَلها أبعي جمالاً وأقوى حياة وأشد روعة . فرنت إلىها العيون وصنت إلىها القاوب ولكن نظراتها لم تتجه إلا إلىَّ . وما كان في القوم أحد غيرى يستطيع أن يفهم مرى هذه النظرات ، ولا أن يدرك مغزى هذه الكلمات. وتقدم أدلّاؤها وهم يطفر ون من الفرح فأركبوها بغلا على سرج وثير موطأ ، وصعدوا بها وأنا أسايرها ماشياً على قدى إلى الجواسق القائمة على سنَد الجبل ؛ فقضينا النهماركله وماكدنا نتكلم ، لأنكلاً مناكان يفهم الآخر دون إشارة ولا عبارة . كنا تارة نرسل الطرف والفكر في مشاهد هذا الوادي

الزاهى الجميل فنراه يغور ويتسع كلبا صقدنا فييه وترددنا فى نواحيه ، و تارة نقف على شُطئان الشلالات فيكتنفنا من دخاسا الملون بضوء الشمس قوس سحاب متموج يكون لحبنا إطاراً وهالة، وطوراً تقطف أواخر ما يق من الورود في المروج الزاهرة على الآكام الحادرة ، ثم نتبادلها رسائل مؤلفة من حروف عطرتها الطبيمة وصاغتها يدالله ، وطوراً نلتقط الكستناء المتروك تحت أشجاره لنشويه على نار مدفأتها في الليل ، وطوراً نجاس مما تحت الجواسق التي ترحّل عنها سأكنوها ثم نقول في أنفسنا: ما أسعد عاشقين تنفيهما صروف القدر إلى هذه المساكن القفرة المتخذة من جذوع الشجر وألواح الخشب في مواقع النيوم ومطالع النجوم على مسمع من رفيف الرباح في التَّنُوب، وصرير البرد في الثلاجات! ولكنهما يعيشان في عزاة عن الناس لا تمتل حياتهما إلا سما، ولا يشعران إلا بنفسهما وحمما.

27

أمسى المساء فهبطنا الوادى بخطى متناقلة ، وأعضاء منزايلة ، نتبادل النظر الحزين الآسف كا ننا خلفنا وراءنا ضحكات قلو بنا ومُتَع حياتنا لغير رجمة . فصمدت هى إلى مسكنها وبقيت أنا للعشاء مع الأضياف والأسرة . فلما فرغنا من الطمام صمدت إليها واستأذنت علمها كما اتفقنا من قبل . فاستقبلتني استقبال الرجل لصديق طفولته لقيه بعد طول النوى وبُعد المزار. ثم جعلنا ذلك برنامجًا لحياتنا في كل نهار وفي كل ليلة : نقطع اليوم في الأدغال والجبال، أوتحت الشجر أو فوق الماء، ثم نقضي الليل في غرفتها بالحديث والسمر . وكنت أكثر ما أراها حين أدخل علما مضطحمة فوق كنبة منطاة بظهارة بيضاء من التُّل موضوعة في ركن بين الشباك والمدفأة . وعلى متناول مدها منضدة من الخشب الأسمر فوقها مصباح من النحاس الأصفر ، وطائفة من الكتب وبعض من الرسائل تلقتها أو كتيتها أثناء النهار، وعلية شاي صفعرة من شحر الأكاغو أهدتها إلى وهي مسافرة فظلت على مدفأتي لاتفارقها منذ ذلك اليوم، وقَدَحان صينيان أحدهما أزرق والآخر وردى كنا نشرب فهما الشاي منتصف الليل. وكان الطبيب الكريم قد تمود أن يصمد إلى غرفتها فيسمر معها . ولكن مجلسه ماكان يطول أكثر من نصفساعة ثم يتركنا إلى مطالمتنا ومحادثتنا ، لأنه أدرك أن لوجو دي معها من الأثر الحسن في صحتها المزيزة على كل نفس ما ليس لحاماته وطبه . فإذا انتصف الليل ناولتني يدها من فوق المنضدة فأتبلها ثم آوى إلى غدعي وأيبت ساهراً لا ينمض لى جفن ولا ترقد فى عاطفة ، حتى ينقطم من غرفتها الصوت وتخمد الحركة .

27

نممنا بهذه الحياة الخالصة المتمة خمسة أسابيع كانت طويلة وقصيرة ؛ فهي طويلة إذا تذكرت ماعدً قلبانا من خفقات السمادة ونبضات النعيم ، وقصيرة إذا فكرت في رقة أوقاتها وسرعة ساعاتها التي مرت مرور الحلم. وكأن عناية الله شاءت أن تبارك هذا الزمن وأن تطيل فيه فجملت من صفاء الفصل واعتدال الجو مدراً لصفائنا وزيادة في غبطتنا ، وذلك مالا يقع إلا مرة في كل عشر سنين . فشهر أكتوبركله ونصف نوفمبركانا أشبه بالربيع ا نبعث في الشتاء فقام من القبر ناسياً حاله من ورق وزهر . فالنسائم عليلة دافئة ، والأمواه زرقاء صافية ، والأشجار خضراء مورقة ، والنيوم رقيقة وردية ، والسهاء وهاجة ساطمة . اللهم إلا الأنهار فقد كانت قصيرة . ولكن الأمساء الطويلة التي قضيناها بجانب مدفأتها كانت أعودَ علينا في توثيق الصلة وتمكين المحبة . وقد جملت ليالى نوفبر الطويلة المظلمة وجودكل منا بارزاً في نفس أخيه ، ومنمت عيو ننا وقلو بنا من أن تَشِيع في الطبيعة وتتبدد في سناها ، فحصر تنا فى أنفسنا ، وقوت ما فى أبصارنا وبصائرنا من ضياء وبهجة ، وألقت فى روعنا أن طلائم الزوابع التى بدأت تسفع زجاج النوافذ ، ورياح الحريف التى تأن وتبكى على خدود الروض ، تدفع فى صدورنا وتهيب بنا قائلة : «قو لا لنفسيكا على عجل ما لم تقولاه ، وما يحب أن تقولاه ، قبل أن يموت الرجل والمرأة ، فإنى نذير الأيام السود التى تدنو منكا ، ولابد أن تفرق بينكا! »

24

زرت أنا وهي على التماقب جميع الخلجان والوديان والكروم وأسياف البحيرة و أُنَنَ الجبال وكثبان الرمال والمخارم الضيقة والفيران الموحشة والشلالات الهادرة في صدوع الصخور من سقوا، فوجدنا أكثر ما يبتني الماشقون من أمكنة أنيقة، وتفار رهيبة ، ومنازل عجيبة ، تراها معلقة على ريد الجبل بين المهاوى وبين السحاب، وبساتين فيحاء ناضرة ، وجداول من غير الماء على المروج الحادرة ، وأيانك من شجر التنوب والقسطل تمتد على المروج الحادرة ، وأيانك من شجر التنوب والقسطل تمتد في خطين متوازيين ينعقد منهما رواق ظليل يضل فيه البصر وتتجاوب تجت قبابه الأصداء .

تركنا في كل بقمة من هذه البقاع نفَساً من أنفاسنا ، وزفرة

من حماستنا ، وصلاة من صلواتنا ، ورجونا منها في السر والملن أن تحتفظ بذكرى هذه الساعة التي قضيناها مما ، و تلك الأفكار التي ألهمتنا إياها ، والنسمات التي أنشقتنا أرجها ورياها ، والنعاف التي أنشقتنا أرجها ورياها ، والنعاف الميذاب التي رشفناها من راحنا ، والأوراق والأزهار التي قطفناها بأناملنا ، والآثار التي طبعناها على العشب الندى بأقدامنا . نم رجونا من هذه البقاع أن تحتفظ بكل ذلك لترده إلينا في يوم من الأيام كاملاً غير منقوص ولا متاوم حتى لا نفقد شيئا من الهناه الذي فاض من قلوبنا وطفح من عيوننا ، وحتى نجد ما أو دعناه من المحظات والسكرات والانفعالات في حرز الخلود المكين ومستودعه الأمين حيث يبقى كل شيء ويسلم كل أثر ، حتى النسمة التي لفظتها ، والدقيقة التي تظن أنك أضمتها .

أبداً لم ترتفع من هذه البحيرة وهذه السيول و تلك الصخور منذ خلقها الله ما ارتفع منها الآن إلى الخالق المبدع من صلاة وتحميد و تحميد و تحميد و تحميد على أنفسنا فضل من الحياة والحب أفضناه على ما حولنا من ماه وسماه وأرض وصخر وشجر فانتمس بعد خوده ، وتحرك بعد جوده ، فترددت الأنفاس ، وتجاوبت الأصداء ، وسطمت الأصواء ، وانتشرت العطور . وكان الله قد خلق من أجلناهذا الكون ، ودحا لناهذه الأرض ،

فنحن نستطيع أن نمهرها ونمنحها الصوت والكلام والحب والسلام على مدى الآباد. والمحب أن الناس يزعمون بعد ذلك أن النفس البشرية محدودة متناهية! فن من الناس شهر بحدود حياته ونهاية وجوده وانحصار حبه أمام المرأة المشوقة والطبيعة الموموقة والإله الحق؟أيها الحب! لشدما يرهبك الجبناء ويجحدك الأشرار! إنك لكاهن هذا الوجود، ومذيع سر الخلود!

29

كانت هذه الأسابيع الستة طَهوراً لنفسي بما نالها من وضر الحياة ورجس الشبيبة . وكان الحب في قلي شعلة من نار ألهبت حسى ولذعت حشاى ، ولكنها أصاءت نفسى وأنارت في الطبيعة والعالم والسهاء ، ففهمت صؤولة هذا الكون حين رأيته يصفرو يحقر ويغني أمام شرارة واحدة من الحياة الحقيقية . وخجلت من نفسى حينها وازنت بين ماكنت عليه من دعارة وخفة ، وبين ماكنت عليه حبيبي من طهارة وعفة . وسبحت في عالم الأرواح حين عليه حبيبي من طهارة وعفة . وسبحت في عالم الأرواح حين غصت بعيني وقلي في هذا البحر المسجور من الجال والحساسة والنقاء والحب ، تكشف عنه الحجب أمام بصرى ساعة فساعة فاراه في عيني هذه المخاوة وصوتها وحديثها . . كم مرة جثوت

أمامها وسجدت سجود العابد الخاشع البتهل! وكم مرة رجوت منها أن تفسلني بعبرة من عبراتها، وتحرقني بزفرة من زفراتها، وتنعشني بنفحة من نفحاتها، حتى لا يبقى من نفسي في نفسي غير الماء الطاهر الذي غسلني، واللهب المقدس الذي صهرني، والنفس الجديد الذي أنعشني، فأتحول إليها وتحول إلى، حتى لا يستطيع الله نفسه إذا ما وقفنا بين يديه أن يفصل ما مزج الجب وأحالته معجزة الهوي.

آه! لبت من كان له ابن أو أخ أو صديق لم يعرف الحير ولم يفهم الفضيلة ، يدعو له الله أن يلق عليه مثل هذا الحب ، فإه إذا شمر به أصبح خليقاً بكل إخلاص ، حقيقاً بكل بطولة ، جديراً بأن ير تفع إلى مستوى هذا المثل الأعلى لحبه . وإذا ما انطفأت جذوة هذا الحب في قلبه بتى في نفسه ، ما بقيت حياته ، أثارة من لذة هذا الحب القدسي تجمله يماف مياه الرذيلة ، ويطمح بيصره إلى المنبع الذي استقى منه مرة .

أَجل ! لاأستطيع أن أعبر لك عما ينالني من الحجل في حذمرة هذه الحبيبة . على أن عتابها كان رقيقاً ، ونظرها كان رفيقاً ، وعفوها كان سامياً ، يبعث في النفس المخشوع والرهبة ، ولكنه علاها علاه وعظمة .

لقد كنت لا أفتُر عن مواز تها عن أعرف من النساء فلم أجد مهن من بدانها في فضل أو يقاربها في ميزة ، اللم إلا أنطونين ، فقد كانت تشابهها في سذاجتها وطفولها ؛ وإلا أمي ، فقد كانت تشاكلها في طهارتها وكهولتها . إن نظراتها وكلاتها لتلهدني العمق والاتساع ورقة الحاشية ونبل العاطفة وشرف الهوى ، وتنقلني إلى بقاع مجهولة أتنسم فيها لأول مرةروا مُحِمياتي الأولى ، ومنبت أفكاري الخاصة. ولقدشمرت بأن ما وصمتني 4 الحداثة من نزق وصلف وجفاء وسخف قد زال مني أثره حتى لم أعد أعرف نفسي . ولما تركتها كنت على خير ما يكون عليه امرؤ من البر والنقاء . نهجَت لي سبيل الوقار والحمية ، وأحيت في نفسي موات الصلاة والورع ، وعرَّفتني الدموع الحارة التي لا تذرفها الميون ولا تعرفها الجفون ، وإنما تنبجس من ينبوع غبوه تحت اليبوسة الظاهرة ، فتفسل القلب دون أن تحله وتذيبه ؛ وعاهدت الله ألا أهبط من مماء الشرف التي صمدت إليها بفضل ملامها وكلامها والاقتراب منها.

لقد كان تأثيرها في نفسي صادراً عن عاملين لا أدرى أيهما أقوى من الآخر : عامل الشفقة وعامل الجاذبية ؛ فكان الهوى والمبادة عِنزجان فيها عقدار واحد ، ويتحولان في الدقيقة الواحدة ألف مرة من الحب إلى الدين ، ومن الدين إلى الحب . أليس ذلك منتهى ما يسمو إليه المشق ؟ : استغراق مطلق في جمال رائع ، ولا قوية في عبادة سامية . كل ما كانت تقوله كان في رأيي خالداً ، وكل ما كانت تراه كان في نظرى مقدساً ؛ وكنت أغبط الأرض لأنها تحملها ، والنور لأنه يغمرها ، ولا أنظر ولا أشعر ولا أعبد إلا من خلال حبها المقدس . فإذا مضت الحياة على مثل هذه الحال النفسية سكنت الطبيعة عن الحركة ، ووقف الدم عن الحدوران ، وذهل القلب عن الخفقان ، فلا تعرف حواسنا حركة ولا عجلة ولا نصباً ولا حياة ولا موتاً ، ولا يكون بين شخصينا إلا اتحاد دائم وامتزاج مطلق وفناء حى كفناء النفوس في الله وهي حية موجودة ا

۳.

ما أسمد قلبي وأثلج صدرى ! إن الشهوة الحيوانية الدنيثة انطفأت جذوتها هكما شاعت هي» في حسى ، باستيلائي على نفسها واستيلائها علىنفسى، فمدت أتقى وأنتى مماكنت. ودأب السمادة أن تبل القلوب بالخير فيخلص جوهمها ويصفو عنصرها.

اتحد الله وهي في نفسي اتحاداً تاما فانقلبت عبادتي لها عبادة

دائمة لله الذي خلقها في أحسن تقويم، وأدقها في أجل صورة وأنبل فطرة . ولم أعد غير دعاء متصل لا بذكر فيه اسمان ، لأن الله كان إياها ولأنها كانت إياه . وكنا إذا وقف بنا المسير أثناء النهار على سفح الجبل أو شاطئ البحيرة أو فوق جذوع القسطل أو عند أوْشمة المروج لنرفه عن النفس أو لنجتلي بعض المشاهد، يترامى بنا الحديث إلى مبط الأسرار ومسرح الأفكار أعنى اللانهاية والحكامة التي تملائها وهي (الله) ، فأعجب المجب كله إذا ما رأيتها حين أذكر الله بلسان ضارع وصوت خاشع وقلب خفوق تنكس البصر ، أو تحول الحديث ، أو تخفي بين أسرار جبينها أو على مضاحك فها ، مضًّا من الألم أو أثراً من الأفكار ، لا يلتم مع مأنحن فيه من فوران النفس وثوران المواطف. فسألتها ذات يوم ولسانى يكاد يعقله الحياء عن سبب ذلك . فقالت : إن اسم الله يؤلني . فقلت لما : وكيف تؤلك هذه الكلمة التي تضمنت سر الحياة ومعنى الحب ومغزى الخير وأنت أكمل مخلوقة صاغتها يده؟! فقالت بلهجة اليائس الآسف: ذلك لأن مذه الكلمة كانت تدل في اعتقادي على الـكائن الذي وجب وجوده وإن استحال شهوده، وثبتت حقيقته وإن خفيت ماهيته، فأصبحت الآن في رأيي ورأى الحكاء الذين تقفوني بدروسهم ، وهذبوني

بنفوسهم ، من أعاجيب الأحلام وثرَّهات الأوهام وضلالات العقول. فقلت لها: وكيف؟ أمعلموك لا يؤمنون بالله؟ وإذا لم يؤمنوا مه فكيف لا تؤمنين وأنت تحيين؟ ألا تجدين في كل نبضة من نبضات قلوبنا اعترافاً بالله وإعلاناً عن وجوده ؟ فبادرت إلى الجوابقائلة : « لا تفسر بهذا الضلال حكمة أولئك الأعلام الذين أماطوا لى عن وجه الحكمة ، وأناروا لى طريق العقل والسلم بغير ذلك المصباح الوهمي الخافت الذي يضيء به المشموذون والمخرفون ذلك الظلام الذي ضروه عمداً حول عقائده ومعابده. إنى أكفر برب أمك ورب حاصنتي ، أما رب الطبيعة وإله الحكاء فإنى له مؤمنة وله قانت. إنى أومن أنا وهم عوجود هو الأصل والغاية ، وهو المبدأ والنهامة لكل موجود عداه ، أو هو الأمد والطبيعة ، والصورة والشريعة ، لهذه الكاثنات الظاهرة والخفية ، الذكية والغبية ، الجامدة والحية ، التي يتركب منها الاسم الحقيق لكائن الكائنات وهو اللانهاية. أما فكرة المظمة التي لا تحد، والقضاء الذي لا يرد ، والضرورة المطلقة النافذة ، لهذا الكائن الذي تدعونه الله وندعوه نحن القانون ، فهي تصدنا عن الفهم المميق والوصف الدقيق والإدراك الصادق والرأى المستقل والخيال الملهم والاتصال المكن بهذا الموجود ، حتى عن الحمد

والصلاة ، فإن الغاية لا تعبد الأصل ولا تصلى له .

واحر قلباه! لشدُّ ماسكيت بين مدمه من التحيات والدعوات والعبرات منذ أحببتك! إني أدهشك وأولك ؛ ولكن عفوك! ألست فضلة الصدق رأس الفضائل إذا كان هناك فضائل؟ إنا لا نستطيع أن نتفق على هذا الموضوع فلنُمسك عن الجدل فيه . لقدنشأتَ في حِجر أم تقية ، ودرجت من أسرة مسيحية ، فرضمت التَّق مع اللبن، ونشقت الإيمان مع الهواء؛ ثم جروك من يدك إلى المايد، وأروك الصور والأسرار والهياكل، وعلموك الصلوات وقالوا لك إن الله يراك ويسمك ويستجيب لك ، فصدقت وآمنت لأنك لم تبلغ بمدئذ سن التمييز والبحث والحكم ، فلما بلغتها نقيت اعتقادك من عبث الطفولة ، وتصورت إلها آخر غير ما صورته النساء ومثلته الكنيسة ؛ ولكن المر الأول لا نزال طشياً على عينك ، والنور الذي ظننت أنك تراه كان مشو باعلى غير عامك بنو رالحداثة الكاذب الذي يهر يصرك وسحر بصيرتك فية. في نفسك ورأيك أثران من هذا المهد النرير والعقل الصنير ها أسرار الدين والصلاة . ليس في الدين أسرار ولا متشامات ، وإنما فيه المقل الذي يبددكل سر ويكشفكل غامض ويجلو كل شهة . إن هذه الأسرار من اختراع الرجل الماكر الشديد

التلفيق، أو الساذج السريع التصديق . أما المقل فهو من نور الله وصنعه . كذلك ليس في الدين صلاة ، لأن الصلاة التماس تغيير ورجاء تحوير ، وليس في القوانين الصلبة مايلين ، ولا في الضرورية منها مايتغير . وقد عرف القدماء على جهالتهم هــذه الحقيقة فصلوا لجميع ماخلقوا من الآلهة إلا رمز القدر فلم يرفعوا إليه صلاة ، ولم يطلبوا منه دعاء ، لأنه القانون الذي لايخرق ، والقضاء النبي لايرد ، والقول النبي لايبدُّل » . ثم أمسكت عن الكلام وأمسكت أنا عن الرد فترة طويلة . ثم قلت لها : « يظهر أن الأسائذة الذين علموك هذه العقيدة وألهموك هذا الرأى غلبوا جانب المقل على جانب الشمور في نظرية الملاقة بين الإِنسان والله ، فنسوا القلب في الإِنسان وهو منبع الحبكما أن الذكاء منبع الفكر . إن مايتصوره الإنسان في الله قد يكون سخفاً وخطَّلا، ولكن غرائره وهي قانونه الموروث لا يجوز أن يعتورها الخطأوالكذب، وإلا كانت الطبيعة التي كونتها كاذبة وأنت لا تُعَوِّزن الكذب على الطبيمة ، فقد قلت منذ قليل إن الصدق رعاكان الفضيلة الوحيدة . فسواء إذن أكانت حكمة الله في وضع هاتين الغريزتين ــ غريزة السر والخفاء ، وغريزة الصلاة والعماء - في قلب المرء أن يعلن إليه بذلك أنه غير معلوم

ولا مفهوم ، وأن الخفاء هو أصح أسمائه وأدل نموته ، أم يريد أن جميع خلقه يسبحون محمده ويلهجون لذكره ، وأن الصلاة هي ثناء الطبيعة المام ونشيدها الجامع ، فإن الإِنسان إِذا ما ذكر الله دفعته غريزته إلى دعائه ، واعتقاد سره وخفائه . أما الخفاء فعمل المقل أن يبسطه وبجلوم ، دون أن يبدده ويمحوم ؛ وأما الدعاء غهو أريج القلب كما أن المطر أريج الزهم ، فمن طبعه ألا يفتر عن إعلانه بين يدى الله سواء أنفع أم لم ينفع ، وممع أم لم يسمع ؛ وسواء أوقع هــذا المطر على أقدام الله أم وقع على الأرض. ولكن من يدرى؟ ربما كانت الصلاة وهي الصلة الخفية بيننا وبين الله القادر الذي لا تدركه الميون ولا تناله الظنون أعظم قوى الإنسان الطبيمية والروحية ؛ أو ربمـا قضت مشيئة الله عزر اسمه أن يوحى لها إلى القلوب ليشرك المصلين بصلاتهم في تصريف أمورهم وتدبير حياتهم . أم من يدرى ؟ لمل الله جمل هذه الصلاة ماتة يينه وبين خلقه الذين برأم على مثاله ، وخصهم بحبه وإفضاله ؛ أولمله وهو في عزلته المقدسة التي لا يممرها غيره أراد أن تكون الصلة حديثاً متصلاً بينه وبين الطبيعة ، فيصعد إليه تسبيحاً وحمداً ويهبط منه رحمة وبركة . وعلى أية حال فالصلاة أجل معزة للرجل لأنها الوسيلة إلى مناجاة الله وتكليمه . فنحن نناديه وإن لم يسمع ،

لأن عظمتنا في أن ندعو ، وعظمته في ألا يجيب » .

رأيت أن براهيني عطفت قلبها ولم تقنمه ، وأن نفسها وقد أيستها جفافة العلم لا ترال بنابيمها مسدودة من جانب الله ؟ ولسكن الحب لا يلبث أن يرطب اعتقادها كما رطب فؤادها ، والهوى بنميمه و بؤسه لا بد أن يفتق قلبها عن العبادة والصلاة ، وهما عطران يفوحان من كل نفس تذوى وتحترق ، فأحدهما ملئه السكرات ، والآخر ملئه العبرات ، وكلاهما جليل مقدس .

41

على أن سمادة القلب، وخلوة الحب، وملاء متهذا الفردوس النفوس الرقيقة ، ووقوفها كل يوم منى على مجهول من الفكر أو مستور من الأمريتفق مع أمر ارها الخاصة ، وهواء الخريف فوق الجبال محتفظاً بدف الشمس حتى منعقد الناج ، والجولات البعيدة خلال الجواسق أو فوق الماء، وما تجده في ميدان الزورق أو في خطران المطية من راحة المشاعر ولذة الجسم ، وابن البقر الذي يأتيها به الراعاء صباح مساء في أقداح من خشب الزان ، وذلك التوران اللذيد والهذبان الحادئ والدوران اللستمر مما تشعر فالنفس الشابة مستها مواس الحب الأول فطار بهاعلى أجنعته

في أجواه جديدة ، ينقلها من فكر إلى فكر ، ومن حلم إلى حلم ؟ كل أولئك مسح ما مها من نهكة الداء وأو في مها عجلان إلى العافية. فن ضحى اليوم إلى عشبته كان ذاهما يؤوب ، وجسمها يثوب ، ووجهها يشبو ؛ فذهبما كان يدور بالجفون من بقع كلفا. أوزرقاء كانها طابع الموت ووسمه ، وأصبح الوجه مشبوب الخد منضور اللون فوار الدم مكسوا بالزغب كوجه الفتاة صمّدت في الجبل طويلا فتورد ، وقرسه نسيم الثلاجة فتضرج ؛ ثم ذهب مابالجفون من ثقل ، وما بالعيون من ظلمة ، وما بالشفاه من ذول . وكانت. نظراتها تسبح في صباب شفاف تراكم من هموم النفس ، فهو بخار القلب الملتهب انعقد فوق مقلة المين دموعاً لا تفترعن الفيضان. واكن تلك النارالتي تكوع القلب وتُلهب الحشا تجفف هذه الدموع فلا تقطر . ثم عاودت هيئتُها القوة ، وحركتهاالمرونة ، ومشيتها الخفة ، حتى لتحسم عادت طفلة. وكان الطبيب وأسرته كلا رأوها في فناء البيت عائدة معي من نرهتها أخذ منهم الدهش مأخذه ، وصاحوا متعجبين من وفور حظها من العافية ، وسرعة تقدمها في الصحة ، وما تشعه مقلتاها من نور الصي وضوء الحياة في محر وم وليلة .

كأُنما السمادة أشمة ، وكأُنما تجمَّع حولما من هذه الأشمة

جو يسرها ويسركل من ينظرها . وماكانت هذه الأشمة إلا أشمة الجال ، وماكان هذا الجو إلا جو الحب ! ولا تظن ذلك المختلاق مصور أو اختراع شاعر ، وإنما فضل الفنان على غيره أنه دقيق النظر قوى الملاحظة ، فهو يبصر ما لا يبصره السادرون أو الماشون من سائر الناس . لقد طالما قالوا في الفادة الحسناء إنها تبدد غياهب الليل ، ويصح القول في چوليا أنها تدفئ ما أحاط بها من الهواء ، فكنت أحيا وأسير مفعوراً بهذا الدف عالمادر عن جالها المبعوث من مرقده ، وكل من مربها وجد هذا الدفء وأحسه !

44

كنت كلا أويت إلى غرفتى أثناء اللحظات القصيرة التى أضطر فيها إلى تركها أشر وأنا فى رائمة النهاركا فى فى نفق تحت الأرض لا ير به الهواء ولا ينفذ إليه الضياء ! وكانت الشمس نفسها على شدة تألقها وقوة توهجها لا تضىء لى الأشياء مالم تنمكس فى عنى منها ، وكنت كلا زدتها نظراً زادتنى إعجاباً بها وارتياباً فى أنها خلقت من النوع الذى خلقت منه . ولقد أصبحت أوهية حها فى ذهنى حقيقة تابتة وعقيدة راسخة ، فنفسى لا تفتر

عن الخضوع والركوع أمام هذه المخلوقة التي جلّت بحنانها عن أن تكون امرأة . وما أن تكون امرأة . وما أعرف فيا أعرف فيا أعرف من اللنات اسما ينطبق عليها ويدل على حقيقها ، فسميتها في نفسى بالسر . ورحت أوَّدى إليها تحت هذا الاسم المبهم شعائر يصلها بالأرض الحنان ، وبالسماء المبادة ، وبالحيال النشوة ، وبالحقيقة الوجود .

ثم ألجأنى ما أشاهد منها وما أعتقد فيها إلى أن أبوح لها بأنى صنعت في بعض الحالات شعراً ، ولكنى لم أعرضه عليها ، ولم أنشده على مسمعها ، لأننى لاحظت أنها قليلة المنابة بهذا النوع الصناعى من الكلام الذى يسىء التعبير عن المواطف الساذجة والميول الصادقة ، فيفسدها وهى صالحة ، ويبهمها وهى واضحة . وهى من طبعها المبادهة والمصارحة والرزانة ، فلا ترضيها مده المواصمات ولا تلك المداورات ، ولا تروقها روية الشعر المكتوب ، ولا زخرفة الخيال المكتوب ؛ وإنما هى شعر بغير وزن ، وغناء من غير مزهم . وهى عارية كالقلب ، بسيطة وزن ، وغناء من غير مزهم . وهى عارية كالقلب ، بسيطة كالمحلمة الأولى ، حالة كالليل ، مضيئة كالنهار ، سريعة كالبرق ، واسعة كالفضاء ! وكانت نفسها سلماً موسيقيا لا حَدِّ لدرجاته ولا تيد لنغانه ؛ وكان صوتها غناء رخيها لا تمادله رنة الوزن ولا

إيقاع النغم . فلو عشت بجانها ما عشت لما أحسست حاجة إلى إنشادالشعر أو إلى قرضه ؛ لأنها كانت لى القصيدة الحية التي تصور لى مشاهد الطبيعة ، وتعبر عن خطوات نفسى . فعواطفي رنانة في قلها ، وصوري مرسومة في نظرها ، وأننامي شادية في صوتها . ناهيك بأن الشعر المادي الرنان الذي ظهر في آخر القرن الثامن عشر وتمثل في شعر دُليلَ و نُنْتانسُ لا يروقنا ولا يلاعُنا. إنْ نفسها التي هدهدتها أمواج المحيط الحنانة الرخيمة كانت مقرا للآلام والأحلام والحب، فلا يكني لإثارتها تصفيق الماءولا أغاني الهواء. ولقد حاولت مراراً أن تقرأ أمامي شيئاً من دواو بن هؤلاء الشعراء وأن تظهر إعجابها عا نالوا من سمعة ، ولكنها ما كانت تطيق الاستمرار في القراءة فَتُمُسك، وتبقي الكتب تحت يدها خرساء كأنها الأوتار المقطوعة يعالجون إخراج الصوت منها بالعزف عَلِيها في غير طائل . كان في قلبي أثرها و نفحها وشمرها ، ولـكني عجزت عن توقيمها وتقطيمها وترجيمها . ولم أنشد الأشمار التي أَلْهُمْتَنَى إِياهَا وأُوحَتَ إِلَىَّ مَمْنَاهَا إِلَّا عَلَى قَبْرَهَا ، فَلَمْ تَمْرُفُ مَنْ تحب قبل موتها . لقد كنت في نظرها أخًا ، فاكان يسنما كثيراً أن أكون في نظر العالم شاعراً . فني ذات مرة بحت لما عن غير عمد علكتي الضميفة في قرض الشمر ، وما كانت تأنس ذلك في ولا ترىده لى . واتفق أن وفد علينا صديق لويس فقضي ممنا أيامًا كنا نقطع أنصاف لياليها في القراءة والحديث والني ومطارحة الشكوى أو مبادلة الفرح. ولقد كنا نمج المحك كله لتصرّف القدر في هذه الحظوظ الثلاثة كيف جمها من شتات ، وعرَّفها من أنكر ، وعقد بينها أسبابا كانت بالأمس مفصولة ، وأبان لما أشياء كانت منذ قليل مجهولة ، ثم ضمها فوق فرش واحد تحت عرش وأحد في بله وأحد. وطفقنا نتسلف النظر ونستفتي القدر عن مصيرنا ، فلا ندري أتمصف بنا عواصف الدهم فنتفرق إلى غير رجمة ، أم ينسدل بيننا حجاب النوى ثم نمود فنجتمع . لم نر في سماء الفد مخايل لليُمن ولا دلائل على السمادة ، فشملنا الأسي واستولى علينا الحزن ، وليتنا صامتين أمام منضدة الشاي الصفيرة التي جلسنا إلىها ، واعتمدنا عرافقنا علمها ، حتى أحس لويس دييب الشمر في نفسه ، وكان شاعراً ، فأراد أن يصور بالكتابة أشجان قلبه و واعث بؤسه ، فقدمت إليه جو ليا قلماً وقرطاساً ، فخط على رخام المدفأة هذه الرباعيات الشاكية الباكية على مثال الرباعيات المحزنة التي نظمها جلبرت . وأكبر ظني أنهـا ستخلد ما خلدت أنات أوب في سِفْره . قال منها :

إلى ولمية الحياة أجبت أنا الضيف المنكود،

فلم أُتَّمَ على خِوانها غير يوم ثم دعتنى المنون . فأنا أردُ حياضَها على رُودٍ وأناة ، دون أن أرى باكياً يسكب على عبرة ! الحُ الحُ

فحركت شجوني أبيات لويس فأخذت القلم من يده وانتبذت ناحية من الفرفة ، ثم نظمت هذه الأبيات التي ستقبر معي دون أن تجمع وتنشر . نظمتها فيها مستمدا من قلى لامن خيالي . ثم قرأتها عليها دون أن أجرؤ على النظر إليها . وهاك هي . ولـكن لا . إن عبقريتي كانت كلها في حي وقد فنيت بفنائه وانقضت بانقضائه . فلما فرغت من إنشاد تلك الأبيات رأيت على وجه چوليا وقد انعكس عليــه ضوء المصباح سيماء العجب الحنون والجال الفائق. فوقفت حيران متردداً بين الملاك والرأة، وبين الحب والمبادة ، فتغلبت العاطفة الثانية على نفسي و نفس صديق. **فِحُنُونَا أَمَامُ كَنْبُتُهَا وَتَبَلَّنَا طَرْفُ شَالِمًا الرَّسْلُ عَلَى قَدَمِيهَا .** وعرفت هي أن هـ ذه الأبيات شعاع ضوئها في نفسي ، ولهيب غراما في قلى ، فأثنت علما ثم لم تعد إلى الحديث عنها مرة أخرى . لقد كانت تُوْثر الحديث السلسل الرسل بيني وبينما أو الصمت المفكر المؤثر في قلمها ، على هذه الصناعات اللفظية

والنكت الفكرية التي تبخس قدر النفس بدل أن تشرحها. ثم رحل لويس عنا بمدأن أقام ممتا بضمة أيام.

44

على أثر هذه الأشعار التي نظمتها تصويراً لقلى فكانت صدى خافتاً لأنفامه ، وترجاناً عبيالأحلامه ، وأندناً خفيا لآلامه ، طلبت إلى أن أنظم لها قطعة في أحد خلطائهـا وموضع إجلالهـا وثنائهـا من رجالات باريس وهو السيد نونال . وماكنت أعرف عنه إلا اسمه النامه وذكره الطائر في التشريع والفلسفة والدين، فتخيلت أني أخاطب موسى جديداً يقبس من نور سَيناء هدِّي من الله يفيضه على الوجود ويبشه في قوانين البشر. ثم أنفقت في هذه القصيدة سوادليلة ، وأصبحت فندوت إلها وقرأتها عليها في ظل شجرة من أشجار الكستناء ، فاستعادتني قراءتها ثلاث مرات ، ثم أخذتها و في المساء نسختها ، و في الصباح أرساتها إلى باريس ، فجاءها الجواب من الأستاذ ونال يقرظ القصيدة ويتنبأ لناظمها بالمستقبل الزاهم والفوز الباهم والصوت البعيد. وتلك كانت سبب المعرفة بيني وبين هــذا الرجل الــكريم. وقد أعببت 4 وأعرزته منــذ عرفته وخبرته ، اللهم إلا عقائده التيوقراطية (١) فلم أرضها منه ولم أشاطره إياها. وهو مثل السيد دُمِسْتر، نبى من أنبياء المساضى وشيخ من شيوخ الفكر ، يجلهم النياس ويوقرونهم ، ولكنهم جالسون على أبواب المستقبل يقرعون ولا يلجُون ، وإنما يتسمعون وهم على أعراف الزمن بين القديم والحديث أنين الأشياء والآراء وهى تعالج الروح وتكابد الموت في أذهان البشر .

27

بينها كان الخريف يقوض خيامه ويستدبر أيامه ، إذا بطلائع الشتاء قد دهمته وهو على وشك الرحيل فترك في يديها شيئا من آثاره وقبساً من أنواره ثم ولى . فكان الجو لا يزال مشرق الجنبات رقيق النسمات تطالعه الشمس من خلال النهائم فترة بعد قترة فتقبسه الجفاف والحرارة . فكنا نخادع أنه سناوتزم أننا لا نزال في الخريف ، لأن الاعتراف بقدوم الشتاء وهو ندير النوى ومو عد الرحيل كان يملأ قلوبنا رعباً وفزعاً . وكان الناج يتساقط في الصباح نتفا بيضاء على ورد البنجال وفوق زهور الروض كأنه زغب البجع الأبيض نسله أثناء الليل فذهب أباديد (٢)

 ⁽١) الاعتقاد بأن سلطان الحـــكومة مستمد من الله وحده

مع الهواء في جو السماء فإذا مَتَع النهار ورنقت ذكاء^(١)في الأفق أذابت ذلك الثلج فتدفق في البحيرة فيكون لتدفقه منظر يثلج الصدور، ويجلو صدأ الهم، ويلطف حرارة الجو. وكانتأشجار التين الدانية على الصخور المرضة للأمواج لا تزال كاسية بأوراقها المريضة ، وكان انمكاس الشمس على هذه الجنادل لا نزال خالماً عليها من جمال الصيف أضواء أيامه وحرارة لياليه . غير أن هذه الساعات كانت تفر منا عجالا فرار مجاديفنا من الصخور الناتئة على جانب البحيرة . وكانت أنوار الشمس الصالبة فوق أشجار التنوب وعلى الأَشْنة الخضراء ، وطيورُ الشتاء المرناشةُ الوَّامة الألوفة ، وفيضانُ الشلالات وزَبَدها المتلوى تلوى الأفاعي فو ق المروج الحادرة ، وتجمعها في مدارج السيول ثم تدفقهامن رؤوس الصخورالسوداءاللساءفالبحيرة، وما نشمر 4 في هذا الجوالدافُّ المنير من سعادة النفس ونعيم الميش لصفاء القرب وهدوءالخلوة فوق هذه اللجة بميدين عن الأرض ؛ كل ذلك كان إلى تلك اللحظة يغمرنا بفيض من لنة الحياة ونشوة القلب وسكينة الحب ، لا يستطيع الدهم نفسه أن يزيد عليه ولا أن يضيف شيئًا إليه . على أن هذه السمادة كان يشوبها في نفوسنا الخوف من انقضائها

⁽١) الشس.

فكا نما كل تجديفة بالزورق خطوة في سبيل الفراق . ومن يدرى المل هذه الأوراق المهزة اليوم تسقط في الماء غداً ، وهذا النجيل الذي نستطيع الآن أن نفترشه لا يلبث أن تطمره طبقة كثيفة من الثلج ، وهذه الصخور البراقة والساء الناصمة والأمواج اللاممة يمجل إليها ضباب الليل فتفرق منه في محر مسجور النفسنا الصَّمَداء في وقت مما ، لأننا كنا نجيل هذه الخواطر في أذها ننا دون أن نجرؤ على تبادلها ، مخافة أن نوقظ المسيبة إذا ذكر ناها .

آه! كل منكم ذاق ولا ريب هذه السمادة العاجلة الزائلة التي لا أمان لها ولاغد. تتجمع الحياة واللذات والني كلها في ساعة في عنى المرد لو تطول و تخلد! ويشعر بإفلاتها منه في كل دقيقة وفى كل أنية كل سمع البندول يدق الثواني، أو رأى المقرب يلمهم الساعة ، أو أحس العربة تنهب المسافة في كل دورة ، أو نظر حيزوم السفينة يشق عباب الماء فيدنيه من الشاطئ حيث يهبط من سماء آماله وأجواء خباله إلى أرض الحقيقة الباردة الوعرة!!

الشمس في خليج هادئ دافي بين ذراعين من جبل القط ، فنزل الملاحون إلى الأرض رفعون شباكا كانوا نصبوها بالأمس، وبقينا وحدنا في الزورق وهو مشدود بحبل دقيق إلى فرع من شجر التين ، فانفتل الحبل من نُوَدان الزورق فكسر الغصن ، وسار بنا الزورق دون أن نشمر حتى بلغ منتصف الخليج على مسافة من الصخور العمودة التي تكتنفه . وكان لماء البحيرة في هذا المكان لون البرنز وبريق المدن المذاب وسُحُو الليل الساكن . فأخذت الجــداف ، وعدت بالزورق إلى الشاطئ ؛ ولكن هذه العزلة عن الأحياء بعثت في أجسامنا نشو ةلذمذة ، فتاقت أنفسنا إلى أن نضل على تلك الحال في جو لا بدركه البصر ولايحده الفكر، لا على بحر يحصره شاطئان ويحده قاع. وانقطع عن آذاننا أصوات الملاحين وقدرأيناهم على مدى البصر يصمدون كثيب سڤوا. ثم وارام رأس الجبل فلم نمد نسمع لهم ركزاً ولا نرى لهم شخصاً. وماكان يبلغ أسماعنا إلا هسمسة الشلال متقطعة على بمد ، وإلا رفيفُ الريح حاملة أنين الصنوبر ، وإلا التطامُ الأمواج على جوانب الزورق . وكان نور الشمس وظل الجبل يتقامهان القارب، فللشمس مقدمه وللظل مؤخره. وكنتجالساً فی جوفه بین قدمی چولیا کما کنت یوم عـدت بها من دبر

الهتكمب . وما كان أنم لميوننا وأحْلي في صدورنا أن نذكر في كل محادثة وفي كل مناسبة ذلك اليوم السميد الذي ابتدأ فيه تمارفنا وكلامنا ، ووُلد مه تآ لفنا وغرامنا ، وأصبح لملاقتنا الوثيقة الخالصة تاريخ إعجاب وإخلاص ومودة ! كانت چوليا مضطحمة على المقمد، وإحدى مديها مرسلة على حافة الزورق، والأخرى معتمدة على كتني تعبث بخصلة من شعرى الطويل. ووجهها تمني يحلى وجعي كأنها ترقب فيجبيني الشمس وفي عيوني النهار . وقد فاضت على قسماتها نضرة السعادة الهادئة العميقة ، فلمت على عياها بهاء النفس الكرعة وصفاء الضمير النقى، فكان خليقاً أن يكون لنفسها مرآة ولخلقها صورة . وبينها نحن على هذه الحال ننساقي كؤوس الهوى بالفكر ، ونتبادل أحاديث المي بالنظر، إذ علاها شحوب وآوت إليها ذراعها، وسترت عينها يديها ، واسترسلت في الفكر مليا وهي صامتة . ثم رفست كفيها وقداخضلتامن الدمع ، وصاحت بصوت ملؤ مالوضوح والسكون والعزم قائلة : ﴿ أُوهِ ! فَلْنَمُتْ ﴾ وأدركها قبل أن ينبين غرضها الوجوم، فسكت لحظة ثم ماودت الكلام تقول: ﴿ أُوهِ ا أجل لنَمْتُ ! فليس في الأرض على ما نلنا مزيد ، ولا في السماء فوقه مطمع » ثم سرحت طرفها طويلا في السماء والجبال والبحيرة

وخاطبتني بضمير الواحد ، وتلك هي المرة الأولى والأخيرة التر, استعملت فبها هذه الصيغة الكلامية التيخصص العرف استعالما لله أو للأليف . قالت : انظر تجدكل شيء كانْما هي وأعد للاحتفال بانقضاء حياتنا وتهوين مماتنا على أقدس صورة وأجل حالة ! فهاهي ذي الشمس وهي أجل في هذا المام منها في أعوامنا الأول تغرب ورعا لاتشرق علينا غداً. وهاهي ذي الجبال تترامي لآخر مرة في جوانب هذه البحيرة، وترسل علينا ظلالهاوكأنها تقول: أدرجا نفسيكا في هذا الكفن الذي أبسطه لكما ا وهاهي ذي الأمواج تتماقب على الساحل صافية صامتة عميقة فتهيُّ لنا مرقداً من الرمل لا تقع عليه عين ولا يهتدي إليه إنسان فيصدع قلبينا بخبر السفر ا ولن يعلم أحد السبب الذي قضى على هذا الزورق أن يسير غداً وحده حتى ينشب في صخور الساحل . ولن يجد الفضو ليون أو الخليثون على صفحة الماء أثراً يدل على المكان الذي غاب فيه جميان متعانقان تحت الموج الهادر ، وصمد منه روحان متلازمان إلى الأثير الخالد! ولن يبق على الأرض منا صوتولا أثر غير صوت الموجة تنشق لجسمينا ثم تنطبق!.... فلنمت الآن في هذه السكرة التي استولت على النفس وهيمنت على الطبيمة حتى لا نُدُوق من الموت غير لذَّه ؟ فرعما احتجنا إليه فى مؤتنف الزمن فلا نجده عذب المذاق ولا سهل الملتمس كهذه الموتة . إلى أ كُبُرُكُ بيضع سنين ، وهذا الفرق فى السن وإن ظهر يسبراً اليوم سيعظم مع الزمن ، فما يفتنك الآن فى وجهى من الوسامة والجاذبية ستذهب بَلته عما قليل و يذبل ، فلا يبقى فى نفسك منه إلا عهده المتوج وأثره الدارس . وسيجد قلبك حينئذ الحاجة إلى هوى جديد وسعادة أخرى ، وأنا لا أستطيع إلا أن أكون ممك ولك . فإذا وجدت هذا الهوى وصادفت تلك السعادة فى امرأة أخرى هلكت أسى وغيرة . وإذا آثر تنى على نفسك هلكت ألما وندما لمنائك فى سبيلى وشقائك بسبي ! . . اوه ! فلنمت إذن ، ولنقض على هذا المستقبل المريب فى هذه أوه ! فلنمت إذن ، ولنقض على هذا المستقبل المريب فى هذه المستقبل المريب فى هذه

فى هـ ذه اللحظة وبهذه القوة كانت نفسى تحدثنى بما ألقاه فها فى أذنى ، وأداه وجهها إلى عينى ، وأوحته الطبيمة الصامتة الحزينة إلى قلبى . فكنت أسمع صو تين أحدهما داخلى والآخر خارجى يتماوران على لفظ واحد وممنى واحد . فنسيت نفسى وذهلت عن وجودى وأجبتها : فلنمت !!

ثم جثت بحبال الشبكة من الزورق وأدرتها عماني مرات حول

جسمي وجسمها ونحن متمانقان متلاصقان كأننا في كفن ، ثم حلتها بين ذراعي لألقيها معي في الماء . . . ولم أكدأهم بالوثبة حتى شمرت برأسها الواهن يقع على كتني وقوع الأشياء الجامدة ، وبجسمها يسقط على ركبتها سقوط الأجسام الهامدة . فسبت أن قوة التأثر وشدة السرور عوتنا مماً قد عجلتا لها الموت، ولكنها كانت في غشية من فرط ما نحس فلم أجرؤ على أن أجرها إلى قبري على تلك الحال مخافة أن يكون قد بدا لها فأجني عليها. فاستلقيت لهما في قلب الزورق وأسرعت إلى الوثاق فحللته ثم ضجمتها فوق القمد، وأخذت أنضع جبينها وشفتيها بالماء البارد. ولاأدري كم لبثت على حالها تلك من غير وعي ولا لون ولا صوت، ولكني أذكر أنه حين عادت نفسها وثاب إليها حسها ، كان الليل غاشياً على الكون ، والموج قد استدرج الزورق إلى عباب البحيرة . ولما ذهب ما بها من أثر النشية قلت لها : إن الله لم يرد ما أردنا ، فأحالنا عما قصدنا ، فما زلنا نتملي بالحياة ونشعر بالوجود . ولكنما بالنا نستسلم للوجدان و تتحلل من سلطان المقل؟ أليس ماكنا نظنه حقا من حقوق الحب كان جريمة مزدوجة ؟ أما لنا في الأرض أهل وفي السهاء إله ؟ فردت على مسرعة في صوت مافت: « دعنا من هذا الحديث فلا نمد إليه. لقد أردتَ أن أعيش

فلتكن إرادتك. وما كانت جريمتى فى العزم على الموت ، وإنما كانت فى حملك عليه وجرك إليه ، قالت ذلك وكان فى لهجتها ما يشف عن الألم ، وفى نظرتها ما ينم على الملامة. فقلت لها ردا على آلامها وملامها: « وهل فى العالم الآخر ساعات تعدل هذه الساعات التى قضيناها مماً ؟ إن أمثالها لنى هذه الحياة الدنيا ، وهذا وحده يحملنى على حبها والحرص عليها »

وسرعان ما عاد إليها في هذه المرة صفاء نفسها و نضارة وجهها ، فتناولت المجدافين وأرسلت الزورق إلى الساحل المرمل ، و نرلنا فوجدنا الملاحين قد أوقدوا ناراً تحت صخرة ، فاصطليناها هنهة ثم عبرنا البحيرة حالمين ، ودخلنا البيت صامتين .

47

ولما جاء موعد السمر دخلت عليها الغرفة فإذا بها أمام منضدتها تفالب الدمع و تبكى أحر بكاء . وكان بين يديها رسائل كثيرة مفضوضة مبعثرة بين أقداح الشاى . فلم تكد ترانى حتى أومأت بإصبعها إلى هذه الكتب الواردة من چنيف وباريس وهى تقول : ليتنا متنا تلك الموقة الموحية في التحاليم عن النوى الطويل! لقد كان فيها ألتى إليها من الكتب كتاب من زوجها وآخر

⁽١) السريعة

من طبيها . فأما زوجها فيقول إن القلق أخذ يساوره عليها من جراء هذه الفيبة الطويلة في هذا الفصل الذي يصعب ويشتد من يوم إلى يوم ، وإنه يحس قواه تضمحل من شهر إلى شهر ، ويود قبل أن يفارق الحياة أن يمانقها ويباركها . وكان إلحاحه المؤثر ممزوجاً بالحنان الأبوى والتلميح الظريف إلى ذلك الأخ الجليل الذي صرفها عن كل شيء وشغلها عن كل صديق . وأما الطبيب فيقول إنه كان مقدراً من قبل أن يأتي إليها فيصحبها إلى باريس، فيقول إنه كان مقدراً من قبل أن يأتي إليها فيصحبها إلى باريس، ولكنه اضطر أن يسافر فجأة إلى ألمانيا ليطبب أميراً هناك دعام الى علاجه . فهو مرسل إليها مكانه رجلاً وقوراً ثقة يكون في صبتها وخدمتها حتى تبلغ باريس . وفعلاً قدم هذا الرجل وتحدد الرحيل ثالث هذا اليوم .

وقمت هذه الأخبار علينا وقوع الصاعقة كائها لم تكنين من قبل معلومة ولا متوقعة ! وقضيناها ليلة طويلة ثقيلة متكئين على المنضدة متقابلين صامتين لا نجرؤ على النظر ولا تقوى على الكلام نخافة أن ننفجر بالبكاء . فما كان يقطع هذا الاحتضار الطويل الصامت إلا كلات واهية الرباط طائشة النرض نلفظها بصوت خافت مهم فيكون لهافي الغرفة رنين كرنين المدامع فوق ناووس فقيد . . ثم قطعت عنى أنا أيضاً منذ الساعة على السفر .

كان اليوم التالي بارحة يوم الفراق ، فأشرفت شمسه وضاحة الجبين وضاءة الطلمة ، وأصبح جوه دافي النسيم نتى الأديم جميل الروعة ، كأنما أراد السخر منا والعبث بنا . فتركنا القوم يُمدون الحقائب وبجهزون العربة وذهبنا بالبغال والأدلاء نودع الخلحان والوديان والجيال ، وسرنا على ترتيب المراحل التي قطمناها قبل أن نصل إلى هذا الحب المقدس . فزرنا أولا الأماكن التي تقابل فيها نظرانا، ثم التي تلاقي ما شخصانا، ثم التي تَساير عليها جسمانا، ثم التي تحادث فوقها لسانانا ، ثم التي تألف عندها قلبانا . فابتدأنا بتريسر ث ، وهي هضبة جيله قائمة بين البحيرات ووادي إكس، كأنها كومة من الخضرة ، جوانها متعامدة في الماء مفطاة بأشجار القسطل ذوات الأغصان الفينانة المتهدلة على اللجة ، تحسسها إطاراً للسماء إذا نظرت إلى أعلى ، وللماء إذا نظرت إلى أسفل . ثم هبطنا منهاعلى حَدُور دافِم إلى قصرصغير منعزل يدعى بُون بُور، وهو مطمور من جهة البرتحت قسطل تريسرڤ ، ومن جهة البحر تحت مطاوي الخليج ، فلا تأخذه العيون لامن الحضبة ولامن البحيرة إلا بمد كاى . ثم يفصله عن سيف البحيرة المرمل الهادر

بالأمواج والزبد مَشَرف مُفَشى بأشجار التين، فهو القاوب الحبيبة عش والنفوس المكروبة جنة. ولشدَّ ما غبطنا أو اللك السمداء الذين علكون هذا المش الحجوب عن العيون، الخبوء بين الماء والممسون، فلا يسرفه إلا أطيار البحيرة ونسات الشمال وأضواء الشمس! ولطالما باركناه، وحمدنا مراحه ومنداه، وتعنينا على الله ألا كمله ملاذاً إلا لقلوب كقاوبنا تستحقه و تفهمه.

44

خرجنا من قصر بون بور وصمدنا تاركين طرف الهضبة متجهين شمالا نحو الجبال الشاهقة المشرفة على وادى شمبيرى ، فرأينا الربى والمراعى والأكواخ والسفوح المخضرة ومافوقها من المعجول المُجْتَرَة التي تدب فوق العشب فترن أجرامها فى رقابها رنيناً ينبه رعاتها إلى حركاتها . ثم علونا حتى بلفنا الجواسق العليا . وكان قر الشتاء عندها قد أخذ يحرق أطراف العشب ، فتذكرنا ما قضيناه بها من الأوقات الهنية ، وما تبادلناه بقربها من الأحاديث الشهية ، وتمليناه فيهامن الخلوة الممتمة والعزلة الحبوبة ، وما خلناه أجنحة الهواء وأشعة العنياء من النفئات الزافرة والدعوات الطاهرة إلى الله في سمائه وعلائه .

تذكرنا في أنفسنا هذه الأوقات الرضية الذاهبة ، وأخطرنا ببالنا تلك الكلمات والنظرات والحركات والأحلام والأوهام التي نعمنا بها في خلواتنا وجولاتنا ، كأ ننا لريد أن ننقلها ممناكما ينقل الإنسان ثمين الرياش وفاخر الأثاث من منزل إذا تركه . ثم دفنا هذه الكنوز وتلك الذكريات كلها بين جدران هذه الجواسق الحشبية التي لا يفتحها إلا قدوم الربيع ، حتى إذا كان في مقدور الله لنا أن نمود وجدناها سالة غير منقوصة .

39

هبطنا فوق ربوة ذات قرار جلَّه النبات وجمله الشجر، ثم انحدرنا منها إلى مسيل مزبد عده شلال هادر أقيم على جانبه ضريح صغير لفتاة تدعى (بروك) تردت فيه منذ سنين فحاها السيل الجارف إلى مغارة، ثم أظهر الموج به سد طويل ثوبها الأبيض، فدل الناس على جسمها فأخرجوه ودفنوه. جلسنا طويلا أمام هذا الفريح المبلل والقاب واجف والدمع واكف، نفكر فى قيمة هذه السمادة الهشَّة التي تذهب بها زلَّة فوق الحجر الأملس! ثم غادرنا هذا الشلال صامتين إلى جهة البحيرة، وكان الواقف تحت قصر (سنت إنوسان) يأخذ بنظره عرض الماء

ولحَّته. فلما بلفناه تركنا البغال ترعى في الغامة تحت نظر الغلمان، وسرنا راجلين وحدنا تحت أدواح من السنديان تتخللها مزارع الْحَلَيْج ، وكانت حينئذ موحشة مقفرة ، أما الآن فقد عاد إليها أحداً بنائها من طلاب الرزق في الهند فابتني بها داراً جيلة ، وخطط فها حداثق مهيجة . فتقدمنا متنقلين من سَرحة إلى سرحة ، ومن رحبة إلى رحبة ، حتى بلفنا طرف اللسان الداخل في البحيرة ، ورأينا بريق لألائها ، وسممنا اصطفاق مائها . وكان في أقصى هذا اللسان الأرضى صخور من الححر الصوان الأغير تخضل كلاطني الماء عليها ، وتجف وتلمع كلا انحسر عنها . فبلس كل مناعلى صغرة من هذه الصخور ، وقُبالتنا على المدُّوة الأخرى من البحيرة دمر المتكم يبدو للميون أسود اللون مرى الشكل ، وعلى مقربة من مشارفه السود نكتة بيضاء هي منزل الصياد الذي ألقانا مه الموج ليتحد قلبانا على طول الأمد . فرأيت حوليا تمد ذراعها وتشمر بإصبعها إلى هذه النقطة البيضاء وقد كاد محمها البمد وتخفها ظلال الشاطئ وهي تقول: « لقد كان ذلك هناك! » ثم عَقّبت على هذه الجلة تقول بصوت مؤثر ولهجة حزينة : و ألا عكن أن يأتي زمان وموجد مكان تصبح فمما ذكري هذه الساعات التي قضيناها هناك مطموسة لطول المهد في خاطرك ، طموس هذه

النكتة البيضاء لطول البعد في ناظرك ؟ » فقطَّم هـذا السؤال المريب حشاي ، وزاد في خاوفي وجواي ، وأخذ على سبيل القول فصمت اللسان و نطق الدمع . فحاولت أن أستر مداممي بأصابعي وأن أواجه مهب الريح لتجفف ما بدر منها ، ولكنها رأتها ؛ فأقبلت على بلها ، وأظهرت إلى رقة قلبها ، وقالت : «كلا يارفائيل! إنك لن تنساني ؛ وأنا أستيقن ذلك وأحسه . ولكن الحب قصير والحياة بطيئة . إنك ستميّر بعدى طويلا ؛ وستذوق حاو الحياة ومرها ، وستبلو خيرها وشرها ؛ وسيتقلب على عينيك ما يتقلب على عيون الرجال من سعودها ونحسها ونعيمها ويؤسها ؟ وستكون في الرغيبة الواحدة من رغائبك من روح الأمل والقوة ما يكني ألوفاً من الأحياء؛ وستميش ممتماً بكل ما يشتمل عليه معنى الحياة من نشاط ونفوذ وقوة . أما أنا » ثم توقفت قليلا ورفعت يدمها وعينيها إلى السماء، ثم نكست بصرها فعل من يحمد الله ويشكره وقالت : « أما أنا فقد عشت عشت ما يكفيني وبرضيني منذ تنسمت وتزودت أرج نفسك الحبيبة. وهي وحدما التي كنت أنتظرها على هذه الأرض. وهي التي متقويني حتى على الموت الذي أنقذتني منه وغلبته عليَّ ا سأموت في وفرة الشباب وزهرة الممر ، ولكني يوم أموت

لا آسو على فائت ولا آسف على آت ، لأنني استغرفت في نفس واحد من الحياة مالا تستطيع أنت أن تستنشقه قبل أن يأخذ المشيب وفرتك الجميلة الفاحة فتصبح فى بياض هــذا الزبد الراغي تحت قدميك. إن هذه السهاء وذلك الساحل وتلك البحيرة وأولئك الجبال كن مسرحًا لحياتي الحقيقية في هذا العالم . فأقسم لى أنك تمزج هذه الأشياء مذكراي في ذهنك ، وأن تدوم صورة هذا المكان مع صورتى في نفسك ، وأن تظل هــذه الطبيعة في عينك ما دمت أنا في قلبك ؛ حتى إذا عدت بعد أيام طويلة إلى هذا البلدتستمتع مهذه الطبيعة الجيلة ، وتجول تحت هذه الأشجار الظليلة ، وتجلس فوق هذه الشواطئ الوعرة ، وتنسم جَرجرة هذه الأمواج الهادرة ، تكون قد رأيتني وصمعتني أناكذلك موجودةً مشهودةً محبوبةً كما ترى هذه الأشياء وتسمعها ، ثم أدركها الجزع فميَّت عن متابعة الحديث. واستخرطت هي أيضاً في البكاء ، فتصبب الدمع حتى أُخْضَلَ الثياب وبلل النحور وخدَّد صفحة الماء الراقد ، وحتى اختاط نحيبنا ونشيجنا باتحاب الموج على الساحل المرمل . وأُقسم ما أصف الآن هذه الحال وقد أتى عليها عشرون حولا إلاوأنا أبكها أحر بكاء.

أيها المحبون ! لاتجزعوا على عواطفكم ، ولاتخشوا أن

يمصف بها الزمن ، أو يعدو عليها البلى ، فليس للدوى القوى الذى علا ألذا كرة أمس ولا غد ؛ إنما له اليوم الحاضر والوجود المستمر . ولا تظنوا أن من ينقطع شعوره قد شعر حقيقة من قبل . إن لكل امرى ذا كرتين : ذا كرة الحس ، وهي تبلى كا يبلى الحس ، ويذهب مافيها ذهاب الأمس ؛ وذا كرة النفس ، وهذه لا تعهد النسيان ولا تعرف الزمان . فنظرها إلى الماضى والحاضر سواء ، وإدراكها القريب والبعيد كفاء ، ولها ما للنفس من الحاكول في كل مكان ؛ والبقاء في كل زمان ، والعموم الذي لا يقيده ظرف ولا يحدده وصف . فسكنوا روعكم أيها المحبون ، لا على نفوسكم وأحلامكم !

2.

حاولت الكلام تأنى النطق، والتاث على القول، فرددت عليها بزفراتى، وأقسمت لها بعبراتى. ثم قنا فلحقنا بالمكارين، وعُدنا والشمس فى الطَفَل من طريق الحور التي سلكناها ليلة أبنا من منزل الصياد وهى فى المحفة وأنا بجانبها أسير على قدى ويداى فى يديها طول الطريق. فلما بلننا الضاحية الكبيرة التى بظاهر المدينة وأجزنا الساحة واخترقنا الشارع الصاعد إلى إكس

بدت وجوه كاسفة حزينة من شبابيك المنازل وعتبات الأواب تلتى علينا السلام كما تلقيه القلوب الرقيقة على زوج من السنونو تمو"ق عن الرحيل مع سربه . ووقف النساء المساكين اللائي كن يغزلن جالسات على مقاعد من الحجر قريباً من بيوتهن ، وهرع الولدان إلينا تاركين ما يسوقون أمامهم من قطعان الشاء ورعائل أُلْحُرُ ، وكلهم جاء ليوجه إلى الفتاة وإلى من يظنونه أخاها إما نظرة وإما كلة وإما أنحناءة صامتة . وهي جميلة في كل عين ، حبيبة إلى كل قلب، خفيفة على كل نفس، فكانم اكانت الشماع الأخير من أشمة العام يرتد عن الوادي . ولما ظهرنا عالى المدينة ترجلنا وصرفنا الغلمان بيغالهم . ومازال من يومنا الأخير بقية "غيء الثلوج الوردية التي تُقَنِّع رأس الألب، فكرهنا أن نضيمها على أنفسنا بالدخول إلى المدينة . ومضينا وحدنا نصمد في طريق منحوَّة تؤدي إلى حديقة فوق بيت جيل يسمى بيت الفارس. فلما وتفنا على سطح هــنا المنزل استطاعت عيوننا أن تجول حرة طليقة فى المدينــة والبحيرة ، وفوق مضايق الرون المجمَّمة وبساتين الكروم الموشَّمة ومناظر الألب الجميلة ، وجلسنا فوق جذع تُجَدَّل على الأرض معتمدين عرافقنا على سور هذا السطح صامتين جامدين ننظر مماً أو متماقبين إلى الأماكن المختلفة التي ملاناها

في ستة أسابيع بنظراتنا وخطواتنا وأحلامنا وأنفاسنا ، حتى إذا انطفاً مصباح النهار في هذه الأمكنة واحداً بعد واحد ولم يبق الإسبيص من النور يلمع شمالا في حاشية الأفق ، نهضنا واقفين دون مشاورة ولامداولة ، وانصرفنا راجمين نلتفت عبئاً إلى الوراء كأن يداً خفية طردتنا من هذا الفردوس . ثم أخذت الطبيعة تطوى على أثرنا ما أقامته من زينة وما اتخذته من زخرف احتفالا بسعادتنا واحتفاء محبنا .

13

رجمنا المنزل وقضيناها عشية كثيبة عابسة. وتم الأمر بيننا على أن أصحب چوليا حتى تبلغ ليون. فلما آذنتنا الساعة وهن الليل قت أنصرف لأترك لها ما بق منه لتستريح فيه حتى الصباح. فشيمتني إلى الباب وتقدمت ففتحته ؟ ثم قبلت يدها وقلت لها: (إلى الفد!) فلم ترد على . ولكني سممتها تتمتم قائلة وهي تنتحب خلف الباب : «هيهات! لم يبق لنا من غدا» بلى ! فد بقى لنا من صيفة الزمن أيام ، ولكنها قصيرة مرة كا نها النظفَ من صيفة الزمن أيام ، ولكنها قصيرة مرة كا نها النظفَ الأخيرة من كا س فارغة!

رحلنا قبل أن يخلم الصباح ثوب المُلس إلى شمبيرى حتى

لايظهر الناس منا على خدود أذواها الأرق وعيون قرَّحها البكاء. وقضينا نهار ذلك اليوم فى فندق من فنادق هذا البلد، وكان لهذا الفندق شاذَرُوان من الخشب يشرف على حديقة يجرى وسطها نهرصغير، فألقى في روعنا بضعساعات أخرى أننا لانزال على صلة عسكننا في إكس وما يتصل به من ظلال وسكون وعن لة.

22

وددنا قبل أن نفادر شميرى وواديها العزيز أن نزور مما منزل چان چاك روسو والسيدة دقر َنس فى شرميت. وما الرّبع إلا رجل أو امرأة . والدار لو لا ساكنوها بناء . والأرض لو لا عامروها خلاء . فا قُسكلو ُ زلو لا يتر ارك ، وشو ارنت لو لا تاس، وصقلية لو لا تيوكريت، وبراكليه لو لا هيلوويز ، وأنيسى لو لا دفر نس ، وشميرى لو لا چان چاك روسو ؟ هل تكون هذه البقاع من غير هؤلا ۽ إلا سماء من غير أضواء ، وأسواتاً من غير أصداء ، ومساكن من غير أحداء ، وأسواتاً من غير أصداء ، ومساكن من غير أحداء ؛ فهو يحمل معه خاودا فى السماء ، ويترك بعده خاودا فى السماء ، ويترك بعده خاوداً فى الأرض ، تحسه فيها عايش من قوم ، وزاول من عمل ، ولا بس من روع ؛ فإذا ما وجدت آثاره فقد وجدته من عمل ، ولا بس من روع ؛ فإذا ما وجدت آثاره فقد وجدته

أو زرت دياره فكا نك زرته . ذهبنا نرور هذا المكان وممنا كتاب الاعترافات الذي وصف فيه شاهر (شرميت) هذه الأرباض الريفية أجل وصف . وكان هذا المكان أول ملجأ لأولى غَرَقات روسو في خضم الحياة ، ألقت به أمواج القدر بين ذراعي امرأة فتية جميلة مخاطرة ارتطمت بها سفينة الحظ مثله فانتشلته . وكائما صيفت هذه المرأة عن قصد من الفضيلة والرذيلة والحياء والوقاحة والرقة والقسوة لتشبل على حداثة هذا العبقري الشاذ الذي تجمعت في نفسه المتناقضة صفات الحكيم والحبيب والفيلسوف والفقيه والأحق . فاو قيض له الله امرأة أخرى الكان من المكن أن تصونح منه رجلا آخر . فإن أثر الحبيبة الأولى في حياة الحسمن أقوى الآثار وأبقاها .

ف أسعد من عرف السيدة دُقُرنْس قبل رجسها وتبذل نفسها! فقد كانت صنا تهوى إليه الأفئدة ، ف ازالت الأرجاس تتعاوره حتى تدنس ، واستحالت العبادة التى كانت تؤديها إليها تلك النفس الطاهرة الوامقة إلى حقارة وضمة . وماحب هذا الذى وهذه المرأة إلا صفحة من (دفنس وكلوم) انتزعت من الكتاب ثم وُجدت ملطخة مدنسة على فراش عاهرة .

وعلى أية حال لقدكان حبها الغرام الأول لهذا الشاب الجيل

ويتها منبت هذا الغرام ومثابته ؛ كان فيه العريش الذي نشأت فيه أوائل اعترافاته ، والغرفة التي خجل فيها من أولى علاقاته ، والفناء الذي كان يتمجد بالإسفاف فيه إلى أحقر الأعمال البدنية خدمة لحبيبته و نصيرته ، وأشجار القسطل المتفرقة التي كان يجلس في فيتها الحبيبان يتحدثان عن الله ، ويقطمان سياق هذا الحديث اللاهوتي الفرح بالضحكات الجنونية والمداعبات الطفلية . وكانت صورتاهما مطبوعتين في كل هذه المشاهد المونقة الريفية ، ممتزجتين مهذه الطبيعة الموحشة الحفية . وللشعراء والحكاء والأخلاء إلى كل ذلك ابجداب توثى وميل شديد . فأما الشعراء فلائها الصفحة الأولى من نفس هي في مجموعها قصيد ونشيد ، وأما الحكاء فلأنها عش لأول حب مهد ثورة ومسرح تجديد ، وأما الأخلاء فلأنها عش لأول حب ومهد لأول عاطفة .

24

كنا نصمد ونحن نتحدث عن هذا الحب في طريق ُمحَسَّب يخوض في جوف واد يؤدى إلى شرميت . وكنا نسير وحدنا لا نحس من أحد ولا نسمع من صوت ، حتى رعاة المعز فادروا السهول بعد أن تركوا المروج جديبة والأَسْوِجة سليبة . وكانت

الشمس تضيء من خلال النهائم الجهام فتتجمع أشمتها في جوف الوادي فيشتد حرم، والمصافير المطوقة تثب في الأدغال تحت أبدينا وهي آمنة. وكنا نقف الحين بمدالحين فنحلس على مصرف من مصارف الماءلنقر أصفحة أوصفحتين من كتاب الاعترافات، ولتتحد بجسومنا وتفوسنا مع هذا المكان، فرأينا الأفَّاق الشاب في أطاره البالية يقرع باب أنيسي ويلقى كتاب التوصية في حياء وخمل إلى الغادة المتكفة وهي في الطريق المقفرة بين قصرها والكنيسة. وكان الفتي والفتاة ما ثلين لعيو ننا ، حاضر من في قلو بنا ، حتى ليخيل إلى أنهما يسمعاننا ، وأننا سنراهما عما قليل في الشباك أو على مماشي الحديقة بشرميت. ثم ننهض فلا نكاد نعاود السير حتى نماود الوقوف . كانَّمَا في كل مكان عاملان أحدهما يجذب والآخر يدفع ، وكانما كانت في المكان الواحد قداسة هذا الحب ونجاسته . وليكن حبنا ولله الحمد بنجوة من هذا الخطر ، فنستطيع أن نتخيله ونتمثله كما حملناه في قلوبنا نقى الصفحة نزيه الغرض لا نقر ف يسوء ولا يحاط بشهة .

ثم قلت في نفسى : آه ! لو كنت أنا روسو وكانت چوليا دقر نس فاذا كان تأثيرها في وسلطانها على ، وهي أسمى من فتاة شرميت ، وأنا أدنى من روسو في الذكاء ، وإن كنت أدانيه في الحساسة ؟! وكنا إذ ذاله قد علونا وَرَاقاً (١) من الأرض شديد الانحدار والتمرج، تتخلله أشجار من الجوز قديمة العهدكاد يبلما مرور الزمن . وهذه الشحيرات شهدت هناء الحسين و رأتهما يلسان مما فوق جذورها. ورأينا على اليمين في الموضع الذي مناقفيه الشُّعب حتى كاد جانباه يتماسان شَرفاً من الحجارة الوعرة المتنافرة يقوم عليه منزل السيدة دڤرنس، وهو مكمب من الحجارة النُهرينفذ فيه من جهة الشرف باب وشباكان ومثلهما من جهة البستان ، ومن فوق ذلك ثلاث غرفات واطئة وردهة كبيرة على سواء الأرض، وليس فيه من الرياش إلا صورة السيدة دڤرنس وهي في وفرة شبابها ، ولا يزال محياها الوسيم الضاحك يشع الجمال والخيال والفرح من خلال الغبار الفاشي على الصورة . مسكينة هذه المرأة الفاتنة ! لولم تصادف هذا الصي الشرير فأمَّنت سرَّبه وفرجت كربه وفتحت له بيتها وقلبهما لانطفأت في الوحل والقذر عبقريته الحساسة المذبة . وقد يُظن أن هذه المقابلة جاءت عرضاً عن طريق المصادفة ، ولكنما حظ هذا الرجل العظيم كتبه الله منذ الأزل على وجه خليلته الأولى فأعته وثقفته وحمسته بالخلوة والحرية والحب . فكان أثرها فيــه كاثر الحور

⁽١) الوراق: الأرض المخضرة من الحشيش

المين على رأى المشارقة في نفوس المؤمنين ، إذ يسمو بهم طمعهم في اللذة إلى مقام الصُّديقين والشهداء ، ثم جملت منه مخيلة قوية مفكرة ، ونفساً نسائمة مؤثرة ، ولهجة حنونة رقيقة ، وميلا شدىداً للطبيعة ، ووصلت نفسها الشاعرة بنفسه ، فغيرت من طباعه وحسه ، وأعطته العالم فقابلها بالكفران والجحود، ومنحته المجد فجازاها بالفضيحة والسَّبة!!! ولكن الأعقاب محب أن يكونوا أشكر للنعمة وأرعى للحرمة ، وأولى من اغتفر لها ذلك الضعف الذي خلق لنا نبي الحرية . على أن روسو حينما آثر الموراء على العيناء فكتب ماكتب عمن أشبلت عليمه وأحسنت إليه لم يكن روسو ، و إعاكان ذلك المأفون الأحمق. ومن مدرى ؟ لعل التصور الريض المضطرب الذي خيل إليه أن الصنيمة إهانة والمحبة كراهة ، هو الذي أوهمه أن المرأة الحساسة الشاعرة هي المرأة الهاوك الفاجرة ، وأن النرام والصراحة هما السفاهة والوقاحة . لقد خامرنى فى أمره الريب، وحَكَّمت فى صدري هذه التهمة ؛ وإني أتحدى ذوى الدراة بالمنطق والبصر بالكلام أن محللوا هــذه الصورة الغريبة التي صور بهأ روسو حييته، ويعللوا هذه العناصر المتناقضة المتعارضة التي جمعاً فها وخلقها منها .. ألا مجدونها متنافرة متناكرة يدفع آخرُها أولَها؟

لو أنها عاشقة مخلصة لروسو لما أشركت 4 (كلود أنيت) فأحلته معه قلها ، وقسمت بينهما حها: ولو أنها كانت حريصة عليما مؤثرة لمها ، لما هويت الفلام البيفائي ؛ ولو أنها كانت تقية فاضلة لما تمدحت رذائلها وتبجحت عخازمها ؛ ولو أنها كانت جيلة فتانة سهلة كما وصفها روسو لما بلغ بها الأمر أن تنشد هُوَ اتها وعبادها بين الصماليك والأفاقين على قوارع الطرق وأفواه الشوارع ؛ وإذا كانت حياتها تصنعاً وتخلقاً لكانت امرأة مال وصنيعة نفاق؟ ولو كانت مداجية منافقة لما كانت هي الرأة الحرة الصريحة المطبوعة التي تجدها في اعترافاته . كلا ليست هذه الصورة صبحة ، وإنما هي رأس وقلب رسمتهما بدعابثة لاعبة . ولابد أن يكون لهذا الأمر سر ، وربما كان هذا السر في اليد الضالة التي صَورت. لا في طبيعة المرأة التي صُورت. فلا ينبغي أن نتهم المصور الذي خل منزانه وضل حكمه ، ولا أن نصدق الصورة التي شوهت خلقة جملة وكرُّهت نفساً نبيلة بعبد أن رسمتها وحسنتها . . أما أنا فلم يصبح في اعتقادي مطلقاً أن السيدة دڤرنس تتمثل في هذه الصفعات المريبة المهمة التي كتها روسو في هزال الشيخوخة وضلال السكبر، وإنما كنث أتمثلها دأعًا في خاطري كما مدت الشاعر الشاب في (أنيسي) جيلة حساسة رقيقة فيها شيءمن النزق والجون على عفاف نفس وورع قلب، مسرفة فى الطبية، ظمأ ى من الحب، متحرقة إلى أن تجمع بين عاطفتى الأمومة والمشق فى علاقتها بهذا الطفل الذى ساقته إليها المقادير فوجدت فيه بنية قلبها وحاجة هواها، هذه هى الصورة الصحيحة صورتُها كما صمتها من أفواه المجائز والشيوخ فى شمبيرى وأنيسى رواية عن آبائهم.

إن روسو ليحمل في نفسه الشهادة على ظلمه وإجرامه ؛ وإلا فن أبن له هذه الشفقة السامية الحنون ، وهذا الانقباض المؤنث المحتشم ، وهذه الحساسة الرقيقة الصافية ، إذا لم يكن استمدها من قلب امرأة ؟ كلا إن المرأة التي خلقت مثل هذا الرجل ماكانت وقعة ولا فاجرة ؛ وإنما كانت هيلوويز ساقطة . وماكان سقوطها في ردغة الفحش ولا في سفالة الحُلق ، وإنماكان في لجة الموى والصباحة

21

جاءت البستانية فأوقدت لنا في غرفة السيدة دفر نس ناراً وتركتنا نصطليها ومضت لعملها في المطبيخ والفناءدون أن تَمْذُرنا أو تشغل بنا ، لأنها تعودت أن ترى الأجانب في هذه الدار وأن تسمع أحاديثهم الطويلة عن هذا المسرح الذي شهد السنين الأولى لهذا النابغة النابه. ثم قنا نحن فتنقلنا أحراراً الردمن هة إلى الحديقة ومن الحديقة إلى الغرف. وكانت الحديقة، وهي منمورة بالشمس عارية من المشب والبقل كاسية بالنبات الطفيلي ، أشبهَ عقامر القرى يأتيها الفلاحون أيام الآحاد فيجلسون تحت جدران الكنيسة يَضْحون الشمس وأرجلهم على قبورالوتى. ترى مماشيها بمدأن كانت في عهدها الأول مفروشة بالرمل محصوبة بالحصاقد كساها التراب النَّدي وكساها النجيل الأصفر . وما كان أشوقنا إلى أن نكشف عن آثار أقدام السيدة في المهد التي كانت تذهل فيهمن شجرة إلى شجرة ومن كَرْمة إلى كرمة ، وفي مدها مقطف تجني فيه الكثري من البستان أو العنب من الكرم، وبجانبها ذلك التلميـــذ أو المعترف تطير ممه في الروض طائشة كما يطير الفَرَاشُ أَو يَطِيشُ الظَّلِيمِ . على أنه لم يبق من أثرهما في بيتهما غير نفسيهما ، فكان اسماهما ، وذكراهما ، وصورتاهما ، والشمس التي رأياها ولا تزال تَشعُّ بشبابهما ، والهواء الذي نشقاه ولا يزال دافئًا بأنفاسهما رَنَانَا بأصواتهما ،كل ذلك كان يغمرنا بمــاكان ينس به ربوعهما ويهج ربيمهما من نور ونفَس وحلم وحركة . وكنت أرى من سحنة چوليا الفكرة وصمتها الناطق أن هذا

المعبد معبد الحب والعبقرية قد فعل في قلبها ما فعله في قلمي من الأثر القوى والتفكير البالغ . وقد حاولَت الفرار مني لتخلو إلى نفسها ، وتستسلم إلى فكرها وحسما ، فتركتني في الحديقة وعادت هي إلى البيت تريد أن تستدفئ . فلما لحقت بهـ هناك انقلبت إلى الحديقة فجلست على مقعد حجري في الجوسق فتبمتها إليه ، وكان ما تخلف من الأوراق الذاوية المصفرة على عساليج الكرم لا يستطيع حجب الشمس عن هذا الجوسق فنام فيه الضوء وتمدد . ثم قلت لها بلهجة الماتب الحاني : ما هذا الذي شغلك فأردت أن تفكري فيه من دوني ؟ فقالت : واأسفاه ! وهل أستطيع أن أفكر وحدى ؟ إني أقول لنفسي لينني كنت لك فصلا واحــداً من الدهركما كانت السيدة دڤرنس لروسو حتى ولو قضيت مثلها بقية أيلمي في القطيمة والمنقصة ، وكنت أنت مثله كافرا بالمروف رامياً بالتهم! ماكان أسمد قلبها وأرغد عشما ! لقد استطاعت أن تضحى بنفسها في سبيل من أحبت ١ فقلت لها وقد عدت سها إلى البت : ما هذا الكفران والنقصان اللذان تصمان سهما نفسك وحبك ؟ هل مدرت مني إليـك لفظة أو لحظة تفهمين منها أن هنائي مَشُوبِ وأن سعادتي منقوصة ؟ لمَ لا يتصور خاطرك الطاهر أن يكون لهذا الذي تشهينه بروسو حبيبة أخرى فتية نقية عذراء تقدم إليه نفسها لا جسمها، وتفتح له قلبها لا بينها، وتبسط له انقباض الحياة، وتنير أمامه ظلام الوجود، وتطهره من رجس الهوى بنار الحب، وتفسله من دنس الشهوة بدموع الألم، وتعلمه أن لذة الحب في التأمل والحرمان أبلغ منها في التبذل والمنشع، وتدفعه إلى المجد والفضيلة والإيثار بحملها إياه على أن يعتقد أن هذه الخلال قبس من الحب، وهي كلها مدد لكنز الحنان الذي يمتلئ في الأرض ليُفتح في السهاء؟ وأدر كني الحورُ والإعياء من التأثر فتطرحت بعيدا عبها على واعتمدت وجهى بيدى ولبثت طويلا لا أتكلم. فقالت كرسي واعتمدت وجهى بيدى ولبثت طويلا لا أتكلم. فقالت لى : هلم فإلى أحس البرد وهذا المكان لا يلاعنا . . فأعطينا الرأة شيئا من النقود وخرجنا فأخذنا الطريق إلى شميرى .

20

كانت چوليا قد اعترمت الرحيل بكرة الند إلى ليون . وكان لويس قد جاء ليلة السفر بزورنا في الفندق ، فحملته على أن يسافر معى لنقيم بضمة أسابيع في بيت أبى . وكان موقع هذا البيت على الطريق بين ليون وباريس . وخرجنا معانبحث عندالسرًا جين في شميرى عن مركبة صفيرة مكشوفة تقلنا ، ثم نستطيع و محن

على مقمدها أن نتتبع بالنظر مركبة صاحبتي حتى البلد الذي مدهمنا التفرق فيه . فظفرنا عــاكنا نبني . ولم يكدالفحر ينزغرحتي كانت الخيول تمدو بالركبتين في المضايق المتعرجة من سقوا. وكلا بلغنا مرحلة نزلنا فسألنا عن حال المريضة. واحسرتاه عليها! لقدكانت كل دورة من مجلة المركبة تقصيما عن منبع الحياة الذي وجدُّته في سڤوا ، وتجفف ما ترقرق من ماء الشباب في وجهها ، وتردإلى محاجرها وملامحها ذلك النحول الكاسف وتلك الحمي الباردة التي أثرت في ونالت مني يوم لقينها لأول مرة. ولما وردمًا برج الصنوبر من طريق ليون صعدنا إلها في مركبتها نهوتن علما ونسلما ، ورجوت مما أن تنني لصديق أغنية الملاح الإيقوسي، فغنتها إطاعة لي، ولكنها لم تكدتبدأ القطوعة الثانية التي تذكر فراق الحبيبين حتى تمثلت فهاموقفينا، ووجدتها تعبر عن حالينا، نخالها الصبر ورهقها الجزع والهلُّت مداممناومداممها أنهلال القَطْر. فسدلت على وجهها شالا أسود، ورأيتها تنتحب من خلاله طويلا، حتى بلغنا المرحلة الأخيرة فأصابتها غشية شدمة دامت إلى أن وقفنا على باب الفندق ، فساعدتنا خادمة الخان على حملها إلى سريرها ولزمته حتى المساء فاستفاقت ، وفي صباح اليوم التالي تابعنا المسير إلى (ما كون).

و في هذا البلد حُم الفراق ودنت روعة البين، فزودنا سائقها بنصائح ضرورية ووصابا لازمة . واختصرنا التوديع مخافة أن يهيج أشجآنها ويزمد آلامها كما يسرع الجراح في شق الجرح اتقاء لصيحة المجروح. ومضى صاحى إلى ضيعة أبي وتخلفت عنه لألحق يه . على أن لويس لم يكد يغادر (ماكون) حتى وجدتني في حالة لا أستطيع معها البرعا وعدته ، ولا الصدق فيما قلته . فقد وقع في فكرىأني إذا تركت چوليا تقطع هذه الشقة البميدة في فصل الشتاء شاكية باكية لا يُعني مها ولا يقوم بأمرها غير خادمين ، أدركها المرض أو عاجلها الموت وهي وحدها في خان أو في أي مكان ، تذكرني ولا أدري و تدعوني ولا أجيب ، فعدلت عن السفر وقررت في نفسي أن أساير هاعلى بُمد فأسهر عليها وأرعاها، حتى تبلغ مأمنها ومأواها . ولكن يدى من المال صفر ، والشيخ الطيب الذي أقرضني الخسة والعشرين ديناراً زاره الموت في غيبتي، غلمت ساعتي وسلستها الذهبية من صدري ، وسيفي من عاتق ، وطرازي من سيني ، وشرائطي الفضية من حلتي ، وجمعت هذا كله في معطني وذهبت به إلى جوهرئ أمَّى فبعته منه تخمسة وثلاثين ديناراً ومضيت مسرعاً إلى الفندق الذي نزلت فيه جوليا

ودعوت سائن مركبتها وقلت له إلى مسايرك من بُعد حتى تبلغ أبواب باريس ، ولكن لا أريد أن تفطن سيدتك إلى ذلك عافة أن تحول ما يبنى و يبنه . ثم استفهمته عن أماء المدن والفنادق التي سيقف بها أو يبزل فيها حتى أنزل بنز ولهم وأرحل برحيلهم . ثم أجزلت له المكافأة مقدماً على حصانة صدره وصيانة مره ، ومضيت فاحتجزت لى خيلا من البريد وقت على أثرها بسد سفرها بنصف ساعة .

88

لم يحل يبنى وبين هذه الرعاية الخفية حائل . ومضى السائق أماى كلما مر بمحطة يُسرُ إلى عمال البريد أن مركبة من ورائه توسك أن تصل وهي تحتاج إلى جوادين ، فيمدونهما وينتظروننى بهما حتى أصل فأشدها ، ثم أتابع السير مسرعاً مرة ومبطئاً أخرى تبما لما أديد من البمد أو القرب من المركبة الحبيبة . فإذا ماعاوت شرفا من الأرض أبصرت بها تدرج على جَدَد السهل في أطباق الضباب أو في ضوء الشمس حاملة سعادة نفسى ونعيم حياتى ، فيسبق فكرى إليها عَدْ والجوادين وينشاها في المركبة فإذا هى راقدة تعلى ، أو يقظانة تبكى أيامنا الخالية وهناء نا الراحل . ولا أستطيع

أن أعلل الآن كيف تسنى لى أن أغالب شمورى ، وأكظم على ما فى نفسى من النزوع والتوثب مسافة عشرين ومائة فرسنخ فلم أقتح الطريق إلى المركبة التى أقلت هواى وتجمعت فيها مناى وتعلقت بها روحى ، تاركة جسمى يهيم وراءها غير عابى عما عيم من هزات المجلات ويؤلمه من سفمات الجليد! ولكن خوفى عليها من أثر اللقاء المقاجى وتجديد موقف الوداع المؤلم ، ورغبتى فى أن أقوم على حراستها وأسهر على سلامتها ، بعين الماشق فى أن أقوم على حوقطع على وجهى .

نزأت المرة الأولى فى فندق أوتين الكبير ونزات أنا فى خان الضاحية على مقربة منه . فبتنا ، وقبل أن يتنفس الصبح كانت المركبتان تكرّان على الطريق خلال السهوب المنبرة ، أو بين غياض السنديان المتيقة من عُليا بُرْجونيا . ثم وقفنا بدَسكرة أقالون : هى فى قلبها وأنا فى طرفها . وفى عد ذلك اليوم أخدنا الطريق إلى سنس . وكان ماركته ريح الشهال من التلج حول المضاب الوعرة الشم (من لُوسى لُبُوا) و (فر مانتون) قد أخذ يسافط كببا منحة على الجبال والطرق ، فأخفت صوت المحلات ، وأصبح مما يشق على العيون أن تميز الأفق المُضِبَّ من زرور وأسبح مما يشق على العيون أن تميز الأفق المُضِبَّ من زرور التلج الذي تعصف به الريح فوق الأرض . فاستحال على حينئذ

أن أقيس المسافة بين المركبتين بالسمع والبصر. وبينها أنا كذلك إذ بصرت فجأة عركبة چوليا واقفة أمام جواديٌّ في وسط الطريق، والسائق قائم على سلمها ينادي بالويل والجزع ، ويبدى حركات الحزن والهلم، فوثبت إلى الأرض وطرت إلى المركبة ودخلتها فإذا هي مفسى علمها من أثر الكلال وتغير الجو وروعة البين ، ووصيفتها تحاول تنبيهها فلا تتنبه . فأخذت بين بدى رأسها الحبيب ساعة طويلة من الزمن كانت هي في غيبو بة الحس، وأخذت الوصيفة بقدميها ووضتهما على ركبتها ، وطفقت تفركهما وتضمهما إلى صدرها ، وذهب السائق إلى الأكواخ البعيدة يقتبس منها ناراً ، أو يلتمس منها ماء ساخناً . وأنا في أثناء ذلك ينتابني من الشمور المختلف بين الرغبة في أن تعرفني، والرغبة في أن تجهلني، ما لا مدركه ولا يعبر عنه إلا من اقتتل الموت والحياة على قلبه . وكانت نتيجة هـ ذه المناية الرءوف والملاج المنمش أن دبت في جسمها الحرارة وانتشرت في وجنتها الحرة، وانفرجت شفتاها عن تنفس طويل خافت . فعامت أنها تستفيق ، فو ثبت خارج المركبة حتى لا يقع بصرها علىّ إذا ما فتحت عينيها ، ووقفت إلى جانب المجلة قليلا وقد سترت وجهي عمطني، وأوصيت الخادمين أن يخفيا عنها وجودي . فأشار إلى أحدهما أن السيدة قد عادت

إلى نفسها ، وسممتها تقول وكانُّها تحلم : « آه لو كان رفائيل حاضراً! لقدأ حسست رفائيل بجاني! > فصمدت مركبتي وانطلقت الخيول تعدو حتى وقفت بنا في « سَنْسَ » ؛ وهناك في العشية سألت عن حالها فقيل لى: إنها الليلة أصلح . وهي الآن نأعة ملء عينيها . ثم تقصصت أثرها حتى « فوسار » وهي عطة البريد قريبة من مدينة مونترو . وفي هــذا الموضع ينشعب طريق سنس إلى باريس شعبتين إحداها تمر بفُنتنباو والأخرى عيلن ؛ وهذه الشعبة أقصر من تلك بيضمة فراسخ ، فأخذتها حتى أسبق چوليا إلى باريس فأستطيع أن أراها وهي تنزل من المركبة أمام ييتها . وضاعفت الأجر لساقة البرمد فأدخاوني باريس قبل دخول الليل بوقت طويل. فنزلت بالفندق الذي اعتدت النزول به. ولما غشي الليل ذهبت فكمنت على رصف من أرصاف السين إزاء يبتها وقدكنت عرفته من طول ما وصفته لي فكا عما فضيت به ذاهب عمري. اطُّلمتُ في داخل البيت فرأيت من خلال زجاجه ظلالا تذهب وتجيء استعداداً لقدوم الضيف العزيز، ولحت في غرفتها سطوع نار الموقد في سمائها ، وفي أحد الشبابيك وجه شيخ يقترب فيرى الناس ويتسمع إلىحركة الشارع . ذلك كان زوجها وأباها . وكان البوابون قد تركوا الباب مفتوحاً ، وهم بين آونة وَأخرى يخرجون

فينظرون ويسمعون أيضاً، وأمام البيت مصياح قد عبث بضوة هواء ديسمبرالماصف فهو ينشر فره على البلاط ثم يطويه في خود وسرعة . ثم خرجت من أحد الشوارع مركبة من مركبات البريد وأقبلت تسرع حتى وقفت أمام ذلك المنزل . فبادرت إلى ظل عمود هناك أمام البيت المجاور لبينها فتسترت به ، ورأيت الحدم يستبقون باب المركبة وجوليا تنزل منها في حضن الشيخ ، والشيخ يقبلها قبلات الوالد لولده بعد غياب طويل ؛ ورأيتها تصعد السلم متثاقلة متطرحة تتحامل على ذراع الحاجب . وقفلت المركبة بعد تفرينها من المتاع راجمة ، وأغلق الباب وعدت إلى على الأول بالقرب من حاجز النهر .

٤٨

لبثت طويلا أرقب شبايك ينها وقد أضامت المصايح، وحاولت أن أقف على ما يحدث داخل البيت فلم أر إلا الحركة الممادية التى تمقب قدوم المسافر من حمل حقائب وفك صرر وتربيب أناث. فلما همدت الحركة ووقف تَنقَّلُ المصايح من حجرة إلى حجرة ، وانطفأ النور إلا من خرفة الشيخ في الطابق الأول ، رأيت من خلال الزجاج قدها المشوق يرتسم ساكنا

أسود على بياض الستور ، وبقيت ساعة على تلك الحال ، ثم فتحت الشباك على رغم البرد واطَّلمت لحظة في السين من الجهة التي تليني ، كأنما ألممها الحب أن تصوب نظرها إلى . ثم استرجمت بصرها وأرسلته إلى جهة الشيال فراقبت كوكباكنا نديم النظر إليه مماً واتفقنا على أن نجعله موعداً للقاء ومجتمع النجوى متى حُمَّ الفراق وشط المزار ، فيرقبه كلانا من جهته ، وتلتقي عنده روحانا في خلوة السهاء الآمنة. رأيتها ترعى هذا الكوك فكأنما لذع كيدي جرة متقدة ، وأقصد فؤادي سهم ناصل . ففهمت أن روحينا تلاقتا في مكان واحد واجتمعتا في فكرة واحدة . فحل ذلك عرى عن مي فقمت كأنما نشطت من عُقال ، وعدوت حتى وقفت تحت نافذتها ، و ناديتها بما مدلها على أن أخاها تحت قدمها . ولكنها في تلك اللحظة كانت تغلق الشباك ؛ وطنى دروج المركبات على صوتى فأخفاه ، وانطفأ النور من أسفل البيت فوجت مكاني لا أتحرك، حتى سمعت ساعة تعلن انتصاف الليل فاقتربت من الباب وقبلته وأنا واجف القلب مرتبك الفاصل، ثم جثوت علىعتبة البيت وابتهلت إلىجدرانه أنتحفظها استودعتها من مهجة القلب ومنية النفس وأثمن القُنيَ ، ثم فادرت المكان والنفس هأنحة والفؤاد زاخر. وفى العباح تركت باريس دون أن أعوج على أحد من أصابى فيها . وكنت بذلك سعيد النفس راضى الضمير ، لأنى لم أنظر نظرة ولم أقل كلة ولم أخط خطوة إلا في سبيلها . غير أنى وضعت فى صندوق البريد قبل أن أغادر المدينة رسالة قصيرة إلى چوليا تصلها عند هبوبها من النوم وما فيها غير هذه الكلمات : ولقد تبعتك من بعيد ، وكلا تك بعينى خفية ؛ ولم أستطع أن أفارقك قبل أن أراك حى الحانين عليك ورعاية الكلفين بك . ولقد كنت هناك ساعة فتحت الشباك عند منتصف الليل و تنهدت وأنت تنظرين إلى الكوكب . ولوكنت تكلمت لسمعت كلامى ؛ غير أنك تقرأين هذه السطور حينها أكون بعيداً عن باريس محولاً على جناح النوى إلى البلد القصى " . . . »

.

سِرْت النهار وسَرَيت الليل ذاهب اللب ، مستطار القلب ، مشرد الفكر ، لا أحس البرد ، ولا أجد الجوع ، ولا ألاحظ المسافة حتى بلغت (م) . . فكأ نى صحوت من حلم . وكأ نى لم أذهب إلى باريس، فوجدت صديق لوبس ينتظرني في ضيعة أبي، فكان وجوده جلاء لقلى من الهم وعزاء لنفسي من روعة البين ، إذ استطعت أن أبادله الحديث عن تلك التي أعجب بهـ ا وهام في حيها كما أعجبت وهمت . كنا ننام مماً في حجرة واحدة ، فكنا تقطع صدور ليالينا بالحديث عن هذه الظاهرة الإلهية والخاوقة الفاتنة . وكانت في رأى لويس خَلْقًا يَكْبُر في صدور النوابغ ويسمو فوق الطبيعة ، أمثال بياتريس حبيبة دانتي ، وإلينور حبيبة تاس، ولورًا حبيبة بترارك؛ أو مثل ثيتوريا كولونا التي جمت بين الشمروالحب والبطولة ، وغير هؤلاء بمن هبطن الأرض وجُزَّتها دون أن عسسها أو يقفن ما إلا ريبًا يفان بمض الميون البصيرة ، ويسبين بعض القاوب الكبيرة ، ويوحين إلى نفوس الصطفين الأخيار حقيقة الخـاود وسر الوجود وطموح المظمة . على أن لويس لم يستطع أن يرفع حبه لها إلى مستوى إعجابه بها ، لأن قلبه الرقيق المدنف قد شفلته في زمن باكر فتاة يتيمة من أهله ،حلاها الله بالجمال والأدب ، كما أخلاها من الأهل والنشب. وكان حديث قلبه ومَرَاد أمانيه أن يتزوج منها ويميش معها في هدوء المزلة ودعة الخول في بيت صغير على هضاب شمييري . ولكن الفاقة التي هاضت جناح الحبيبين قمدت بهما عما يبغيان ، فلم يتمديا حدود الصداقة البائسة صنا بأهلهما على الخصاصة والموز ، وإشفاقًا على أولادهما من عاقبة الشقاء وورائة البؤس . ولم يمض بضع سنين حتى لحقت الفتاة بربها مفجوعة بحبها ، فريسة للخذلان والوحدة ؟ وعهدى سها أنضر زهرة في روض الحيـاة مسما الفقر والضر فصوَّحها وأذواها ، ورأيُ عيني^(١) وجهها تشرق فيه لمة من أثر الشباب النضر ، وتلوح عليه تلك السمة التي يطبعها الشقاء على الوجوم المروفة المحتسبة (٢). وكان قد ذهب ضوء عينها قبل ذهاب حبيمًا من فرط الاستعبار وطول الانتظار في الأسي والشك . ولقد لقيتها مرة وأنا عائد من إيطاليا تقودها أختما الصغيرة في شوارع شبیری . فلما ممت صوتی انکفاً (ا) لونها وانسرقت قواها ، وتحسست بيدها شيئا تتحمل عليمه مخافة السةوط ، ثم قالت لى : عفواً ومعذرة 1 إن ذلك حدث لأنى تمودت كالصمت هذا الصوت أن أسمر مجانبه صوتاً آخر . وارحتاه لك أيها الفتاة ! إنك تسمعن الآن صوت حبيبك في السهاء!.

⁽١) أَى كُنت أَرى وجهها دائمًا على هذه الحال

⁽٢) العروقة: الصابرة

⁽٣) انكفأ لونها: تنبر

ماكان أطول الشهرين اللذين قضيتهما بميداً عما على الرغم منى ومما في الضيمة أو في المدينية انتظاراً لموعد اللقاء بها في باريس!! لقد استنفدت أثناء الثلاثة الأشهر المنصرمة كل مارصد لى أبى من مال ، وأمدتني له أمي من معونة ؛ واستمنت عمال أصمابي على أداء القروض التي ألجأني إلى عقدها السرف والميسر والأسفار ، فلم يعد في وسمى احتيال شيء من المال أتبلغ به إلى باريس ، وأعيش عليه هناك ركحا من الزمن ولو في صيق وعزلة . فاضطررت إلى انتظار يناير وهو موعد القسط الرابع من مرتبي الذي أجراء على أبي ، والوقت الذي تموَّد عمي الننيَّ الجامد ، وعمتي البارة الحازمة أن مرضخا (١) إلى شيئًا من مالميا ، ورجوت أن يتجمع في يدي من هذه الموارد ستمائة فرنك أو ثمانمائة تمكنني من الإقامة بباريس بضمة شهور . ولم أعد أشعر بمض الفضاضة من عيش الكفاف لأنسمادة نفسي وراحة حياتي تجمعتا في حبي . فلو أن لى ما في العالم من رزق ومال لبذلته راضياً في شراء لحظة من نهار أرجو أن أمضيها معها ثم شغلت أيام الانتظار بالفكر

⁽١) رضخ له: أعطاه تليلا

فها والكتابة إلها وفعلت هي كذلك . فكنا نجلس كل يوم بعد الهبوب من النوم كل في غرفته يكتب إلى الآخر فلا يمر وم دون أن تتقابل رسائلنا وأفكارنا في الطريق فتتساءل وتتجاوب وتمتزج دون أن ينقطع سيلها أوتجم خيلها يوماً واحداً . فلم يكن في الحقيقة بيننا غير فراق ساعات من المساء والليل . على أنني كنت أملاً ها هي أيضاً بالذوع إليها والتفكر فيها ، وأضرب حولى نطاقاً من رسائلها أنشرها على مكتبي ، وأنثرها على سريرى ، وأحفظها عن ظهر قلب ؛ ثم أقرأ على نفسي منها الفقرَ الغزلية المؤثرة مقلداً في القراءة صوتها ولهجتها وحركتها ونظرتها ، ثم أرد عليها بصوتى ولهجتي فينسني لي مذلك أن أخدع نفسي وأوهما أن حضورها مبي حق لاشك فيه . حتى إذا اقتح الحجرة على زائر أوخادم أحس كانه انتزعها مني أوطردها عني . وأخرج إلى النزهة في الجبال والمروج الحافة من حول النهر ومعي رسالة الصباح الواردة منها ، ثم أجلس لقراءتها مرات فوق الصخور أو على شاطئ النهر أو فو ق قطع الجليد، وكلا قرأتها مرة تكشُّف لى الكتاب عن كلة أو لهجة ندَّت عني لأول مرة . وأنذكر أني كنت أتجه دامًا في جولاتي نحو الشمال عن غير قصد . كا نُماكل خطوة أخطوها نحو باريس تدنيني منهـا وتقلل من تلك الشقة

البميدة التي تفصل بيننا . وكثيراً ما كنت ألج في المسير وأممن في طريق باريس على هذه النيـة حتى يستحيل المضي ويتحتم الرجوع، فينشب في نفسي عراك شديد قبل أن أقتنع بالمودة. هناك أرسل طرفي الباكي إلى الناحية التي تظلها من الأفق ، ثم أعود أدراجي ثقيل الخطى بطيء الحركة . ولشدما كنت أغيط الغربان السابحة في الضباب إلى جهة الشمال على أجنعتها الموقرَة بالثلج! وماكان آلم لنفسي وأمَضّ لفؤادي أن أرى المركبات دارجة على طريق باريس ! وما كان أرضاني أن أنزل عن شبابي الباطل إلى هذا الشيخ العاطل الذي ينظر إلىَّ من باب الركبة على أن أذهب في طريقه ويعود في طريقي ! آه ! ما كان أطول أيام ديسمبر ويناير على قصرها ! إن الساعة الوحيدة التي كنت أهنأً فها من بين تلك الساعات هي التي كنت أسمع فيها وأنا في غرفتي خطى ساعى البريد وصوته . حينئذ أفتح الشباك وأطلم فأراه في أقصى الشارع مملوء اليدين بالرسائل يوزعها على الخادمات ثم يقف أمام كل يبت هنيهة ينتظر أن يخرجن إليه بالأجر . وكم من مرة لمنت هؤلاء النسوة الساذجات على تلكُّمُنَّ وحرصهن على أن يمددن النقود في مد الساعي قطمة قطمة . وقبل أن يقر ع الساعي باب منزلنا كان يرانى واففاً على العتبة خافق القلب فارغ الصبر فيأخذ في تصفح العناوين وعيناى تسبقانه إلى اكتشاف الرسالة الأنيقة ذات الورق الحولندى والخط الإنجليزى حتى أجدها فأتناولها واليد مضطربة والمفاصل مرتهكة والدين عاشية والقلب واجف . ثم أخفيها تحت ثيابى خافة أن تراها أى فترتاب في هذه المكاتبة المستمرة ، وأهرب بها في غرفتى فأوصد بابها على ، ثم آخذ في تلاوتها وأنا آمن . ولا تسل عما ذرفته فوق هذه الأوراق من عبرات وما طبعته عليها من تُبل ! ولقد فتحت بمد سنين هذا المجلد من الرسائل فوجدت واأسفاه كثيراً من الكلمات قد محته شفتاى فاستبهمت معانى الجل . وكثيراً منها خلطه الدمع أو عبثت بورقه نشوة الطرب !

٥٢

وبعد الغداء كنت أصعد إلى غرفتى العليا فأعيد قراءة رسالتها ثم آخذ فى الرد عليها . و تلك كانت أطيب ساعات النهار فى نفسى وأسماها : كنت آخذ أربعة أدراج من الورق الهولندى الرقيق الكبير ، فأبدأ الكتابة من أول طرفها الأعلى إلى آخر طرفها الأسفل حتى لا أترك فيها فراغاً . ثم أعود فأدبج الهوامش وأطرز ما بين السطور حتى لا أدع فيها بياضاً . أملا هذه

الصحائف كل صباح ثم أشعر أنها أضيق من أن تسع خواطرى الفائضة الضطرة ، وأعجز من أن تصور عواطني التشمبة الملتهبة . لم يكن لتلك الرسائل ابتداء ولا انتهاء ولاوسط ولاقو اعد ولا شيء مما تواضع الناس عليه في الإنشاء ، وإنما كان فيها نفس عارية عردة أمام نفس أخرى تشرح لها جهد الطاقة ما يجيش فيها من شمور ويعتلج بهـا من عواطف . تشرحه بهذه اللفــة الناقصة القاصرة: لفة الناس التي لم تخلق لشرح الغامض وتفسير المهم، وإنما هى علامات ناقصة وكلمات فارغة وجمل جوفاء وألفاظ باردة ، تصهرها نفوسنا بقوتها وحيتها واضطرامها صهر المدن الآبي على النار ، ثم تصوغ منها لغة أثيرية مبهمة متقدة كألسنة اللب نفهمها نحن ولا يفهمها الناس لأنها من نفوسنا وذواتنا . أبداً لا ينقطع تدفق نفسي ولا يبرد . فلو أن السماء كانت صحيفة وأرادني الله على أن أرقم فوقها حبي لما وسمت هذه الصحيفة كل ما أردده في نفسي وما أريد أن أقوله ! لقد كنت أفرغ من عنمة الصحائف الأربع وكا في لم أقل شيئًا ! والحق أني لم أقل شيئًا ، فإن الإحاطة باللانهاية والتعبير عنها محال وباطل.

لا أزيم أن هــــذه الـــكتب من طرائف الــكلام وتوادر الفكر وروائم الفن ، وإنما أزع أنها لذتني وأفادتني ومهدت لى سبيل الكتابة حينها عرضت فيما بمد لأحوال الناس ولأخلاقهم بالوصف والتحليل فنها ألفت من كتب ونظمت من شمر . فاستطمت أن أرسم الفروق الدقيقة وأصور المنازع المختلفة وأعبر عما يمتري النفس من فتور وسقم ، أو حمية وحدَّة . لقــدكنت أجاهدعلى غير قصدفقر هذه اللغة وجمودها ومرودها لأنى مضطر إلى استمالها مادمت لا أعرف لغة السماء. وكانت الجهود الخارقة التي بذلتها في إخضاعها وتليينها وبسطها ولَمُّها وتصويفها وتلوينها ، وإلهاب عبارتها أو إطفائها ، ثم الحاجة إلى التعبير بالكامات عن أخص العواطف وأدقها ، وأسمى الخواطر وأرقها ، وعن نوازى القلب الجموح وعفة الهوى المحتشم ، وإلى تصوير النظرات والهيئات والزفرات والصمت والنحول وفناء القلب في عبادة حبيبه النائي؛ كل هذه الجهود وإن كسرت القلم في أناملي كما تكسر الآلة المصية في مد الفنان ، مكنت لهذا القلم الكسير أن يجد أحيانًا الكلمة أو الحيلة أو العبارة أو الصرخة التي يحث عنها

ليظهر الخني ويبرز العقلي ويصور المستحيل.

لذلك أتذكر أنى كنت كلا فرغت من رسالة نهضت من كرسي كا في خارج من ممركة شعواء ، خصوى فيها الكلمات والبراعة والطرس ، فأفتح الشباك وأهرض وجعى لنسيم الشتاء البارد ليجفف ما ارْفَضٌ عليه من العرق.

۵ و

على أن رسائلي لم تكن مقصورة على ضرخات القلب وأنات الحب ، وإنما كانت في الغالب من الأمر صلوات وأدعية ، وتأملات وتعزية ، وأملا في المستقبل ورجاء في الله . لأن هذا الحب المحروم بطبيعته من الملذات التي تميت القلب بإحياء الحواس ، كان قد فجر ثانية في نفسي ينابيع الشفقة التي عَوَّرتها الشهوات السافلة ، أو كدرتها النزعات الباطلة . وكثيراً ما كانت هذه الماطفة الدنيا تتغلب على المواطف السامية الطاهرة ، فأجهد أن أرفع معى المدنيا تتغلب على المواطف السامية الطاهرة ، فأجهد أن أرفع معى أبي ملكوت السموات هذه النفس الثانية المعذبة المجدبة على أجنحة غيلتي الوثابة الطموح . فكنت أتحدث في هذه الرسائل عن الله ، وهو وحده القادر بكاله على أن يخلق هذا الجال الفاتن وتلك المبقرية الرائمة وهذا الحنان المحض ؟ وهو وحده القوى

على أن يحتوى أملنا الواسع ويستوعب حبنا العظيم ؛ وأعزى چوليا عن تضحيتنا مهذه السعادة الدنيوية الكاملة على مذبح الواجب ؛ وأرفع لها من قيمة هذه التضحية عند الله الذي يثيب على الخير ويكافئ على الفضيلة ؛ وأبارك على نزاهة حبنا اليائس وطهارة قلبنا الكسير، مادام هذا الشقاء الزائل يؤدينا إلى السمادة الخالدة والنعيم المقيم مع الأبرار في عِلْمين . حتى لقد بلغ بي الأمر أن عددتني وعددتها في زمرة السمداء ، ورحت أرتل أناشيد التفويض والتسليم كما شاء الحب المذرى وقضى به الواجب المقدس . وتوسلت إلى چوليا ألا تألم وألا تفكر في آلاي . وأظهرت لهما الجلادة على المكروه والاحتقار لتلك السمادة الدنيوية التي كانت تجرى على لساني دون أن يتأثر بها وجداني ؟ وأريَّمها أنى تجردت من منازع النــاس ، وتخلصت من طبائع الحيوان ، وأصبحت في روحية الأملاك ، وسموت إلى مسبح الأفلاك، حتى لا يخامرهاشك في أنني آلم من حبها أو نادم على عبادتها ؛ ورجوت منها أن تنشد في ظلال الكنيسة وفي إيمان المسيح إله الدموع ورمز الألم ما وجدَّه أنا نفسي في عهد صباي من الرجاء القريب والمزاء المفرّج والبشاشة الروّحة . ثم ألفت لهـا أدعية ضارعة قوية تصمد إلى السماء صمود اللهب لا يحجبه

حاجب ولا تعبث به ربح . وطلبت إليها أن تتاوها في ساعات معينة من الليل والنهار حتى أتلوها معها ، فتجتمع خواطر نا وترتفع معاً في ساعة واحدة وفي صلاة واحدة ثم أبلل كل هذا بالدموع ، فتترك الدموع أثرها بين السطور . فيكون هذا الأثر أنطق من السطور نفسها وأبلغ .

ثم كنت أذهب خفية إلى البريد فألق به نخاع عظمامى وسواد قلبي ثم أعود رافه النفس خفيف الجسم كأعا ألقيت حملا كان يفدح قلى ويمخط حشاى .

و ۵

ومهما يكن من جهودى المستمرة في هذه المركة الناشبة بيني وبين اللغة الماجزة المصية ، وإعناقي القريحة وهي ماتهبة فتية ، لتُلهب رسائلي بنار قلي الكاوية ، ولتجتاز نفسي مسكوية على القرطاس هذه المسافة النائية ، فإني لم أبلغ مدى چوليا في هذه السبيل ، ولم أستطع أن أجرى معها إلى هذه الغاية . فإن الجلة الواحدة من رسائلها كانت أبلغ دلالة وأقوى أثراً من صفحاتي المثمان . فلقد تدنيك من نفسها حتى تجدد أنفاسها في الحلالت ، وترى نظراتها في السطور ، وتحس حرارة شفتها في الجل . فلا تفقد شيئاً فى نقل الشعور إلى اللفظ. ومن عادة هذا النقل أن يخمد الشعور ويدوى العاطفة فى قلم الرجل. ولكن المرأة ليس لها أسلوب، فهى لذلك تحسن القول فى كل وجه، وتبلغ به فى كل غرض. وما الأسلوب إلا ثوب، والنفس عارية على لسان المرأة أو فى يدها؛ فالعبارة عنها تنبعث من العاطفة عارية حمى الزهرة وليت بنفسها ثم تعجب لأنها ولدت، وأعجب من عجها أنها قبل أن تعرف نفسها قد عُبدت!

۵٦

ولا تسلنى عن رسائلها كيف كانت. فاذا عسى أن أقول لك عن الضرّم المتقد ، والضوء الشاحب ، والألوان المتغيرة ، واللهجات المؤثرة ، والنار المختلطة بالنقاء اختلاط الومض والصفاء في حجر الماس ، أو الحمية والطهر على جبين الفتاة المحبة ؟ وكيف أحدثك عن السذاجة القوية ، والمنافاة الثرَّة ، واليقظة الفاجئة ، والأغانى الشادية ؟ وبماذا أصف لك الحب الحزين الذي تشمر به شمورك بالرجع الخافت في آخر اللحن الرخيم ، وتلك الملاطفة بالكات التي تحسمها على جبينك كما تحس أنفاس الأم المداعبة على جبهة طفلها الباسم ، وتلك المدهدة اللذيذة بالصوت الخافت ،

والجل المنمنمة التى تغمرك بالنور والسرور والعطر والدعة ، وتنقلك بالمقاطع المنومة على رُودٍ وسهل حتى تصل بك إلى راحة الحب وغفوة النفس ، وتقف عند قبلة الوداع التى طبعتها شفتها على الصحيفة فتقطفها فى سكون وصمت ؟ .

لقد وجدت ثانية هذه الرسائل وتصفحها ورقة ورقة . وجدتها بعد موتها وقد جمتها ورتبتها وغلفتها يد صديقة تقية ، وقرنت كل كتاب إلى جواه ابتداء من أول رسالة إلى آخر كلة لفظتها الحتضرة وخطتها يد أرعشها الموت وسندها الحب . فأعدت قراءتها ثم أحرقتها وأنا دامع المين دامى الفؤاد ، بعد أن غلقت الأبواب كأنى أهم بجريمة ، وبعد أن نازعت اللهب عشرين مرة على كل صيفة أكل نصفها لأعيد قراءتها قبل أن يأتى عليها . . . !! تسألنى لماذا أحرقتها ؟ أحرقتها لأن رمادها نفسه ما كانت تطيق حرارة الأرض فذريته في الهواء ، وبعثرته في حوالسهاء!!

٥٧

دنااليوم المنتظر ، وأصبحت أستطيع عَدَّ الساعات التي تفصلني عن چوليا . وكان المال الذي تجمَّع لي من كل الموارد لا يقوم

بنفقتي ثلاثة أشهر أو أربعة في باريس . فهزت الشفقة أبي وهي تنظر إلى شجني وهمي دون أن تعرف السبب ، فانتزعت من علبة جواهم ها خاتماً ركبت فيه ماسة كبيرة ، وهي وا أسفاه آخر ماأ بقاه حنانها على وإيثارها إياى من حلى شبامها اثم وضعتها خفية في مدى وهي تقول باكية : « إني ليؤلمني كما يؤلمك يا رفائيل أن أرى شبابك يذويه الفراغ وتبليه البطالة بين خود القربة وذهول الحقول. لقد كنت أرجو أن المواهب التي جملك الله مها وباركتها فيك منذ الصغر ترفعك في الناس وتفتح لك طريق الثروة والسؤدد ، ما دام الفقر الذي نصارعه وندافعه لا يمكننا من أن نفتحه نحن لك . والله لم يشأ بمدُ أن يهي لنا هذا الأمر ؛ ونحن خاضمون لأمره راضون محكمه ، لا مخامرنا الشك في عدله ، ولا يدركنا القنوط من فضله ، فكل أعماله لحكمة . غير أبي أراك استسلمت بعسد الجهود المخفقة إلى المم فنال منك وغلب عليك . عالج الحظ مرة أخرى . سافريا ولدى ما دامت هـذه الأرض تحرق قدميك ، وعش في باريس حيناً من الدهر ، واقرع أنواب السراة من أصدقائنا الأقدمين في عزة وتحفظ ، وأظهر مواهبك التي حبتك بها الطبيعة وقواها فيك الممل . ومن المحال أن ينفل رجال الحكومة الجديدة عن تقريب الأكفاء من

الشبان ليخدموا هؤلاء الأمراء (١) الذين أعادهم الله إلينا ، فيؤيدوا ملكهم ويزينوا حكهم . إن أباك على فقره كابد الأهوال في تربية أطفاله الستة ، وتحمل مضض الحياة القروية ، ولكنه لم يطأطئ من إشرافه ، ولم يهبط من سامى درجته . وبقية أهلك كامم بررة عسنون ولكنهم لا يريدون أن يفهموا أن لا بد من الهواء للتنفس ، ومن الممل للنفس الشابة النشيطة . دو نك آخر حلية من حلي وقد عاهدت أى ألا أخلى عنها إلا في الفروة القاهرة ، فذها وبعها لملها تساعدك على أن تطيل الإقامة في باريس بضمة أسايع . إنها آخر شاهد من شواهد حناني أطرحه في سممة القدر ، وعسى أن يعود إليك بالسمادة والربح ، لأني طرحت معها القدر ، وعسى أن يعود إليك بالسمادة والربح ، لأني طرحت معها كل ما أملك لك من صلاة وحنان وعناية » .

فتناولت الخاتم واضعاً على يد أى قبلة ، وساكباً على الماسة دممة ، ثم أنفقتها واأسفاه لافى طلب الحظوة عند الرؤساء والأمراء الذين عموا عنى لفقرى وخولى ، وإنما أنفقتها فى ثلاثة أشهر من حياة الوجدان والقلب ، وكل يوم منها يساوى قرونا من الجد والمظمة . لقد كانت لى هذه الماسة القدسة كلؤ لؤة كليو بطرة ذابت فى كأس حياتى فأروتنى حيناً من الدهر بالحب والسمادة .

⁽١) تربد عودة اللكية بعد سقوط نابليون .

على أننى غيرت من طبعى وأصلحت من نفسى احتراماً لكثرة الضحايا التى بذلها أبى المسكينة، وتنفيذاً الفكرة التى جمعت كل أفكارى واستوعبت كل أمانى ، وهى أن أرى الحبيبة وأطيل الإقامة بجانبها ما استطمت . ولا يتسنى ذلك إلا بقبض الكف و تضييق النفقة . فأصبحت دقيق الحساب كن الأنامل شديد الحرص على ما أملك من ذهب قليل . وخيل إلى أن كل درم أنفقه إنما هو ساعة من هنائى تمر ، و نقطة من حياتى تضيع . واعتزمت أن أحيا حياة روسو على الإعدام أو الإقتار ، فأقطع مما أنفق في الأبهة واللباس والطمام ما أبذله في إسماد قلبي وإرضاء حيى .

ومع ذلك ما كنت خالياً من رَوْح الأمل، فقد كان فى مر بُحوى أن أستفيد من قريحتى لهواى ، وأستخدم مواهبى فى تحقيق مناى . فنى ثلاثة الأشهر المنصرمة أخذت نفسى بقول الشعر فى ساعات الأرق ، فوقع لى منه طائفة صالحة من القصائد الغزلية والخيالية جمتها فى ديوان ثم نقلت منه نسخة بخط جبل، وقرأت بعضه على أبى، وهوسديد الحكم دقيق النظر فاستحسنه،

وهر صنته على بعض صحابتى فحفظوه واستنسخوه . فغلفت هذا السكنز الشعرى بفلاف أخضر ، وهو لون الفأل الحسن والرجاء الصالح ، وأخفيته عن أى عافة أن يتألم شعورها التق النق العفيف من بعض مراثيه التي نحوت فيها منحى الجاهليمين لا منحى المسيحيين . وكان معقد رجائى أن رقة هذه الأشعار وما فيها من الحمية الوثابة والمانى الخلابة ، تغرى بها أحد الطباعين الأذكياء فيشتريها ، أو يطبعهاعلى نفقته شم يتركها لذوق الجمهور ، وهولاشك واجد فيها ما يستهويه من أسلوب طلى جديد نبت فى الفابات وتفجر من الينابيع ، فيكون لى من وراء إقباله عليها نباهة فى الاسم وسعة فى الثروة .

09

لم يكن يشغل بالى أصر السكنى فى باريس، لأن أحد صحابتى وهو الكنت الشاب (ف) . . قد عاد من رحلته منذ قليل ، وعزم أن يقضى فيها الشتاء والربيع ، وقد عرض على أن أساكنه فى طابق أرضى من قصر ريشيليو الفخم فى شارع (توف سنت أوجستين) وهو عليم بحقيقة أمرى ، واقف على دخيلة سرى ، لأن بينى وبينه رسائل متصلة لا تكاد تنقطع . فكتبت إليه

كتاب تقدمة إلى چوليا ليعرف روح روحي ويىلم مىني عبادتي إن لم أقل هذياني لهذه المرأة . وما هي إلا الزيارة الأولى حتى فهمها حق الفهم وشاطرني الإعجاب بها والميل إليها. ومضى يصف لي في رسائله ما يشمر به من الإجلال والإشفاق لهذه الفتاة الكاسفة الملقة بين الحياة والموت لايمسكها إلاما تجدلى من الهوى المذرى والحب الدخيل. ولم يَفْتُرعن التحدث عمهـا إلىَّ كما يتحدث عن منحة من منح الله منَّ مهاعليَّ نوراً لميني وسروراً لقلي ، وسبباً من أسباب المجد يرفعني فوق الإنسانية درجات . ولما اقتنع بطهارة هوانا وشرف علاقتنا اعتبر حبنا فضيلة ، فلم بجــد غضاضة في أن يكون موضع سرنا ونقطة اتصالنا . وأخذت چوليا تصفه بصدق الوفاء إلى حتى تؤكد بيننا عقدة الصداقة مدلا من توهينها بسخف الغيرة . وكان كل منهما يستمجل قدومي ، وما يعلم أحد غيرصديقي (ڤ) . . تلك الأسباب الخفية التي حالت بيني و بين القدوم إلى الآن. ولكنه على الرغم من إخلاصه إلى وحَدَبه عَلَى وإيثاره إياى منذعرفته إلى يوم فقدته لم يكن قادراً يومئذعلى تذليل هذه المقبة وتفريج هذه الكربة. فإن أمه قد أنفقت جل ما تمك في تربيته تربية تلائم بيئته ودرجته، وزودته عابقي منه في رحلته التي رحلها إلى أقطار أوروبا . ثم عاد مثقلا بالدين فما في وسمه إلا أن يقدم إلىَّ ركناً من مسكنه الذي تحملت أسرته بأجرته .

سافرت من ما كون في مركبة صفيرة حقيرة مجرها جواد واحد يغير في كل قرية . وهي من النوع الذي يسير بين ليون وباريس لينقل البنائين والعال من أهل مربونيه وأوڤرني ، ومن أصامهم الوني من الراجلين، أو أدركهم الوجي من الجند الساكين فيرفهون عن أنفسهم بركومها مرحلة بأجر زهيد . ركبت هذه العجلة دون أن أستشعر خجلا أوأحس ألما من ابتذالها وخشونتها. ولو أنى قطمت الطريق حافيًا على الثاج لما شمرت أبدا بضمة في مكانتي ولا بنقص في سمادتي ، لأني أوفر مذلك ديناراً أو دينارين أشترى بهما أياماً من حياة النبطة والنعيم . وصلت باب باريس وما شمرت بلغوب السير ولا وعثاء الطريق. وكان الليل حالك الجلباب والمطر دائم النسكاب والجو قارس البرودة . فحمات حقيبتي على كتني ، وذهبت أطرق باب المسكن المتواضع على الكنت (ڤ) . . فلقيته في انتظاري ، وما وقع نظره على حتى عانقني عناقاً طويلا ، ولقيني لقاء جميلا ، واندفع يقص على أخبارها وأنا أستفهمه وأستميده وأستزيده لا أفتر عن ذلك ولا أمل. وفي الليلة نفسها صممت أن أراها . فاتفقنا على أن نزورها (ڤ) . . ويعلن إلها فدومي وبمكث عندهاحتي ينصرف السامرون وتخلو إلى نفسها ، فيأتى إلى ف قهوة مجاورة فيذهب بى إليها . ثم فكرت بعد ما دبرت هذا كله أن أجفف ثيابى على المدفأة ، وأسدرمتى على المائدة ، وأرتدى حلة نظيفة لا تكون سبباً في إخجالها أمام أصحامها .

وفى الساعة الحادية عشرة خرجت أنا وصديق فسرنا على أقدامنا حتى وقفنا تحت شبا كهافوجدنا لدى الباب الاثمر كبات منظرات ، وصمد (ف) . . وذهبت أنظره فى القهوة المهودة . ما كان أثقل الانتظار وأطول الزمن ! ويا كثرة ما لمنت هؤلاء الزائرين الخلين الذين أرادوا أن يقتلوا ساعات من الفراغ فقتلو اغير عامدين ساعات من الحناء يترقبها قلبان حبيبان ! ثم ظهر الكنت عامدين ساعات من الحناء يترقبها قلبان حبيبان ! ثم ظهر الكنت (ف) . . فاندفعت أمشى على أثره حتى بلغ بى الباب فتركنى وصعدت .

٦.

إن أعَمَّرُ ألف سنة فلن أنسى هذه اللحظة ولا هذا النظر!! لقد كانت واقفة فى النور ، مرفقها على رخام الدفأة ، وقدها الممشوق وكتفاها وجانب وجهها ينعكس عليها الضوء فتتراءى فى المرآة ، ووجهها متجه إلى الباب ، وعيناها محدقتان فى الدهايز المظلم الذي يتقدم البهو، ورأسها قدامتد قليلا وانحى إلى جانب:
هيئة من يحاول أن يمز بالسمع وقع خطوات تقترب وكانت ترتدى
سيلابا(() من الحرير الأسود مزدان الحواشى بالمخرَّم (الدنتلا)
لايشرق فى ظلام هذا الثوب إلا كتفاها و جيدُها ووجهها . وكان
من أثر انعكاس الموقد فى المرآة ومنافاة المصباح لحدها من فوق
المدفأة ويقظة الانتظار وقلة الاصطبار ، أن انتشر فوق عياها
رونق الشباب وبهجة الحياة ، فكا عا غير الحب هيئها وبدل
صورتها .

كان أول ما انفرجت عنه شفتاى أن صحت صيحة الفرح والنبطة إذ رأيتها أوفر حياة وأوفى جالا وأسمى كمالا منها أيام كانت تتقلب في شمس سقوا وتمرح تحت سمائها الضاحية الجميلة . وحاولت هي أن تنمنم ببمض الكانات حين رأ تني فاضطر بت شفتاها وما استطاعت . فخررت على قدمها وألصقت في بالبساط ثم رفعت جبيني لأنظر إليها وأطمئن عليها مخافة أن أكون في حلم . فوضعت إحدى يديها على شعرى المرتعد واستندت بالأخرى على زوية الرخامة ، وجثت هي أيضاً أملى على ركبتها ، نتخاطب بالنظرات فلا تكفي ، و نتاس الكلات فلا نجد . لقد انمقدت

⁽١) السلاب بالسكسر ثوب الحداد والحزن .

ألسنتنا من فرط السرور ، واضطربت أعصابنا من شدة التأثر ، فبقيناصامتين لا لغة إلاهذا الصمت ، ولاحركة إلاهذا السكوت. فأما سجودها فلئه السعادة . وكاتما تنطق هذه الهيئة قائلة : «إنهما يتساهمان الحب بالقلب ، ويتساقبان الهوى بالنظر ، ولكن بينهما شبح الموت وحِجاز الواجب ، فهمات أن يتماتها ! »

11

لاأدرى كم دقيقة لبثناعلى هذه الحال، ولا كم سؤال وجواب وعبرة وفرحة تطارحناها بالشفاه وتجاذبناها بالميون و تبادلناها بالوجوه ! لقد أصابتنا السمادة بالصم والبكم والسكون، وانحمى من حولنا الزمن بأسره، حتى سممنا طرقا على الباب، وأقداما تصمد على السلم فنهضنا، وأخذت هي مكانها من الكنبة، وجلست أنا في الجهة المقابلة، منستراً بالظلام لأخنى احمرار وجنتي واخضلال جفوني. ودخل النرفة رجل متقدم السوت شديد الهيبة وقور الهيئة نبيل الطلمة مشرق الديباجة يخطو خطوات الهيئة حتى دنا من الكنبة فقبل يدجوليا قبلة أوية . كان ذلك الزائر الأستاذ بونال. ولاأذم عيئه لأنه أفاتني من نشوتي وأعادني

من ذهولى ، بل أحمده لأنه صد النظرة الأولى فى الساعة التى يثمل فيها القلب من رحيق الحب، ويذهب رشاد المقل فى ضلال الهوى . لقد كانت ساعة دخوله من الساعات التى تحتاج فيها النفس إلى ذلك التلج الذى يلقيه أمثال هذا الحكيم على لهيب الحواس فتستعيد صادق عنها، وتسترد ما ذهب من حزمها.

75

عرفتنى چوليا إلى السيد بونال ، وحرفته أبى صاحب الأشمار التى قرأها . فدهش لحداثة سنى ، وقابلنى بشى من الإغضاء والتسامح ، وأقبل على الفتاة يناقلها الحديث بذلك التبسط الأبوى الذى يكون فى شيخ استفاضت شهرته بالنبوغ ، وأشرقت نفسه بتقدم السن . جاء يلتمس من جانب هذه الفتاة شماعاً من الجمال يضى به عينه ، وساعات من السمر المذب يختم بها يومه . كان صوته هادئا عميقاً ، لأنه يصدر عن قلبه وينقل عن شموره : وكان حديثه مرسلاً طليقاً ، لأنه يترجم عن فكر استرخى ليستجم ؛ وكانت نبرات الشرف الصميم تتمثل فى لهجته ، ودلائل الخاق وكانت نبرات الشرف الصميم تتمثل فى لهجته ، ودلائل الخاق العظيم ترتسم على جبهته . وامتدينهما نقس الحديث ، وأوشكت الساعة أن تؤذن بانتصاف الليل ، فرأيت من الواجب أن أخرج

أولاً حتى لا أدع لهذا الصديق سبيلاً إلى الريبة في هذه الألفة القوية، وهو في هذا البيت أو تق منى صلة وأممى منزلة. خرجت وما نلت جزاء على هذا الانتظار المحرق والسفر المرهق إلا نظرة وصمتا . على أننى نلت رؤيتها وحملت صورتها، وتأكدت أنى سأراها كل يوم، وليس هذا بالشيء اليسير . خرجت على وجهى فهمت طويلا على أطورة باريس ، وبي من حى السمادة ورعدتها ما بالمرجل الفائر ، فكشفت صدرى وفتحت في لنفحات النسيم الندئ عسى أن يطنى حرارة قلي ويهدى ثائر أعصابي . ثم عدت إلى مسكني فوجدت صديق (ف) . . يغط في النوم منذ عدت إلى مسكني فوجدت صديق (ف) . . يغط في النوم منذ ساعات طويلة . وبت أنا أعالج النوم وأغلقه في اطبأن لي نافره عين تبلج الصبح وملائت أصوات الباعة شوارع المدينة .

75

كانت هذه الأيام أملا أيام حياتى . لأنها لم تَمدُغير فكرة طويت عليها أحناء الصدر كما تُطوى على المسك نا فجته خافة أن يتعرض للريح فتتبخر منه قطرة . كنت أستيقظ من نومى عند تباشير الصباح فأفتتح نهارى بكتابة رسالة ضافية إلى جوليا أستعيد فيها حديث البارحة والرأس مستريح والأعصاب هادئة ، فأعقب

عليه ، وأتناول ما سنح لى من الأفكار بعد تركها فأضيفه إليه . فكانت تتلق هذه الرسالة لدى يقظتما كأنما تكملة لحديث الليل باتت تسمها بصوت خافض وهي نائة . ثم تكتب الجواب فيصل إلى قبل باوغ الشمس حد الظهيرة . وبذلك كانت تعرد جو أنحير وبهدأ قلي من ثائرة الليل. ولسكن الشوق إلى لقاء المساء وحديثه لا يليث أن تتحرك عوامله ، فأحاول تسكينها بالشواغل وتعليلها بالني. وأرغمت نفسي على المطالمة والعمل والدرس ساعات طوالاً، أربد بذلك أن أقتل الوقت الذي يكر بني ما بين فراق جوليا إلى ساعة لقائما ، وأهذب نفسي وأكلها من أجلها لا من أجل غيرها ، فإني أحب ألا تخجل وماً ما من تفضيلها إياى على سواي ، وأن أولئك الأعلام الذين ينشون نَديَّها ، ويبصرونني أحياناً في بهوها ، واقفا بجانب المدفأة ساكتاً ساكناً كأني أبو الهول أو تمثال التأمل، مجدون إذا ما وجهوا إلى الكلام عن ضاتحت سكوني الرهيب وحيائي المريب نفساً وذكاوة وأملاً ومستقبلاً . ثم ثارت فى نفسى أحاديث المنى ووساوس الأحلام فتخيلت أنى بنيت خطط المجد، وأدركت خطير الساعي، وغالبت الدهم في الميادين الظاهرة . فيت وأصبحت كأني ورقة من أوراق الشحر التزعيما عاصفة من حديقة أبي ثم سمت بها فوق متون المواء ، ورأيت چوليا قريرة المين إذ ترانى على البمدأصارع الدهر وأناصل الناس وأسمو فى القوة والمطمة والفضيلة ، فتفتخر بأنها أول من رأى مخايل ذلك فى ودلائله على .

35

كل ذلك فضلا عن المطلة القاهرة والفكرة الواحدة التي شغلتني عن كل فكرة ، والفقر المدقع الذي غل يدي عن كل مشغلة ، والحبس الذي اعتقلت فيه عن رضا وطواعية ، قضي على أن أحيا حياة درس وتنقيب ومطالمة . فكنت أقضى عامة اليوم جالساً إلى منضدة صغيرة تنيرها كوة مطلة على الفناء ، ويدفئها موقد من الفخار المدهون ؛ ويسترتلك المنضدة وذلك الكرسي عن عيون السراة من زوار صديق حجاب ساتر . وكانت تتجاوب في أفق ذلك الفناء الواسع أصداء العربات ، وتنمكس فيه أضواء الشمس وهي تصارع الضباب الزاحف في شوار عباريس . وكنت أرى فيه الحين بعد الحين صبيًّا جيلاً في الثامنة أو الماشرة من عمره يلمب فيه ، وهو ان البواب ، فذكِّرني رأسه الشبيه رأس المَلَكُ المُوجِعِ ، وشــعره ذو الطرة الجمدة السابلة على الجمة ، وسحنته الدالة على النجامة والحساسة ، عميا الأطفال البررة من

أهل بلدي . فلا ريب أن أسرته من قرية مجاورة لقرية أبي عدا عليها الفقر فلاذت منه بباريس . وكان من أمر هذا الفلام أن اتصل الود بيني وبينه من طول ما يراني من النافذة التي فوق مسكن أمه . فحل نفسه في خدمتي وكفاني كل ما احتاج جلبه من الخارج من غير أجر . فكان يأتي إلى كل صباح بطمام اليوم من جين وخيز وفاكهة ، فأنال منه عند الحاجة فوق المكتب بين الكتب المبمثرة والصحف المنشّرة . وكان للغلام كلب أسود نسبه أحد النازلين في الفندق ، فكانا متلازمين لا يفترقال حتى أنس الكاب بي واطائ إلى وألفني إلَّهُ الصاحبه. فكنت تراهما أكثر اليوم نائمين أو لاعبين بين قدى على الحصير تحت المنضدة. فلما تركت باريس في مؤتنف الزمن أخذت الكاب معي واحتفظت به أعواماً طوالاً تذكاراً مخلصاً وفيا لهذا العهد، عهد الاعتكاف والخلوة . ثم فقدته و بكيته عام ١٨٢٠ وأنا أجتاز غابات (بونتين) بين روما وتراسين . أما الفلام فقد كبر واحترف صناعة الحفر وتعاطاها في ليون موفقاً فيها . ولما رنَّ صيتي في مسمعه ، ووصل اسمى إلى مصنعه ، جاء يزورني . وما كان أشد سروره برؤية صديقه وأمض حزنه على فقد كليه ١ مسكين قلب ان آدم ! كل ما يحبه مرة يصبح ضرورة له ، سواء في ذلك ما قل

وما جل ! والدموع التي يُدرضا على ضياع مملكة ، هي من نوع الدمو ع التي يُدرفها على فقد حيوان !!

۹٥

في ألوف الساعات التي قضيتها ممتقلا بين الموقد والححاب والنافذة والصي والكاب ، أعدت قراءة ماكتب الأقدمون من علم وأدب ، ما عدا أولئك الشعراء الذين أتخمونا بشعرهم في المدرسة فلم تستطع عيوننا الكليلة أن ترى منه إلا الوزن والطول والقصر . ويكون من أثر ذلك أن يقوم بنفس الطفل اشمئزاز با كر ُمُذوى فيها أنضر ما أنبتته القرائح البشرية من زهر وعطر . قرأت كل الفلاسفة والخطباء والمؤرخين في لغاتهم ، واختصصت بإعجابي وإيثاري من اجتمعت فيه هذه الملكات الثلاث: الحكاية والأداء والبحث، أو الحدّث والحديث والمنزى. وكان السبق والقدم في ذلك لتوسيديد وتاسيت ، ثم لمكياڤلي الخبير البصير بأدواء الشعوب والمالك ، ثم لشيشرون ذلك الوعاء الرنان الذي يحتوي كل شيء : من المبرات السافحة من جفون الرجل والزوج والأب والصديق ، إلى النكبات الجائحة التي ضعضعت روما وزعزعت بناء العالم ، إلى ما أصابه هو من عنت

الدهم وصروف القدر . فشيشرون أشبه بمرشّح استقرت فيه هذه الحياة ثم راقت وانجلت عن فلسفة عالية وحكمة صافية ، تتراءى في جوانبها نفسه الكبيرة فياضة بالبلاغة والحكمة والرحمة والانسجام . وكنت أظنه قبل الآن ثرثاراً أجوف يضع الممانى الضئيلة في الجل الطويلة ، فأدركت الآن خطأى وضلال حكمى . إنه الرجل الإلهى في القدماء بعد أفلاطون . أسلوبه أبرع الأساليب في كل اللغات . تحسبه هزيلًا لأنه ملفف بإحكام ودقة ، فإذا نضوت عنه هذه اللفائف بدت لك النفس الكبيرة التي فإذا تضوت عنه هذه اللفائف بدت لك النفس الكبيرة التي أدقت الحس وأحسنت الفهم وأجادت القول في كل ما يحس

77

أما تاسبت فلم أنازع هواى فى الميل إليه والتمصب له . لقد فضلته حتى على توسيديد . وهو ديستين التاريخ ، لأن توسيديد أقوى على عرض الصور منه على إحيائها وتمثيلها . وتاسيت أولى أن يسمى مختصر الجنس البشرى لامؤرخه : حكايته رِدَّةُ الحادثة وصداها فى قلب رجل حر فاصل حساس ، والقشعر يرة التى يختلج لها جين قارئه لا تهز الجلد وحده ، وإنما تهز الجسم والنفس مماً .

حساسته أقوى من تأثره وتلك هي الشفقة ، وحكمه أقوى من انتقامه وذلك هو المدل ، وسخطه أقوى من غضبه وتلك هي الفضيلة . تمتزج روح القارئ بروح تأسيت وتتحد ، فينيه مهذه الصلة ويفخر بتلك القراة . فإذا أردتم أن تطهروا قلوب أبنائكم من رجس الجريمة ، وتحركوا في نفوسهم عوامل الفضيلة ، فأقر ثوهم تاسيت وغذوهم بأدبه . فإذا لم يصيروا بمدذلك أبطالا فاعلموا أنهم خلقوا بطبيعتهم فجاراً ، لأن الشعب الذي اتخذ من تاسيت إنجيلا لساسته سما فوق الشموب وشأى كل المالك . أما أنا فدين لهذا الكاتب لا بألياف لحى ، ولكن بأسباب كياني ونوازع نفسى. فإذا أصبح عصرنا الصعلوك المفلوك في عظمة عصره وفجيعته ، وأصبحت أنا أكرم ضمية في أكرم قضية ، فسأقول وأنا أريق بنفسي : ردوا شرف حياتي وشرف موتى للأستاذ لا التاميذ ، فإن تاسيت هو الذي عاش باسمي ومات في جسمي .

77

وأنا بالخطباء كذلك مولع . درستهم دراسة من يعد نفسه لخطابة الجماهير الصم : فهو يدرس أولامعازف الإنسانية ومطربيها أمشال ديمستين وشيشرون وميراو ، ولا سيا اللورد شاتام (١) أقربهم في رأيي لذوق العصر ، وأملكهم لأعنة القلب ، لأن خطابته الإلهامية الوجدانية أولى أن تسمى صرخة لاصوتاً . إنها تتمدى حدود الحفل وتتجاوز أغراض الزمن طائرة على أجنحة الشعر إلى عالم الحقيقة السامية والعواطف الباقية . إن شاتام يتلتى الحقيقة من يد الله فيجمل منها وراً للهدى ، وصواعق للجدل . ولكن وا أسفاه ، لم يبق منه إلا ما يق من فدياس في بريتون : أنقاض وأشلاء! على أن هذه البقايا المحطمة إذا أعاد بناءها الفكر أخرج منها للناس صوراً ساحرة من البلاغة .

لقد صورت لنفسى مثال ما بمث هـذه الروح في هؤلاء النوابغ من زمن وظروف وأهواء ومطامع و (فورَم)، ثم أخذت أكلم الجموع الحاشدة في نفسى، والأشباح الماثلة في خيالى، كما كان ديمستين يكلم أمواج البحر.

٦٨

قرأت لأول مرة في هذا المهدخطب(فكس) و (بِتُ)،

 ⁽١) الثورد شاتام (۱۰۰۸ — ۱۷۷۸) أحد رجالات إنجلترا ونوابنها في السياسة والحطابة والحسكم . وقد اكتسب ملكة البلاغة وقوة اللسن من كثرة ما قرأ من تماذج القدماء .

أما فكس فوجدته خطيباً سوقيا جدليا خلق للمعارضة لا للقول، ومحامياً ألدًا لحجاج وضع ضميره في صوته ، ودافع للشهرة قبل أن يدافع للحق . وأما بت فقدوجدته رجل الحكومة ، فكاياته عقود، وإشاراته عهود. وقداستطاع وحدهأن يمسك بلاده، حين تدهورت أوربا ، على دعائم من رصانة عقله ، وعماد من منانة خلقه . فبت كاد يكون ميراو لو لم يتميز الأول بالإنصاف والشاني بالتوثب . وقد أصبح هذان الرجلان منذ يومثذ أكبر ساسة العصر في عيني وأجلهم موقعاً من قلبي ، وإذا قست غيره عليهم وجدت (منتسكيو) علامة بحاثة وقياسيا حاذقا ، و (فناون) إلهيا خياليا يتعلق بخيوط الوم ويستمسك بحبال الهباء، وروسو طبيعيا ينقل عرب أحلامه أكثر بما ينقل عن إلهامه ، فهو في معاناة السليقة أقوى منه في معالجة الحقيقة . ووجدت لبوسويه لساناً من ذهب و نفساً من رياء وملق ، فاجتمع له من لسأنه وفؤاده وصفان متضادان في حضرة لويس الرابع عشر: استبداد أهل الدىن ، ومصانعة رجال البلاط .

انتقلت بطبيعة الحال من التاريخ والحطابة إلى السياسة ، فكان شغورى بذل القيد وفداحة النبر الذى رفع عنا منذ قليل بروال الإمبراطورية وفظائع النظام المسكرى الذى كنا نمانيها منذ طويل كان يدفعني إلى الحرية . ولكن ذكريات الأسرة اللكية وتأثيرات الصداقة ، والحال الألية التي كانت عليها الأسرة الملكية من الانتقال من المرش إلى المشنقة ، ومن المنني إلى العرش ، وأولئك الشيوخ الذين توجتهم الأرزاء كما توجتهم الآباء ، وأولئك الأمراء الذين يبعث فيهم حمية الشباب وحرارة المصاب روح الأمل في كل شيء ، كل ذلك حملني على الرغبة في التوفيق بين الحرية والملكية ، فوددت أن العرش التالد والحرية الطارفة يتصالحان في هذه المملكة ، فيتم للحكومة بذلك التوفيق نفوذ القدم و نفوذ الحدوث ، أو قوة الذكرى وقوة الأمل .

تلك كانت أمنية نفسى وأحاديث أحلاى فى ذلك المهد . ولكن الأيام ما فتلت تبدد جزءاً من هذا الحلم فى كل صباح حتى الحجلى عن هـ ذه الحقيقة المؤلمة ، وهى أن النظم القديمة لا تحمل الآراء الحديثة ، وأن الملكية والحرية لا يمكن أن يجمعهما ظل إلا بالمشادة ، وأن هذه المشادة تستنفد قوة الدولة ، وأن الملك سيظل دائًا مَنْهَما ، والحرية ستكون أبداً نَخُونة .

79

ثم عدوت هذه الدراسة العامة إلى دراسة أخرى شفلت

فراغى وغلبت على فكرى ، مع أنها بطبيعتها أجدب وأجف وأبرد وأبعد مراسة وأبعد من تلب فتى سكر بخمر الخيال والحب ، أعنى دراسة الاقتصاد السياسي أو علم ثراء الأم . وكان (ڤ) قد وجه إليه باله وأخلى له ذرعه ، فترى كل ما كتب عن هذا العالم في الإيطالية والإنجليزية والفرنسية مبعثراً على مناضده ورفوفه .

فمكفنا علىهذه الكتب نقرأها ونناقشها ونعلق عليها بماعن لنا فيها ، فصفَت قلو بنا إلى هذا العلم الذي كان بالأمس و لا يزال إلى أليوم يقرر من المبادئ أكثر مما يقرر من الحقائق، ويضع من المسائل أكثر مما يضع من الحلول . ووجدنا فيه فضلا عن ذلك موضوعا للحوار الدائم والحديث السلسل الذي تحضغه الألسينة ولا تشمر به الأفندة ، وتشتغل به القريحة دون أن تمياً به النفس، ويسمح لك وأنت تسرده أن تشعر بما وراء قلبك من فكرمضمر وخاطر مستتر . فالحديث عن هذا العالم كالحديث عن الألغاز والمميات ، يروقك أن تبحث عن حلها ولا يهمك أن تجد . ثم حسبتني بعد المطالمة والمناقشة والتمليق أستطيع أن أميز بعض أصول هذا الملم النظرية ، فإذا بي لا أستطيع الإِجابة عن شيء، وإذا بنريزة الوضوح في نفسي غير قانعة ولا راضية . فرميت بالكتب عند قدى وانتظرت النور . إن هذا الملم لم يزل في طوره الأول، وهو من العاوم التجريبية لا بدله من عصورتمر ودهور تتماقب. فالأعوام القليلة التي عاشها لم تبلغ به حد النضج ولم تضمن له قوة التأكيد. إنه يحتى ولاة الأمور ببعض القواعد التي تقيم أود النظام، وتشد أواخئ الصلات بين الأنام، وتضمن للأم الرخاء والإخاء والسلام.

V٠

تلك كانت شواغل أيلى ، وموضع فكرى واهتماى ، لا أرغب معها فى شىء ، ولا أطمع بعدها فى حاجة . وما كانت رغبتى فى تولى منصب من مناصب الدولة صادرة عن نفسى ولا مترجة عن هواى ، وإنما نشأت فى إطاعة لإرادة أى المسكينة ، وغافة أن أنفق ماستها دون أن ترتجع منها رجعة صالحة فى تحسين حالى وإصلاح أمرى .

وقد كان من المكن حينئذ أن يجدوا لى سفارة فأترك باريس، ويبوس في قصراً فأنجو من هذه النرفة الحقيرة ، لو لا أنى تماميت حتى لا أسمع وسوسة الثروة ، ووجدت السمادة الكاملة في أن أعيش في ظلاى على ذلك الشماع الذي لا يدركه الناس ينها هو يضىء ليلى ويشعله .

كانت سعادتي تشرق حيبًا تغرب الشمس ، فأتعشى عادة وحدى في غرفتي على قطمة من الخبز وتُدَّة من اللحم المسلوق متبَّلة بالبقدونس وشيء من سلطة البقول . ثم لا أشرب إلا الماء القراح توفيراً لمن النبيذ، فكنت أتكلف لهذا الساء الذي كان يكفيني ويكفى الكلب الذي ألفني عشرين صلديا. حتى إذا طممت استلقيت على سريرى استجاماً من الإعباء واختصاراً لساعات الليل التي لابدأن تمر قبل أن تحين ساعتي وتبتدي زيارتي ، وهي الساعات التي ينفقها الشباب في المسارح والمواخير كدأبي أيام كنت خليم العذار ، من الصبابة والممل . ثم أستيقظ في الساعة الحادية عشرة فألبس لباس فتي محتشم يرى في رشاقة قده ونضارة وجهه وتموج شعره غُنية عن الزينة : حــذاء نظيف ، ووشاح أبيض ، وحلة سوداء نقية من النبار مشدودة الأزرار إلى موضع البنيقة كحلل التلاميذ في العصور الوسطى، ثم معطف عسكري مرسل الثنايا على الكتف الأيسر يصون الثوب من دنس الطريق. ذلك كان لباسي ، وهوكما رأيت ساذج قاتم لا ينم على دخيلتي ، ولا يكشف عن حقيقتي ، ولا يشف عن سمة ولا ضيق ، وإنما يسمح لى أن أنتقل من خاوتي إلى جنتي دون أن أجذب الأبصار إلى ما تستملحه أو تستقبحه . ثم أقطع المسافة على قدى ، لأن أجرة المركبة تحرمني يوماً من حياتي . كنت أسير الهويني فوق الأقاريز وتحت ظلال الجُدرُ اتقاء لمطر السهاء ووحل الطريق، وحدراً من أن يتم قدر ردائي ووحل حداثي عن عيثى ماشياً على أنني ما كنت عجلان، لأني أعلم أن چوليا كانت تستقبل كل مساء أصحاب زوجها في البهو أو في الحجرة ، فكنت أفضل الانتظار ريبا تنصرف آخر مركبة من أمام البيت ، حتى لا ترتاب الميون في هذه الزيارة الليلة من فتى مجهول لفتاة جيلة ، وحتى لا يشاطرني الخليون كلاتها ونظراتها وهي مضطرة أن تمدل يين السامرين وأن تعم السمر . لقد كان يخيل إلى إذا ما جالستها في جماعة أن كل امرئ منهم يسلبني جزءاً من حضورها ، وسكون أهون على أحيانا ألا أراها من أن أراها من أن

٧١

كنت أنفد هذه الساعات وأنفقها فى الذهاب والإياب على جسر من جسور السين قبالة بيت چوليا . ولا تسانى كم مرة عددت ألواح هذا الجسر فى كل ليلة اولاكم قطمة من النقود النحاسية ألقيتها فى طبق السائل الكفيف الذى ألجأه الثلج أو

المطر إلى سورهذا الجسر القدكنت أرجو بفضل هذه النقود التي ترن في قلب هذا البائس أن يستحيب الله دمائي ومحقق رحائي فيعجل بانصراف زائر ثقيل يؤخر أوانسعادتي ويكدر صفاء للترب وكانت جوليا قد عرفت مني النفور والامتماض من رؤمة الأباعد عندها ، فاتفقنا على إشارة تدلني من بعيد على وجودالزائرين أو عدمهم. فإذا ما أغلقت مصراعي النافذة مماً علمت أن البهو غاص بالسامرين ؛ وإذا أغلقت مصراعاً وفتحت الآخر دلتني على وجود زائر أو اثنين لا يلبنان أن ينصرفا ؛ فإذا روَّح السُّمار وخلا السامر فتحت المصراعين وهصرت الستور ورأيتها من الشاطئ الآخر تجلس إلى منضدتها تقرأ أو تكتب منتظرة قدوى . فكان هذا النورالنبعث من النافذة قيد عياني لا أحول بصرى عنه ولا أرده. وكان على صَا لته وخفوته أسطع في عيني من الأنوار النبعثة من الشبايك والممايح والحوانيت والمركبات والقهوات. بلكانت هذه الأُضواء تفني و تَعتي من عيني فلا أرى مصباحا فوق الأرض ولاكوكياً تحت السماء، غير هذا الشباك الصغير المستدر رسل نوره إلى كمين تحدق في وتبحث عني في هذا الظلام، فتجذب إلىها أنظاري وأفكاري ونفسي .

إيه أيها الإنسان ! ما أغرب أمرك وأعجب حالك ! أحيانًا

يتسع أملك وينتشر هواك حتى يضيق عنهما البر والبحروالسهل والوعم، وأحياناً ينحصران ويتجمعان في نقطة صغيرة منيرة تلمع في صياب النهر ، وتسطع في خلال الأصواء الوهاجة في المدينة الصخابة المظيمة!! ولطالما ردّدت ذلك في نفسي وأنا أسير المويني فوق جسرى المظلم ! وكم طلبت إلى الله وأنا أراقب هذا النور البميد أن يطنئ مصابيح الأرض ويكوِّر نجوم السماء فلا يدع غيرهذا النور الضئيل، وهونجم حياتين وروح نفسين مرتبطتين. ولو أنه فعل لـكني هو في رأبي أن يضيءهذا الوجود وينير هذا المالم. ولـكن واأسفاه ! لقد رأيت هذا النور منذ يومئذ تخبو أضواؤه، وذلك الكوك الذي أشرق في حياتي بخفت لألاؤه، فخمد لذلك شبابي، وغشيت عيني ، وأظلم قلبي ا رأيت المسراعين يغلقان أعوامًا طوالا على ظلام الغرفة الحزينــة ، ثم رأيتهما يمودان فينفتحان بومامن الأيام فاطلمت لأرى منذا الذى استطاع أن يميش حيث كانت تميش . فرأيت في يوم من أبام الصيف على حافة هذا الشياك الذي يغمره النور ، وتزينه الزهور ، فتأة لا أعرفها قد حملت بين ذراعيهـا مولوداً تضاحكه وتناغيه وهي لا تدرى أنها ترتم وتلم فوق ضريح، وأن بسماتها تتحول في عين بمض المارين إلى دموع ، وأن هذه الحياة التي تحياها سخريةً

من الموت وهزؤ بالقدر! ثم تمودت أن أغشى هذا المكان بالليل، ولازلت إلى الآن أغشاه فأدنو من الحائط بخطى الخائف، وألمس ذلك الباب، وأجلس فوق المقمد الحجرى، وأنظر الأنوار، وأتسمع الأصوات، ثم أتصور أنى أرى مصباحها، وأسمع نبرات أصواتها، وأنى ذهبت فقرعت الباب، وأنها كانت تنتظرنى، وأنى صمدت إليها ودخلت عليها ا أوه ا! واها لك أيتها الذاكرة! أنعمة أنت من نم الجنة أم نقمة من نقم السعير ؟

..

ولكن عفواً يا صديقى ! سأعود بك إلى مساق حكايتى ما دمت تريد.

۷۲

كانت چوليا قد عرقت بي شيخها ثاني موم قدوى إلى باريس فلقيني لقاء الوالد لولده الفائب، لأنه عرف من قبل ماكان من تلاقينا في سقوا، وما تبع ذلك من عهد الأخوة و ثيق عرى المحبة بائتلاف الموى و السن والماطفة ؛ ووقف على ما تبادلناه كل موم من الرسائل، و تناقلناه كل ليلة من الأحديث ؛ وعلم نقاء حبنا الحارق الطبيعة على رغم الصلة الوثيقة والشباب اللجوج. ولقد كان

شنُله الشاغل وقلقه الشديدعلى سمادة ربيبته وسممتها وسلامتها ، وكان يخشى أن تخدعها النظرة الأولى فتهب قلبها لمن لا يحسن فهمه ولا يستحق عطفه . فلما قرأتْ عليه نبذاً من رسائل إليها قرَّ باله قليلا وسكن . ولكنه عندما رآني قرأ ولا بد سطور الإخلاص على عياى ، وتوسم عايل العفة في أسرار وجعى ، لأن اللسان رعا وصف الكذب ، وأما الوجه فلا يقدح في صدقه . نقدني الشيخ وفحصني بالمين القلقة والنظر المختلس ، فكلما أدام النظر وأكثرالسؤال تطلق وجهه وتفتحت عينه واطاأت نفسه ، ومال إلىَّ يلاطفني بالنظرات وهي أفضل وأجمل مرن الكلات في المقابلة الأولى . وكانت رغبتي الشديدة في نيل رضا الشيخ ، والحياء الطبيعي الذي ينال الشاب في مثل هذا الموقف ، وحضور چولیا بجانبی، کلذلك كان له أثر ظاهر في هيئتي الوديمة ووجنتي المحمرة ونظرتي الحبية ، فكان لسان حالى أفصح دلالة عنى من لسانى ، وأبين عن دخيلة نفسى من بيانى . فأخذالشيخ مدى وأقبل على يقول بلهجة الوالد الحنون : « خفض عليك جأشك يا سيدى فقد ظفرت في هذا المنزل بصداقتين مدلا من واحدة ؛ وما كان في الإمكان أن يوجد خير منــك أخاً لعو لما وولدًا لى . ثم قبلني وأخذ يتحدث إلىَّ كانُّه يعرفني منذ الطفولة حتى دقت الساعة العاشرة فأقبل خادم كهل فأخذ بيــــد الشيخ وانطلق ه على عادته كل ليلة إلى مخدعه.

٧٣

كانت شيخوخة هذا الرجل جميلة نبيلة ليس ورامها مطمع ولا مطمح غير ضان الدهر وأمان الند . كانت شيخوخة نريهة أبوية ، لا يقذى المين ولا يؤذى النفس أن تُرى مجانب هذا الشباب النضر . نم إنها أشبه بظلام الليل على وضح الصباح ولكنها ظلال حامية واقبة لا تُدوى هذا الشباب ولا تزرى بهذا الجال .

كانت له خا الشيخ الجميل ملامح مطردة منظمة كخطوط القطاعات الجانبية فى الأبنية الأثرية يدقيها الزمن قليلاً دون أن يفسدها ؛ ونظر وديع ثاقب لمينين زرقاوين عبث بهما الكلال والجهد فهما تنظران من وراء ضباب لطيف ؛ وفم رقيق كأنه نصف كلة ، ضاحك كبسمة الأب لأطفاله ؛ وشعر كزغب البعيم فى رخوصته وتكسره ، قد أشمل فيه الشيب طول الدرس وتقدم السن ؛ ويدان معروقتان بيضاوان كيدى تمثال سنيكا المرمىى وهو يجود بنفسه مودعاً بولين ؛ ووجه ظآن شاحب اللون

من طول ما كدعقله ، لآنجد فيه تفضناً ولا تضمراً ، لأن السنين عرقت عظمه وأذابت شحمه ، اللهم إلا أوردة زرقاء نازحة تناوى على صدغه الأسجح ؛ وجبين زاهر نحته الفكر وصقله الرأى فانمكست عليه من الموقد أضواء اللهب ، وهو آخر ما بقى من جال الرجل ؛ وخدر قاف البشرة شفاف اللون لأنه شاخ في ظلال البيت فلم تلفحه ربح ولم تسفعه شمس ؛ وكلام نضيج مختمر يرسله في جل مختصرة مشرقة دقيقة مرن عليها لطول ما عانى من اختيار الصور الكلامية لما يقول و يكتب . يقطع كلامه بالصمت إلى فقر منتظمة كا عا عهلها حتى تحرق من أذن السامع إلى ذهنه ، ثم يزجه بالدعابة الحلوة والهزل الرقيق تخفيفاً من ثقل الجد و دفعاً سامع السامع .

78

لم تمض بضمة أيام حتى أشربت عبة هذا الشيخ الظريف الكينس. ولو تنفس بى المعر إلى عهد الشيخوخة لما تمنيت إلا أن أكونه. غير أن شيئًا واحداً فيه يؤلم نفسى ويفت كبدى كالم رأيته. ذلك أنه يسير إلى الموت بخطى هادئة وهو لا يعتقد بالخلود ولا يؤمن بالبعث ، لأن طول عهده بدراسة العاوم الطبيعية عود

فكره ألا يحكم إلا بالحس وألا يصدق غير الواقع . فما لا يُحسَ لا يعترف بوجوده ، وما لا يُحْصر ولا يمد لا يقوم عنده الدليل على ثبوته . فالمادة والرقم هما فى رأيه السالم . . فإلهه الأعداد، ووحيه الظواهر ، وإنجيله الطبيعة ، وفضيلته الغريزة . وما علم أن الأعداد والظواهر والطبيعة والفضيلة ليست إلا رموزاً هيرغليفية على ستار الهيكل معناها المتفق عليه هو الألوهية . ذهن متوقد ذكى ولكنه عنود شرود . يسعد فى سلم العلوم عهارة وحذق ، حتى إذا بلغ الدرجة العليا التى تؤدى إلى الله وقف وحرن !

۷٥

وكذلك الشيخ لم يلبث أن صفا إلى وده وأقبل على وجهه، وتطوع أن يعطيني من صبح إلى صبح دروساً في العلوم العالية التي طيرت في الناس شهرته، وأوجبت الآن راحته. فكنت آتيه الحين بعد الحين في مكتبته صباحاً فأجد چوليا قد سبقتني إليها، فيكون لثلاثتنا منظر فادرمؤثر: شيخ جالس بين أكداس من الكتب العلمية والفلسفية التي استوعبت نتاج العقول و تحاد القرائح، واستنزفت أيامه في حل رموزها وفتح كنوزها ؛ وشاب واقف وراءه يقبس منه أتوارها، ويأخذ عنه أسرارها ؛ وفتاة

نضرة الشباب رائمة الجال عنل الفلسفة المثلية والحكمة العاشقة، وتؤدى واجب التلمذة للشيخ وواجب الزعملة للفق. فهي تحضر الكتب، وتقلب الصفحات، وتشير ببنانها الوردى الجليل إلى الفصول، فعلمت وفهمت في قليل من الأيام ما لم أعلمه وأفهمه في كثير من السنين. ولكن عاهات الهرم الملازمة كانت كثيراً ما تقطع هذه المحادثة، وتحرمنا هذه المدارسة.

٧٦

ولكنى واظبت على الحجى، في كل عشية أقفى هزيماً من الليل مع تلك التي أصبحت في نظرى هى الليل والنهار والدهر والخاود. كنت أغشى ينتها كما قدمت لك حين يخاو منتداها من السامرين . وكان يتفق أحيانا أن أمضى الساعات الطوال على الجسر أو فوق الرصيف وافغاً مرة وماشياً أخرى أنتظر انفراج المصراعين أحدهما أو كليهما عن ساعة اللقاء . وكأتي من موجة من أمواج (السين) البطيئة المتخاذلة شيمتها بنظرى حتى توارت في عيون الجسر حاملة معها أضواء القسر الخفاقة ، أو أنوار الشباييك البراقة !! وكم ساعة أو نصف ساعة دقها الكنائس القريبة والبعيدة فعددتها ثم لعنتها إما على بطئها وإما على سرعتها القد لله

كانت لى أيام سعد وأيام نحس . فرة كنت أدخل لا أتجشم الانتظار لحظة ، ولا أجد بجانبها إلا زوجها يقطع بالحديث الحلو ساعات الاستمداد للنوم ؛ ومرة لا أجد عندها إلا مسديقاً أو صديقين من أولئك الذين يقضون صدر الليل في سمر الصداقة وعضون مجزه في جدّل السياسة. وكانوا عادة من بين رجال البرلمان ومصاقيم خطبائه مشـل سوار وونال ومُنْبيه ولينبيه . وهذا الرجل من بين المماصرين قد استأثر بإجلالي وحي ، لأنه صورة ناطقة لفضائل القدماء وبلاغتهم . فهو رومانى القلب واللسان والمظهر لاينقصه إلاشمار الرومان ليكون شيشرون أوكنتون عصره . ولقد رأيت له صَوْرة إلى ، فهو يختصني أثناء السمر بنظرات حبيبة وكلمات عطوفة ؛ ثم أصبح منــذ اليوم أستاذي . فإذا كان لي فيها بعــد وطن خدمته أو منبر صمدته ، فإنحـا الفضل كل الفضل لما رسخ فى نفسى من وطنيته و بلاغته. كان هؤلاء العظاء يتعاقبون حول النضدة الصغيرة وجوليا مضطحمة على كندتها وأنا جالس في زاوية الغرفة بميداً عنهما لا أنطق محرف ولا أومى ً بطرف ، وإنما أفكر وأقدَّر وأوَّيد وأفند في نفسي . فإذا وُجه إلى الخطاب انفرجت شفتاي عن كلمات قليلة ألقبها بصوت خافت في حياء وحذر . حي كانت تعرض لى آراء أعتقدها تمام الاعتقاد فأجد حرجا شديدا فى بسطها أمام القوم ، لأنهم كانوا أعلى منى سنا وأسمى منزلة . واحترام السن والنبوغ والشهرة جزء من طبيعتى ، فشعاع الجد يخطف بصرى ، وبياض المشيب يمك قيادى ، ونباهة الاسم تستمبد نفسى . وكثيراً ما صغرت من قدرى وقلات من قيمتى بهذا الحياء، ولـكنى لم آسف على ذلك يوماً ما . إن شعورك بسمو غيرك وتفوقه غير لك فى شبيبتك وهممك ، لأنه يرفع فى نظرك المثل الأعلى الذى تطلبه ، والمطمح الأسمى الذى ترغبه . أما الشعور بالكال والاعتداد بالنفس فوقاحة على الطبيعة وإها فة الدهم . وإن يكن الشعور بسمو النير ضلالة ووها ، فإن أقل ما فيه أنه يعظم الإنسانيه ويكبرها ، بدل أن يحقرها ويصفرها .

لم يكترث لى أولئك الرجال فى بادى الأمر. وكنت أرام يميلون أحياناً على چوليا فيسألونها بصوت خافت عنى ، وكأنما أعجبهم منى وأدهشهم تلك السحنة المفكرة ، والهيئة المتواضمة المؤثرة ، فاقتر بوا منى وحولوا إلى بمض الخطاب فى رقة ولطف تشجيماً لى من طرف خنى على الخوض معهم فى غمار الحديث. فكنت أجاذبهم طرفا منه بالكلمات القليلة أعبر بها عن شكرى ثم أرتد سريماً إلى ظلايى وصمتى مخافة أن تنشط المحادثة بالأخذ والرد فتطول . وماكان هؤلاء فى نظرى إلا إطاراً للصورة . والصورة وحدها هى التىكانت مرى بصرى ومسترَق سممى ومتجه هواى .

۷۷

ولشد ما تبتهج نفسي ويحفق فؤادى حين أرام يخرجون وأسمم دروج المركبة الأخيرة تجاوز وصيد الفناء! حينئذ أخلو إليها، وأنشر نفسي بين يديها، وقد سجا الليل وسكنت الحركات وخشمت الأصوات فلاتسمع أحياناً إلا كر المجلات على الرصيف. أو غطيط البواب تحت السلم . تبدأ المناجاة بيننا باللحظ لا باللفظ كأنما يتولانا الدهش من السمادة . ثم أدو من النضدة التي جلست. إليها لتخيط عليها فيسقط المخيط من بين أناملها الذاهلة ، وتنفتح عينانا وتنفرج شفتانا وينبض قلبانا ويزدح الكلام على اللسان ازدحام الأمواج على الفرجة الضيقة ، فيتلكأ بادئ ذي بدء في الجريان فلا تسيل أفكارنا إلا قطرة قطرة . لا نستطيع أن نعجل في اختيار ما نفصل الحديث عنه من الأشياء المتراكمة المختلطة ، والآراء المتشاكِمَة المرتبطة ، فيتفق أحيانًا أن نظل صامتين من حرج الموقف وفيضان القلب بالقول دون أن يجد متنفساً ولا

مغيضًا . ثم يأخذ الكلام في التتابع والانثيال رويداً رويداً كظل النهامة يسبق الوابل الهتون . ثم يتشقق الحديث بمضه من بعض حتى يمب عبامه فنرسل الكلام في وقت واحد، فيخرج مختلطاً مضطرباً لاتعرف له نظاماً ولاجواباً ولا نتيجة. لقد كان كل منا يسابق الآخر إلى التعبير عن عاطفة مشتركة، ويظن أنه هو الذي سبق إلى إحساس هذه العاطفة منذ حديث الليل أو رسالة الصباح؟ ولكن هذا الفيضان الصاخب الذي كان ينتهي بنا إلى الحجل أو الضعك كانت فورته تسكن آخر الأمر، ثم يعقبه سقاط الحديث الحادئ نمطر به الفضاء و نكشف به عن أغوار القاب . ذلك كان انسكاب نفس في نفس ، وتبادل طبيمة وطبيمة ، واستحالتها فيَّ واستحالتي فها ، عما بيننا من اتصال متبادل في الحياة والحس والفكر . أبداً لا تجد مثلينا مخلوقين عفيق الطرف نزيعي الفكر يتصون كل منهما عن الإصحار بقلبه والإعلان عرب حبه أمام الآخر . على أن نفسينا كانتا عاريتين لايسترهما حجاب ولايحجهما نقاب. ومع ذلك ظلتا طاهرتين كالنور يطهر كل شيءولا يدنس شيئًا. وماكان موضوع الحديث غير هـ ذا الحب العفيف الذي يطهر نفوسنا كلاصهر جسومنا ، ذلك الحب الذي يستمر تجدده بفضل طهارته ونقائه دون أن يتغير نوره في النفس، ولاسروره فى القلب ، ولا بهاؤه فى العين ؛ فهو لا ينفك زهمة نضرة وريحانة عطرة ونشوة خالصة لأننا أبداً لا نقطف عُرته .

٧٨

ظهر هذا الحب وعلن في كل صورة من الصور التي مكن الله بها النفوس من أن تتمارف وتنا لف. فن نظرة تنمكس فيها نفوسنا و تتردد، إلى غمضة تنطبق على صورنا فلا تتبدد، ومن سقم باد إلى هذيان متصل، ومن زفرة عرقة إلى آهة صارخة، ومن صمت طويل شامل إلى كلام دافق لا ينقطع مدده، ولا ينتهى أمده، يقطع النفس و يجفف الريق و يتحرك به اللسان دون أن تسمعه الآذان، ثم هو بعد ذلك لاشى، غير المعجز عن تصوير

كنا كثيراً ما نحدث الساعات الطوال بصوت منخفض والمرفق على المنضدة إزاء المرفق، والوجه بجانب الوجه، والبصر غائب في البصر، ونحن نظن أن المحادثة لم تدم أكثر من رجع النفس أو لمح البصر، ونعجب العجب كله أن يسرع زماننا بمقدار ما يسرع كلامنا وأن تفاجئنا الساعة بدقات الوداع! كانت تلك الأحاديث تدور تارة على الفروق الطفيفة بين طبيعتنا وآرائنا،

والمشابه القوية بين رغباتنا وأهو اثنا ؛ وتارة على اعترافاتنا الخجولة نعبر عنها بأنات القلب الكسيرة ، ولوعات الكبد القريحة ؛ وطوراً على اكتشافنا لتلك العواطف المتحدة التي تتجاوب في قلينا تجاوب الأصداء ، وتنمكس فيهما انعكاس الأضواء ، ثم ينتهى بنا الأمر إلى وهن الجلد وخور العزيمة متأثرين من ذلك الاتحاد العجيب ، باكين من ذلك الشمور الجليل بأننا نفس في صورتين ، وروح في جسمين !

۷9

وما كان أطيب للنفس أن نمود بالحديث في أكثر الليالى إلى ذكرى الأماكن والظروف والساعات التي درج فيها خرامنا وشب ، كما تنتثر لآلئ المقدمن جيد الفتاة فترجع أدراجها تلتقطها واحدة فواحدة والرأس خافض والمين محدَّقة 11. وماكنا تريد أن تمحى من ذاكر اتنا تلك الأمكنة ولا تلك الأزمنة مخافة أن يمحى معها شعورنا بتلك السعادة الخالصة والهناء المحض.

ذكر نا جبال سقوا ووادى شمبيرى وبحيرة بورچيه وما بين أولئك من شلالات وثلاجات وسيول ومروج وشجر ، وما نعمنا به فيها من لقاء وتعارف وتآلف وحب وسمر . ذكر نا ذلك وأعدناه وفصلناه دون أن نجد ثقلا فى إعادته ولا مللاً من تفصيله ،كأ تماكنا نحكى حديثاً لا يتعلق بنا ولا يتصل بحبنا . واها لك أيها القلب ! ما أكثر عجائبك وأبعد رغائبك ! إنك لجوج طموح لا يفوتك ممن تحب لحظة ولا لفظة ، ولا يخنى عليك منه معرفة ولا نكرة ، مع أن إينالك فى تقصيه تأجيج لنارك وتسمير لجواك!

۸٠

وفى بمض الأحايين كان الأسى يدم چوليا على ضرة فتتحرق صناوعها و تنهمر دموعها ، حزنا على ما أكابد جرًاها من عناه ووجد . فهى ترانى وقد قضى على هذا الموت المائل بينى وبينها ألا أجد فيها غير شبح للسعادة وظل للهناه إذا ضممت ذرامى عليه انمصى و تبدد . لقد كانت تتوجد و تتأوه و تنهم نفسها بأنها شغلت فؤادى بحب لا يدنيه من غبطة ولا يمده المسرة ، و تقول : و واشوقاه إلى الموت ! إنى أريد أن بمجل إلى وأنا شابة عبوبة ما دمت لا أستطيع أن أكون لك إلا حقيقة من مرارة الحب ، وخيالامن حلاوة النبطة . فأنا سراب فى يدك وغليل فى كبدك . ومن المحب أن يسوق القدر المنحة والمحنة والسكرة والحسرة و فى سلك واحد . ليقتلني الحب ولتمش أنت لتنم بحب يلائم طبمك ويناسب قلبك . إنى إذا مت أكون أقل شقاء منى إذا عشت شاعرة بأنى أحيا عوت سمادتك وشبابك ، وأنيم بالحياة بفضل ألمك وعذابك، فأجبتها وأناملي المرتجفة تموَّه عبراتها المسفوحة: ما أقبح ما تتحدثين عن هــذا النميم المقيم ! وما أسوأ ما تظنين بذلك الذي شرفه الله بأن يسرفك ويفهمك ويحبك !! ألا تعلمين أن لى من هذه المدامع الحارة التي يسكبها قلبك الآن على يدى بحراً من الحنان والنبطة أجد في ريه من اللذة والبهجة أضماف ما أجد في تلك اللذائد البهيمية السوقية من المسرات الأثيمة والمتَم العقيمة ؟ هل عَلِمْتني أو سَمِمْتني يوماً ما ولو في ساعات هذياتي أعتب على القدر في أن رفمني بك ولأجلك فوق مستوى البشر؟ إنما جملني القدر أعبد فيك الجمال الروحي الخيني المجسد، لا تلك المرأة التي تُضم وتُشم ثم تتصوح وتَدوى بين الأحضان الفانية . ألم تستطع تلك النار القدسية التي تتقد في قلى وجسمي أن تأتى على هذه الشهوات الباطلة والنزعات السافلة ؟ ألم تحولني تلك النار إلى لهب صاف كقلبك نتى كحبك ؟ أولى لك يا چوليا !! اتخذى من نفسك عن نفسك فكرة تكون أوفق لك وأليق بك . ولا يبكينُّك الألم الذي تظنين أنك أصبتني مه وجررته على ، فإني لا أحس ألما ولا أستشعر بدما ، ولا أجد في قلبي غير السمادة الفياضة والسرور الدائم والهدوء الشامل والنوم الذي لا يخالطه إلا طيفك . أنا أتألم ؟ لينني وفقت إلى هذا الألم ! فإنى كثيراً ما تمنيت أن أذوقه وأكابده لأجمل منه قد قرباناً على ما أولاني منك ولو لم يكن غير البكاء والحرمان . لأن الألم في سبيلك هو وحده الذي يستطيع أن يزيد في كأس هنائي المترعة قطرة . فكيف تسمين مثل هذا الألم ألماً وهو لذة ! لالا يا چوليا ! الحق أن الحياة على مثل هذا موت ، ولكنه موت سنين معدودة في هذه الدار الفائية ، ليتسني لنا الحياة السميدة في تلك الدار الباقية .

۸١

فصدقت ما قلت و نقمت به نفسها لأنه صدر منى عن اقتناع وصدق . ثم افترقنا وقد تزود كل منا من الألحاظ والألفاظ ما يغذى به عواطفه و يقوى به عزائمه ، على احتمال البعد طول اليوم . فلما بلفت الباب تطلمت فإذا هى عنية على حاجز الطنف بين الأزهار تشيعنى ببصرها . وظلت واقفة ما أمكنها من رؤيتى ضباب السين . ومضيت أنا كلا خطوت ثمانى خطوات تلفت فأرسل إليها نفسى الطائرة و وظرتى الحائرة و وفرتى المتقدة .

وكان يخيل إلى أنى مقسم موزّع: ففكرى ممها لايبرح، وجثمانى يسمير فاقد الإرادة بطىء الخطى ، يتلمس فى ظلام الشوارع المقفرة باب الفندق.

۸۲

على هذه الحال قضيت أشهر الشتاء السعيدة لا يكاد يختلف يوم عن يوم إلا عطالماتي المتنوعة وانفعالاتي المتجددة ، حتى التمعت تباشير الربيع على أعالى البيوت ، وانصاح بياض السماء في أرض باريس المظامة الرطبة . فسافر صديق (ڤ) إجابة لدعاء أهله ، وخلفني في النرفة وحدى بمد أن وعد بالرجوع مع الخريف. ونقد المالك أجرة السكن العامَ كله حتى لا يحرمني كرمَ عنايته وحسن ضيافته أثناء غيابه . فأورثني بمده كرباً ونمة ، وأعوزني من أستريح إليه بمكنون صدري وأناقله عن چوليا أطيب الحديث. ثم ورد على من أمي أن أبي رزئ في ماله وأصيب في رزقه فأعسر بعد يسر وأبأس بعد نعيم ، وأصبح المنزل الخصيب المضياف مبيط الإملاق والنُّدم ، فاضطر إلى إنقاص مرتبي إلى النصف حتى يستطيع ولو بشق النفس أن يعول ستة أطفال اخَر . وأخبر نني أن لامناص من إحدى اثنتين : إما أن أعجل فأ كسب لنفسي من طريق شريف ، وإما أن أعود إلى بيت الأسرة فأقاسمها قوتها وأعيش ممها عيش الكفاف والرضا . ثم كانت تهون على وقع هذا النبأ الفاجع بما تظهره لى من شدة العطف على ، وازدياد الشوق إلى ، وما تصوره لى من جمال الريف وبهجة الحقول ونضرة الزروع وهدوه المعيشة القروية .

ومما زاد الطين بلة والقلب علة أن نفراً من الأخدان الذين لبستهم في عهدي الخالي على موائد القبر ، وسابقتهم في ميادين اللهووالخر ، مسهم الضر وعضهم الفاقة فلقوني في باريس فذكروني مالهم على من يدسابقة، ورجوا أن أساعده من فضل أو أواسيهم من كفاف ، فبسطت لهم بدى بالمرف حتى سلبونى أكثر ما ادخرت . فلما أوشكت الراحة أن تصفر والكيس أن يفرغ ، . فكرت في ابتغاء الثروة من وراء الشهرة ، قنشب في نفسي عراك شديد بين الحياء والحب: فهذا يدفع وذاك بينع حتى تغلب الحب. فممدت ذات صباح إلى المخطوط ذي الغلاف الأخضر، وهو دیوان شعری ومناط أملی ، فوضمته تحت ثیابی وذهبت به أقدم رجلاوأؤخر أخرى إلى ناشركتب شهير وقع اختياري عليه دون غيره ، لأنه فضلا عن شهرته في عالم النشر أديب مذكور في عالم الأدب . فلما بلغت بانه وةف بي الحياء وصدني الخدل

فكدت أرجع أدراجي لولا أن تمثل لي وجه چوليا الجيل فشجعني على التقدم ودفعني إلى الدخول . فدخلت على السيد(د) . . . وهو رجل ماضج السن مجتمع الاشُدُّ، له دقة التاجر وسحنته، وإمجاز الحريص على الوقت ولهجته ، فلقيني لقاء جيلا وسألني عما أريد . فغمغمت بالكلام طويلا ودرت به حول الغرض حتى يفرخ روعي فأتبين وجوه القول. فلماملكت نفسي أخرجت من بين ثيابي نسخة الدوان ووضعتها بين مدمه يبدم تجفة ونفس خاشعة وقلت له : إني نظمت هـــذه القصائد وأود أن أنشر ها رجاة أن يكون لي من ورائها قليل من المجد ، وإلا مهدت في على الأقل السبيل إلى رجالات الأدب فأخطب ودهم وأكسب عطفهم. وسألته أن ينشرها على نفقته إذا رأى أن سيمو د عليه منها عائدة ، ويستفيد الناس من قراءتها فائدة . فابتسم الرجل ابتسامة تنيُّ عن النهكم والطيبة ، وتناول الديوان بإصبعين مرنتا على تصفح الكتب وتقليب الورق ، ثم وضعه على المنضدة وسألني المهلة عَانية أيام قبل أن يقطع الرأى فيه . فشكرته وانصرفت .

كان اليوم من هـذه الأيام النمانية يمر على وكأنه في طوله قرن . وكانت ثروتى وسممتى وأمل أمى وحبى وحياتى ومماتى قد تجممت كلها في يد هـذا الرجل . فتارة كنت أتمثله يقرأ هذه الأشعار وبه من النشوة والصبوة ما كان بي ساعة ألهمها وأنا في بلادى فوق قن الجبال أو على صفاف السيول ، فيجد فيها ما سكبت من عبرات عنى وحسرات نفسى وقطرات دى ، ثم تجمع من حوله صحابته من صفوة الأدباء فينشده هذه الأشعار فيطر بون منها ويصفقون لها ؛ وثارة يدركنى الخجل ويصيبنى الندم من عرضى هذه البضاعة المُزجاة على مثل هذا الرجل ، وكشفى عن عجزى وعوزى سمياً وراء أمل كاذب من الفوز قد يقول من المسرة والسعة إلى المذلة والضمة . ولكن الأمل كان يتغلب على اليأس ، وينبلج صبح الرجاء في ظلام النفس ، فتحدونى الأحلام وتقودنى الأجل .

۸۳

وفى اليوم النامن صمدت السلم إلى الناشر وأنامشرد الفكر مبلبل الحاطر . فلما بلغت الدرجة التي أمام الباب لبثت طويلاً لا أجرؤ على قرعه ، حتى خرج أحد الناس فتركه مفتوحاً فلم أجد بدا من الدخول . دخلت على الرجل فيانى وأجلسنى وأخذ يحث عن كتابى بين أكداس من الورق ثم قال : «لقد قرأت كتابك يا سيدى فوجدت له حظا من القريحة والذكاء ، ولكنه خال من

البحث والدرس . إنه لا يشبه شيئًا بما ينشر ويؤثر عن شعر اثنا . ولا أدرى من أبن أخذت هذا الأساوب واقتست هذه الآراء ونقلت تلك الصور التي لا تجرى على سَنَن القواعد المروفة ، ولا تدخل في باب من الأبواب المألوفة . على أنها واأسفاه سلسة عذة . فأعرض عن هذا التجديد الذي ينكره النوق الفرنسي ، واقرأ لفحول أدبنا أمثال دُليل وبارتى وميشور ورنوار وفنتان ممن يجلهم الشعب ويفخر بهم الأدب. تشبه بأحده إذا أحببت أن يمرفك إنسان أو يقرأ لك أحد. إنى إذا أشرت عليك بطبع هذا الدىوان أكون قد دلَّست عليك الرأي ، ولم أتحر ً لك وجوم النصح ؛ وإذا قمت أنا بطبعه خدمتك شر خدمة ، واتخذت عندك وغيدتها في ثيابي دون أن أحاول معارضة القدر أو مجادلة القضاء، فإنهما كانا يكلمانني بلسان هذا الرجل. ثم شكرته وحييته ونزات السلم وجفونى مخضلة بالدموع ، وأعضائي تكاد تتزا بل من الهم . وأقسم لو كان يدرى ذلك الرجل الطيب القلب الرقيق الشعور أن ذلك الشاب لم يأته مستجديا مالا ولاشهرة ، وإنما جاء وكتابه في يده ينشد الحب والحياة ، لما تردد في نشر هذا الكتاب ، ولما ارتجى من غير الله جزا، ولا صلة .

ثم عدت إلى غرفتي وأنا أتمثر في أذيال اليأس. فأنكر الصبي والكلب ما بي ، وعجبا إذ رأياني لأول مرة مكفهر الوجه طويل الصمت . ومضيت إلى الكانون فأوقدته ثم ألقيت فيه الديوان كله ورقة ورقة لا أستثني منه شيئًا . و لمَ أستثنى ؟ وهذا كله لم يستطعرأن ينيلني يوماً واحداً من أيام صفوى وحيي! وما يضرني أن تأكل النار فيما تأكل خلود اسمى، فإنى أرى الخلود في الحب لافي المجد. وفي ذلك اليوم خرجت عند إقبال الليل فبعت ماسة أمي المسكينة ، وكنت لا أزال محتفظًا مها رجاة أن أجد في شعرى فداء لها وغُنية عنها فأردها إليها صيحة سالمة . فلما كذب الرجاء وأخطأني رائد التو فيق دفعها إلى الجو هري، وقد أشبعتها بالقبل وبللتها بالدموع ، حتى رق قلب التاجر وتحقق مون حزنى البادي وعرتي المسكومة أن الماسة غير مسروقة . ولما نقدني الثلاثين ديناراً ثمنها تخازلت أناملي عن قبضها ، فتبددت على الأرض كأنها مكسب حرام. ولطالما وددت بسد ذلك بجدع الأنف لوأسترد هذه الماسة المزيزة ببذل أضاف أضمافها بماأملك من نفائس المال والحلي ثم أردها إلى أمي ، فإنها ضوء حمها ،

وقطعة من قلبها ، وآخر دمعة من عينها . آه ! ليت شعرى أيَّة إصبع تختمت بهذه الحلية ؟؟

۸٥

ورد الربيع مفضَّض السهاء مذهَّب الأرض منضور الجنبات مِسْكى النسيم، فامتلات حدائق التوياري بالتبطلين ذوى الدعة، وكثر خروجنا للاستراضة في مراتم الجال ، والاستراحة في منازم الطبيعة ، فكنت إذا أرسلت الطرف من فوق الجسور إلى ما وراء الأفق رأيت هضاب (فلوري) و (ماندون) و (سن كلو) تكسوهاالخضرةالتموجة ، وتشقها الخطوطالتعرحة ، فتستشعر نفسي الندم على أن فرطت في جانب الطبيعة ستة شهور . فإذا ما سجا الليل نزغ القمر وتكسرت أضواؤه الزُّهْر على أمواج النهر الفاترة ، وكشف في طرف السين عن دروب زاهرة ومناظر ساحرة يضل البصر في أبخرتها الكثيفة وظلالها الوريفة ، وتسير النفس وراء المين كرها مأخوذة بفاتن جالها . وكانت وجوه الحوانيت وخوارج الطنوف والشبابيك منطاة بأصص الأزهار يفغم السابلة عبيرُها الطيب وأريجها الشذي، والزهَّارات في زوايا الطرق وأفواه الجسور جالسات خلف أستار من النبت المزهر يحركن بأيديهن أصنات الريحان كأنما يردن أن يعطرن المدينة ، وموقد النار في غرفة چوليا قد ثحول إلى غيضة صغيرة من نبات الاشنة، والمناصد والموائد قد ازدانت بزهريات البنفسج والسوسن والورد وغير ذلك من أزاهير الربيع المسكينة التي خرجت من روضها ونزحت عن أرضها فكانت أشبه بمصافير السنونو أقصها النزق داراً من الدورثم أعياها الخروج ، فأخذت تدور من جانب إلى جانب ، وتتخبط من حائط إلى حائط ، وبنو الدار لا يدركون من دورانها وثورانها غير البشارة بقدوم أبريل الجليل ا

تضوع الطيب من هذه الرياحين والأزاهير فلا الخياشيم والقلوب ، فذكر الهنده المطور والصور تلك الطبيعة البهيجة والأودية الأربحة ، التى تساقينا فيها كروس الهوى مترعة صافية ، ونسمنا فيها بطيب الحياة الحلوية الراضية ؛ وقد كنانسيناها والأيام عابسة والسماء طامسة والجو قارس والأفق مغلق ، وأنا وهي جالسان في تلك الغرفة الضيقة لا نشعر بالوجود ، ولا نفكر في الناس ، ولا نذكر أن هناك سماء وشما وطبيعة غير ما يتصور كل منا في الآخر . فلما أقبلت أيام أبريل الجيلة ذكر تنا إياها ، وحركت في أنفسنا عوامل الوجد ، ودعتنا وأزعيتنا بذكراها ، وحركت في أنفسنا عوامل الوجد ، ودعتنا

بدافع النريزة إلى اجتلاء أنوارها واقتطاف أثمارها ، فى النابات والخلوات من أرباض باريس ، إذ نكون أدنى إلى الطبيمة وأقرب من الربيع ، فكان يخيل إلينا ونحن ننم مما بلذة الاستراضة فى غابات (فنتينبلو) و (قنسين) و (سن جرمان) و (قرساى) أنا وجدنا غاباتنا وأمواهنا من وديان الألب، أو على الأقل وجدنا شمساً كشمسها وظلاً كظلها ، وعرفنا فى حفيف الأغصان أنين هوائها .

17

وكان من أثر الربيع الذي رد إلى السهاء رونقها وصفاءها ، والزروع حياتها وعاءها، أن أعاد كذلك إلى چوليا بهجة القلب ومرح الصبي وجمال الشباب . فترقرق ماء الحياة في وجنتيها ، وتوى بريق الفتنة والجمال في عينيها ، وازداد كلامها خلابة ونحولها رقة ومشيها خفة ، وألهبتها محمى الحياة فتتا بعث كماتها ، وتسارعت حركاتها ، وبدا على جوارحها القلق ، فهى أبداً لا تسكن ولا تستقر . وكانت إذا أمسى المساء تركت الستائر مهمورة والنوافذ مفتوحة ، وأقبلت من لحظة إلى لحظة تطل من أحد الشبايك فتتسم طراءة الماء وأشعة القمر وعيير النسيم . فقات لها ذات

ليلة وهي على تلك الحال: ما أولانا أن نجمل لأنفسنا أعياداً من هذه الأيام السميدة! فإن الله لم مجمّل السموات ولم نرين الأرضين إلا للذاكرين الشاكرين من عباده ؛ ونحن أقوى الناس شعوراً ، وأجزلهم شكوراً ، فلا يُركو بنا أن نكون أول من عمى عن جاله ، وفرط في واجب أفضاله . فلننفيس مماً في هــذا الهو I. وذلك الضياء، ولنغص في ذلك الحيط الزاخر بالنبات والحياة الذي طبق الأرض في هــذه الساعة . هلم لنرى هل تنير ما عهدناه في أنفسنا من وقدة الحس وفيض الشعور وقوة الإدراك واضطرام العاطفة فوق جبال سڤوا أو على أمواج البحيرة . فقالت لى: أجلهم ا فإنا لن نشمر أكثر مما شمرنا ، ولن نتحابُّ أكثر بما تحايينا، ولكنا نشهد على سعادة قليينا رقعة من الأرض وبقمة من السماء غير تلك البقاع التي شهدت ذلك الحب ورأت تلك السمادة.

ثم شجمنا الشيخ على هذا التجوال فى النابات الخضرة والخائل النضرة من ضاحية باريس ، عسى أن يكون لنفحات الحقول، وملابسة الشمس، ورياضة الجسم، فى نقاء الهوا، وسكون الخلاء، أثر حسن فى تهدئة أعصاب جوليا وانشراح قلبها وانبلاج صدرها. فكنت أغدو عليها ساعة الظهيرة من كل نهار فأخرج

مها إلى الخلوات في مركبة مقفلة اتقاء للميون ودرءاً للظنون ، ولا ننزل منها إلا عند مداخل الغاب، أوعلى سفوح المضاب، أولدي أواب البساتين من ضواحي باريس .ثم نبحث في فلوري ومندون وسيقر وساتوري وفنسين عن الأماكن الهجورة التي وشتها بدالطبيعة بأفو اف الزهر ، وغشتها عنضور النبت ، وطهرت من أوضار النـاس وضوضاء الحياة ، اللهم إلا بمض الأطفال أو بعض النساء يشققن الأرض بأسلحتهن ليقلمن منها المندى، وإلا وعلة وجلة تأتى الحين بمدالحين ترعى، فإذا لمحتنا في العريش انطلقت عادية مذعورة . كنا نسير صامتين إما متعاقبين وإما متكاتفين ذراعها تحت إبطى . فاذا ما تكلمنا حلمنا الأحلام وتمنينا الأماني وتصفحنا وجوه المستقبل، ثم قطفنا مختلف الزهر فتبادلناه لغة، وصورناه عواطف ، وأودعناه ذكرياتنا ونظراتنا وزفراتنا وصاواتنا ،ثم احتفظنا 4 لنمود إليه إذاحُمُّ الفراق فنذكر 4 تلك الأحاديث المذمة والأماني الحلوة . ثم كنا نجلس في الظل على حافة الطريق فنفتح كتابًا نقرأ فيه فلا نستطيع أن نأتي على آخر الصفحة فنلقيه ونفضل عليه أن نقرأ في وجوهنا ما يختلف عليها من شتى المعانى وجم الصور . فإذا مسنا الجوع ذهبت إلى ما يجاورنا من الضياع فأحتلتُ شيئًا من اللبن والخبز الأسمر فأكلناه فوق العشب ثم صببنا فضلة الأقداح إلى النحل، و ترنا فتات الخبر إلى الطير. حتى إذا تضيَّفت الشمس إلى الغروب عدنا إلى صخب باريس وضوضائها ، فينقبض الصدر ويستوحش القلب ، فأبلغ چوليا يبتها وهى نشوى من بهجة اليوم ، وأرتد أنا إلى غرفتى الخالية منهوكا من النبطة متساقطا من الجذل ، فأضرب بيدى حوائطها الأربعة عسى أن تتصدع فتردً إلى ما سلبته من النور والطبيعة والحب ؛ ثم أوقد المصباح وأتعشى من غير شهوة وأقرأ من دون روية ؛ ثم أفزع إلى تعداد الساعات مترقباً حلول الساعة التي أدهب فيها إليها ، لأنم بالمثول بين يديها ، وأسأل الليل أن يسدعلى أحاديث النهار.

۸۷

كنا نميد اليوم ما بدأناه بالأمس من استراضة واستراحة . ولا تسل مما أحدثته بمديتي من السمات في جذوع الأشجار التي تفيأنها واستنشيت في ظلالها نسمة من الحياة ، أوشكة من الشمس ، أو نفحة من أريج الناب . سيرى المار هذه الأشجار دون أن يدرى أنها عند بعض الناس أعمدة لهيكل مقدس ، على الأرض عابدُه ، وفي السماء معبوده . همات أن أنكر ما حييت

هذه الأشجار! ولازلت إلى اليوم أزورها مرة أو مرتين فى كل ربيع . وإذا ما وقمت عيناى على الفأس تجذّ فروعها ، وتقضب جذوعها ، أحسست أنها تعمل فى لحى وتقطع من حشاى .

۸۸

على هضبة شاهقة من جنبات (سن كلود) تشرف على سهل (ایسی) و مجری السین وطریق قرسای کان مراحنا ومغدانا . فكنا نتمتع فوقها بملو القمة وسكون الوادى وهدوء الخــلاء ، ونتملي فوق ذلك بما يكتنف المكان من مروج وزروع وسفوح لا يكدر صفوها جلبة ، ولا يقظع سكونها حركة . وهنالك تتردد الأنفاس منتظمة في الصدر، وتتوارد الأصوات محددة واضحة على الأذن ، وتطير النفس طليقة مترامية في أفق الحياة . صمدنا إليه ذات صباح منشهر مايو والغابة يومئذ لاينشاها إلاالظباء الشوادن يثبن ويمرحن على مماشيها المقفرة الخلاء، وبعض حراس الصيد يجتازونها من حين إلى حين كالنقطة السوداء في أقصى الأفق. وكان مجلسنا تحت الشجرة السابعة التي تتم بها نصف الدائرة في ملتقي الطرق من الهضبة ، فوق أريكة طبيعية من العشب متكأها الشجرة وظُلَّتُها الأغصان . وكان الضحى نتى الهواء رفاف الأديم

والشمس فى سبائها الصافية تمد الهضبة الشجراء بأشتها المحرقة ، والطبيعة خرساء لا تلغو فيها لا غية ، فلا تسمع إلى نَثَارَ أوراق الشتاء الجافة المختلفة أسقطها نبض الحياة فى عروق الشجر لتنبت مكانها الأوراق الجديدة ، وإلا اصطفاق أجنحة الأطيار حول أعساشهن فى الأشجار ، وأرانينَ الذباب أعمله الضوء فهو يبدو ويحتنى زمراً كالنبار كلا تموج النبات المزهر .

۸٩

كان بين شبابنا وشباب العام وشباب اليوم اتحاد عبيب . وكان بين إحساسنا وبين هذا الضوء اللالاء ، وتلك الحرارة المستمة ، وذلك السكون المتقطع ، وهذه البهجة الشاملة ، توافق تام ، حتى حسبنا أنفسنا قد امترجنا بهذا المواء وهدنى السهاء ، واستحلنا إلى هذى الحياة وذلك المدوء ، واستولى كل على أخيه تمام الاستيلاء ، ووجد فى فكره وحسه الكفاية والفناء . وما كنا فى حاجة إلى الكايات نترجم بها عن أفئدتنا النابضة ، وعواطفنا الفائضة ، لأننا كنا أشبه بالإناء الطافح ؛ كلا ازداد فيضه ازداد ركوده . لم يبق فى قلبينا مكان لحس ولا موضع لاختلاجه ؛ على أنهما عظها حتى وسماكل شىء ، ولا شىء مما استوعباه يريد أن

يخرج. لذلك صمتنا حتى لَيْعْبِيك أن تسمع أنفاسنا تتردد.

لأأدرى كم ساعة لبثنا صامتين ساكنين تحت هذه السندانة قداعتمد كل منا رأسه بيده وقدمد رجليه فوق المشب الضاحي، ومدت الأفنان على جبينينا ظلها السجسج . إلا أنني حين رفعت رأسى كان الظل قد انسح عن ثوب جوليا وانبسط أمامنا فوق الخضرة . فنظرت إليها ورفعت هي أيضاً رأسها تنظر إلى كأنما دفعها إلى ذلك ما دفعني ، وكأنما حاولت الكلام فعيٌّ به لسانها فانفحرت بأكية. فقلت لها بصوت خافت متهافت مخافة أن أزيد في تأثرها ، أو أخرجها من تفكرها : م تبكين ؟ فقالت : من النبطة! ثم جرت على شفتيها ابتسامة حلوة كا جرت من عينها عبرات كانَّداء الربيع فوق الورد . وعاودت الكلام تقول : أجل أبكى من النبطة ! فإن هذا اليوم ، وهذه الساعة ، وهذا المكان الساكن الهادئ، وهذه الخلوة الصامتة ممك، وذلك التماثل الذي مزج نفسينا فجعلهما نفساً واحدة لا تفتقر إلى لغة ولا تختلف في شمور ، أكبر من أن تتحمله طبيعة بشرية يقتلها فرط السرور كما يقتلها فرط الألم ، وتأن لأنها لا تملك الأنين ، وتبكى لأنها لا تستطيع الشكر.

ثم سكتت هنيهة وعلت وجنتيها حمرة ونضرة ، فارتمد

جسمي خشية أن يأتي الموت ساعة تفتحها فيقطفها . ولكني اطيأ ننت حين نادتني بلهجة الجدوالمزم كأغا تريد أن تعلن إلى خبراً جديداً طال انتظاره. قالت: رفائيل! رفائيل! لقد صدقت أن الله موجود . فقلت لها : وما الذي قرر في نفسك اليوم هذا المني . أكثر من كل يوم ؟ فقالت : الحب ! نيم هو الحب الذي أشعر بسيوله الآن تتدفق في قلى هادرة فياضة . وما عهدت نفسي من قبل قد شمرت هذا الشعور القوى الرضى الماديُّ . كلا ! لم يعد في قلى موضع للشك ، فإن الينبوع الذي يفيض منه هذا النعيم على القلوب ليس من ينايع الأرض ، فلا يمتريه نضوب ولا يدركه عدم . فلا بد من إله ينبثق عنه هذا الحب الخالد ، وما حبنا إلا قطرة منه ، وسينتهي بنا الأمر إلى أن نختلط مماً مهـذا الحيط الإلهٰي الذي اغترفنا منه ، وما ذلك الحيط إلا الله . لقد رأيته وأدركته وفهمته في هذه اللحظة بفضل سمادتي وممونة غبطتي. هَا أنت يا رفائيل الذي أحبه ، ولا أنا التي تحمها ، وإنما هو الله الذي تعبده في وأعبده فيك، ويعبده كلانا في هذه العبرات التي نسكها من الفبطة الداعة والنميم المقيم . فلنمْتُ هــذه الأسماء الباطلة التي صمينا بها هذا الميل المتبادل بيننا . فليس بعد اليوم إلا اسم واحد يدل عليــه ويعبر عنه : ذلك الاسم هو الله ! ! وستكون الماطفة

التى تتولانا بمدذلك هى العبادة لا الحب. وستكون أنت صلاقى إلى الله لا معبودى ولا حبيبى . أفهمتنى يا رفائيل ؟ فقمت والقاب يستخفه نواز من الحمية والطرب ، فقبلنا الشجرة وباركنا عليها لأنها كانت مبيط هذا الوسى وموضع ذلك الإلهام ، ودعوناها بمد ذلك شجرة العبادة . ثم هبطنا منحدر سان كلود وعدنا فانفسنا فى ضوضاء باريس ، ورجمت إلى منزلها وقد عرفت ربها ، وغمرت بنوره قلبها ؛ ورجمت أنا مثاوج الصدر قرير المين لاهتدائها إلى هذا الضياء ، وظفرها من الله بهذا المزاء .

٩.

لم يحمل عن الماسة الأغيرة من حلى أمى نفقة الخروج كل يوم مع چوليا إلى ضواحى المدينة ، فأسرع إليه النفاد فى زمن يسير ، ولم يبق منه إلا عشر لويسيات . ولشدًّ ما أظلم فى عينى اليأس واستولى على قلبى الهم ، حين عددت فى المساء هذا الباقى الصئيل وعلمت أنى لاأنال به غير أيام ممدودات من أيام السرور! وما كان أشد خجلى لو بحت إلى حبيبتى بسر هذه الفاقة! ولو أنى فملت لأمدتنى بكل ما تملك وهو لا يفيض من راحتها، ولا يزيد على حاجتها ، وإذن يتضع حبى فى عينى وأنا أوثر أن أموت على

أن أحقر من شأنه أو أطأطئ من سموه. وكانت حياة القعود التي حييتها طول الشتاء في ظلام الغرفة ، وإدمان الدرس ، ولجاجة الهوى ، ومكابدة الأرق ، والوهن الذي أصاب قلبي الضميف من توقانه الدائم وفيضانه المستمر مدة عشرة أشهر ، قد أنحلت جثماني وضمضمت كياني ، فلم يبق وراء وجهي الضامر الشاحب غير لحيب يتأجيج من غير وقود لا يلبث أن يأكل بمضه ويخبو.

فلما رأت ذلك چوليا نشدتنى الله أن أعود إلى مسقط رأسى فأستروح نسيمه وأندوق نميمه ، وأن أبق على حياتى ولو على حساب حبى . ثم أرسلت إلى طبيعها الدكتور (ألّن) لتعزز وسيلة الحب بسلطان العلم . وذلك الطبيب أو بالحرى ذلك الصديق كان من رجال الحير وأهل السمت الذين يحملون إلى ما يزورون من أكواخ الفقراء بركه الدين و فور اليقين وعناه الأمل . أصابته على في القلب على أثر غرامه الحنى النق بامرأة من أجل نساء باريس ووجد نفسه في كفاف من الرزق يتسع لقضاء حاجاته وإسداء مبراته ، وهو من بعد رجل ورع عطوف نشيط عمول ، فقصر طبه على بعض أصابه وذوى المترة ثمن يعرف ومن لا يعرف . وصناعة الطب جيلة ما لم يشوهها الطمع ، شريفة ما لم يحقرها الحرص ؟ وهي ألصق الصناعات بإحساس الرجل وقلبه ، تبتدئ

بالطبع وسيلة من وسائل الرزق ، ثم تنتهي في غالب الأمر فضيلة من فضائل النفس . وقد أصبحت في اعتقاد هذا الطبيب أقوى من الفضيلة وأسمى من الواجب ، واستحالت في قلبه إلى هوى ملازم وشغف ملح بالتخفيف عن جسوم المرضى ، والترفيه عن نفوس البائسين. فيتماحل ينكشف مرالحياة ، وينتشر نورالله، وينبعث في النفوس المالكة جال الوجود وجلال الخلود حتى في سياق الموت. ولقد رأيته بمدسنين عوت ميتة الأخيارالبررة، بعد أن طال قيامه وقعوده على أسرَّة المحتضرين، فتهيأ لما وراض نفسه عليها . أثبته المرض في فراشه ستة شهور يمالج الروح ويكابد النزع ويَمد بمينيه السامات التي تفصله عن الأمدة . وكان على مؤخر سريره ساعة معلقة ، وبين مديه المشبوكتين على صدره صليب لا تفارقه عيناه لحظة . فإذا رهقه من الألم ما يضيق عنه طوقه طلب ممن حوله أن يدنوا الصليب من فمه فيفضى إليه بصلاته وشكاته . ثم انتهى أمره إلى أن رقد رقدة الخاود بين اخضرار الأمل واييضاض العمل ؛ تاركا إلى الفقراء والمرضى أن يتقدموه إلى الله حاملين مأ ادخر من عمل صالح وكلة طيبة.

مات هذا الكريم على حصيرة في غرفة حقيرة ، وماخلف غير السمعة الجيلة والأثر الحسن . فحمل الفقراء جثته ، ومنحوه

مَرَّتْهُم قبراً من قبور الصدقة في الأرض المشتركة !

أينها النفس الطاهرة الطمئنة! الكائن أنظر إليك الآن تشرقين في ذلك الوجه المهلل السموح!! هل وجدت عاقبة هذه الفضائل الغر وتلك المحامد المشكورة وهما باطلاوكذباً صريحاً؟ وهل تفنين فناء ضوء المصباح أنار لى عن وجهك ثم أطفأته؟ لالا! حاش لله أن يخدعك وأنت لم تخدمي في دنياك طفلا!

91

تعلق بى الطبيب وجعلى موضع اهتمامه ومكان عطفه ، ولم تخف عليه حقيقة دائى وإن لم يبح لى بما حرف عنه . إلا أنه أمر بى بالرحيل غافة أن يدركنى الموت . ثم أفضى إلى چوليا بما يتوقعه لى من المسكروه إن عصيته . واستمان بحنان الحب وسلطانه على أن ينتزعنى من بين أحضانه . ثم أخذ يسيننى مرارة الفراق بحلاوة الأمل ، فأمرنى أن أقضى زمنا بين أسرتى لتمود إلى صحى ، ثم أرتد إلى حمامات سقوا فأ نتظر چوليا هناك أو ائل الخريف . وهكذا فصلنا هذا الحكيم التماسا لنجاننا من عناق كاد يشفى بنا على موت النحناق لو استمر طويلا .

قبلت أخيراً أن أرحل أولا ، وأقسمت لي چوليا أن توافيني

على سقوا بمد قليل . وكان واأسفاه من مدامع عينها واصفرار وجنتها وارتجاف شفتها أوتق عين وأصدق عهد . ثم حُمَّ البين وأفد الفراق وضرب يوم ١٨ ما يوموعداً للرحيل . فأصبحنا نمد الدقائق بدل الساعات ، والساعات بدل الأيام ، وتمنينا على الله أن يجمع السنين في لحظة ، ويختصر اللغة في لفظة ، لنتمتع الآن عاسيسليه الزمن من سعادتنا أثناء الغيبة .

لقد كانت هذه الأيام أيام نعيم ولذة ، ولكنها كانت كذلك أيام عذاب ومحنة ! فقد كنا نحس فى كل مقابلة ، وكل مصافحة ، وكل نظرة ، وكل كلة ، برودة الفدالقريب والبين الحتم . والسمادة على مثل هذه الحال لا تسمى سمادة ، وإنما هى لوعة القاب ولذعة الحب وحرقة الحوامح .

جملنا للوداع عامة اليوم السابق ليوم الرحيل، ثم اخترنا أن يكون في سكون الخلاء تحت نظر الساء وبين أحضان الهواء لافي ظلام المنازل التي تكظم النفس و تظلم المين، ولا بين المواذل الذين يفتون الكبد و يصدعون الفؤاد. والطبيمة شريكة الإنسان في شموره، ومشاطرته في حزنه وسروره.

وفي صباح ذلك اليوم ركبنا عربة كنت أكتريتها من قبل، فاجتازت بنا وهي مفلقة النوافذ مُرْخاة الستائر شوارع الأحياء العليا من باريس تقصد حديقة (مُنْسو) . وكانت هذه الحديقة عبوسة إذ ذاك على نزه الأمراء الذين علكونها ، فلا مدخلها داخل إلا بإذن ، ولا ينال هذا الإذن إلا قليل من الغرباء أو المفتو نين بسحر هذا الفردوس. نلت هذا الامتياز عمونة صديق من أصدقاء أى له عنزل هؤلاء الأمراء صلة وثيقة . ووقع اختياري على هذا الروض لأنى أعلم أن الأمراء غُيَّت ، وأن الدخول إليه الآن منقطع، وأنالبستانيين أنفسهم تركوه ليحتفلوا بيوم عيد وعطلة . فني هذا اليوم لم ينش هذه الرياض الأريضة ذات الماء السلسال ، والظل السجسج والأعمدة المرفوعة والأطلال الصنوعة ، إلا نحن وأشعة الشمس وحشرات الأرض وأطيار السماء. ولمُ تُسق ووايلتاه أوراقُها ووَرَاقُها (١٠) عنل ما سقتْها مدامسنا الثرَّة المُهلَّة!! على أنناكنا كلا دفؤ الهواء وصفت السماء وتصارع الظل والنور على العشب المكتمل ، وخررد البلبل تغريد الطروب الثيل ، وانمكس النوروالنورعلى صفحة الجداول الصقيلة ، واستضحكت

 ⁽١) الوراق خضرة الأرض: الجازون

ثنور الربيع في هذه الربى الجليلة ، ارتدت هذه البهجة في نفوسنا كآبة ، وغشيت قلوبنا الحزينة من صفائها سحابة فوق سحابة . ولَكُم حاولنا في غير طائل غادعة أنسنا بالنشاط والانبساط إلى روعة المناظر ، وبهجة الأزاهر ، وعبير النسيم ، وكثافة الظل ، وصلاحية هذا المكان لإيواء عالم الحبين بأسره !! فألقينا عليه من باب المجاملة نظرة ذاهلة ، ولكنها سرعان ما ارتدت إلى الأرض! وأردنا أن نتبادل كلات الإعباب والجذل ، ولكنها أسفرت عن نضوب المنى وعزوب الفكر . لقد كانت أفكارنا في مكان آخر!!

كذلك حاولنا أن نقضى ساعة الوداع الأخير تحت ظلال الأشجار المطرة ، أو فوق قطع الأعمدة الخضرة ، أو على حافة الجداول السيبة النضرة ، فا استقر لناحال ولا سكن لنا بال ولا المأن بنا خاطر ، فا نكاد نختار مكاناحتى يساورنا القاق والضجر فنتركه إلى غيره . هنا الظل ، وهناك النور ، وهنالك هدير الشلال أو هديل المندليب ، ولكن هذه الأشياء كانت تحول في نفوسنا هذه اللذة ألما ، وتقلب في عيو ننا ذلك المنظر قبحا ! متى التاع هذه اللذة ألما ، وتقلب في عيو ننا ذلك المنظر قبحا ! متى التاع القلب بجمرة الهم لا تزده الطبيعة كلها إلا هما وسأما ؛ وجنة الفردوس إذا أصبحت مكاناً لوداع عاشقين كانت أشدمن الجحيم

عذابًا وألمًا . انتهى بنا الكلال من طول المطاف إلى أن جلسنا قريباً من قنطرة على جدول . جلسنا متباعدين مسافة غير قصيرة ، كأن صوت أنفاسنا كان يضايقنا، أوكأننا أردنا بدافع الغرنزة أن يخفى كل عن أخيه هَنين نحيبه المكتوم وقد أوشك أن ينفجر. أطلنا النظر في ذهول إلى الماء المخضر الراغي وهو يغور بطيئاً تحت عقد القنطرة ، تارة محمل معه ورقة بيضاء من أوراق السوسن ، وتارة يكسح عشًّا خالياً من أعشاش الطيور رمي 4 الهواء من فوق الشجرة . فرأينا على حين بنتة جثة طير غريق من طيور السنونو قد حملها المـاء حتى غيبها رويداً رويداً في حنيَّة القنطرة . وما كادت تتوارى جثة الطائر حتى أقبل طائر آخر من جنسه وأخذ يقع ويقوم ويُسيف ويحوم حول القنطرة وهو يئن أنين الحزين ويضرب بجناحيه أحناء المقد. فتبادلنا النظر عزر غير عمد. وما أدرى ماذا قالته عيو ننا حين الْتَقَيّْن . غير أن يأس هذا الطائر المسكين قد صادف مناجفو نا مترعة ، وقاو با موجمة ، فأدار كل منا ظهره لأخيه ثم انفجرنا بالبكاء . كانت العبرة تبعث المبرة، والفكرة تجر الفكرة، والطِّيرَة تجلب الطيّرَة، والزفرة تستتبع الزفرة. ولقد عالجنا الكلام مراراً فتكسرت نبراته في حلوقنا حتى عاد أنيناً وحشرجة . فنزلنا على حكم الطبيمة ، وظلمنا نذرف صامتين كل مانى مآفينا من دموع ، حتى تخضّل النبات وتبلل الثرى ، وحتى لم يبق من الدمع قطرة فى عيو ننا ، ولا من الهم نقطة فى قلوبنا . ذلك كان وداعنا : صورة محزنة ، ودمعة هاطلة ، وصمت أبدى ! ثم افترقنا وكلانا لا يستطيع معاودة النظر لأخيه نخافة أن يخر إلى الأرض من صدمة النظرة .

حرام على هــذه الحديقة بعد أن شَهدتْ وداعنا ، وفرقت اجْماعنا ، أن تشهد ثانية وفودى إليها ، أو ترى آ ثارقدى عليها 11

94

وفى صباح اليوم التالى كانت المجلة تدرج بى على هضاب (ميدى) الجديبة والمقل شارد والجسم هامد واللسان صامت والرأس مدثر فى معطفى ، وحوالى خمسة أو ستة من دهاء الناس يتحدثون فرحين عن نوع النبيذ وثمن الغذاء فى الحان . فقطمت هذه المرحلة الطويلة الثقيلة دون أن تأبه أذناى لحديث ، أو تنفرج شفتاى عن كلة . ولما بلغت عرين الأبوة وعش الأمومة لقيتنى أى بحنانها البسوش الذى يرد الشقى سميداً . وماذا لقيت مى ؟ لم تلق وا أسفاه إلا جسما ناحلا ولو تا حائلا وقلباً ذاهلا وشباباً عاطلاوياً سا قاتلا عزته هى إلى سأم الفراغ وستم الخيال ، وأخفيت عاطلاوياً سا أعالى ، وأخفيت

أنا مبعثه الحقيق حتى لاأمنيف إلى آلامها ألما لا طِلب له ولا برء منه ، فلم تجد بدا من أن تبعث بى إلى واد من الأودية الخلاء لنا فيه مزرعة مستأجرة تعمل فيها أسرة نشيطة ، رجاة أن أجد في هواء الجبال متنفساً من الحم ، وبين هذه الأسرة ملتمساً من العزاء ، فقضيت الصيف وحيداً في هذا المكان لا يشغل ذرعى إلا عد الأيام التي تفصلني عن لقاء چوليا في وادى الألب ، ولا علاً فراغي إلا الرسائل التي أكتبها إليها أو التي أتلقاها منها .

وكانت هذه الرسائل المُتية الرقيقة حرية أن تجلو ما ران على قلى من صدا الهم يوم الوداع . ولسكن بعضاً من كلسات الأسى والجزع كان يسيل من شق يراعها الحين بعد الحين عن غير قصد ولا روية ، فيكون أشبه بالورقة الذابلة بين أوراق الرسع النضيرة النضيرة . وأراها تناقض ما تحدثنى عنه من هدوء بالها ووفور صحتها ، فكنت أعزو هذا التنافر النادر إلى شجون الذكرى أو إلى إبطاء الزمن .

ثم كان من جفاف الهواء فى الجبل ، وطيب الرقاد فى الليل، ولذة الاستراصة بالنهار ، والعمل البدنى فى الحديقة أو فى المرج، فضلا عن اقتراب الخريف ودنو اللقاء ، أن مسح الله ما بى من صنى الجسم وشفوف الألم . فلم يبق من آثار السقم إلا انقباض

لطيف يبدو على ملامح وجعى بُدُو الضباب الرقيق على حاشية الصباح الجيل ، وصمت عميق كصمت الخفاء وعمق السر ، وعزلة عن الأنس أوجمت المسعوذين منهم أنى مؤاخ للجن . لقد أمات الحب في نفسى كل مطمع ، فرضيت من الحياة الدنيا بالنصيب الأخس من خول وفقر ، وأصبح كل ما أعناه على الله أن أعمل يبدى أو بقلى عشرة أشهر في السنة ، فأجع من المال ما يمكنى من الميش بجانب چوليا شهرين في كل عام . حتى إذا ما فجمها الموت في الشيخ جملت نفسى في خدمتها ، وقت له امقام روسو للسيدة دقرنس ، وعشت معها تحت ظلال الحب في كوخ من اكواخ هذه الجبال ، أو في جوسق من جواسق سقوا ، غير آسف على هذا المالم الفارغ ، ولا مبتغ من الحب جزاء غير السمادة بأني أحب !

. 98

على أن شيئاً واحداً كان يوقظنى من هذه النفوة، ويزهجنى أثناء هذا الحلم : ذلك ما كانت تكابده الأسرة من الفقر المدفع والضيق الموجع ، مما أعقبته نفقائى الضائمة ، ونقص الثمرات أعواماً متتابعة . فكنت كما ذهبت يوم الأحد أزور أمى كشفت

لى بدممها الحاطل وألمها القاتل عن اشتداد الأزمة واستحكام اليأس يما تسر نبأه عن أبي وأخواتي . وكنت أنا في تلك الآنة قد بلنت الغابة القصوي من الموز والفائة . فأنا أعيش في المزرعة على الخيز الأسود مأدوماً باللبن والبيض ، ولم أجد أجرة البريد عن رسائل حوليا إلا ببيم ما أملك من متاع وكتب. ومع ذلك فقد شارف سبتمبر تمامه ، وكتبت إلىَّ جو ليا تقول إن قلقها على زوجها العليل محبسها بباريس أكثر مما كانت تظن ، وتطلب إلى أن أبادر بالسفر إلى سڤوا فأنتظر قدومها إليه آخر أكتوم . وتلك كانت خدعة من خدع الحب الطاهر عمدت إلها إخفاء لآلامها وإقصاء لحمى. وكانت رسالتها مشرقة السطور بنصائح الأخت الحنون للأخ العزيز . تأمرني مدالة الحب وسلطانه أن آخذ حِذْري من داء يكمن في إهاب الشباب النضر فلا يزال يذويه ويضو 4 حتى يفتك مه في الساعة التي ترجو فمها الظفر مه والانتصار عليمه . و بين مطاوى هــده الرسالة إشارة من طبيعها وطبيبي الدكتور الشفيق (ألن) ينذرني فيها بسوء العقى إذا لم أقض مدة طويلة في ربوع إكس وحماماتها . فأطلمت أي على هذه الإشارة لتكون ذريمة لى إلى السفر . فلما قرأتها بدا عليها القلق ونال منها الهم وضمت رجاءها إلى أمر الطبيب . ولكن وا أسفاه ما كان في

مقدورى أن أجد النزر اليسير من نفقات الرحلة ولا التافه الحقير من متاع السفر . على أن أمى فى ليلة واحدة وجدت فى قلبها مورداً لهذا المال ، وما يستطيع غير قلب الأم أن يهتدى إلى هذا المورد!

90

كان في زاومة من زواما الحديقة التي تكتنف بيت الأسرة أَيْكُةٌ صَمْيَرة مؤلفة من ثلاث شجرات من شجر الزيزفون وسنديانة خضراء وثماني دوحات من باسق الشحر ؛ وهي كل ما يق من غامة قدعة المهداجتثوا أشحارها ليخطوا فوقها الستان ويرفعوا عليها البيت . كانت هذه الأشحار الجملة الظللة منتدى الأسرة ومتفيأها أيام الصيف . وكانت براعمهـا في الربيع واختلاف ألوانها في الخريف وسقوط أوراقها في الشتاء، تمين لنا أوقات الفِصول . وكان ظلها وهو يتقلص تحت جذوعها أو يمتد بسيداً عن فروعها ، أتم دلالة على ساعات النهار من الساعة . وكانت أمى تفذينا وتناغينا وتهدهدنا وتدربنا على المثبي تحت ظلالها. وكانأبي إذا ماعاد من الصيد جلس تحتما وكتابه في مده، وبندقيته اللاممة مملقة على غصين من أغصانها ، وكلامه اللاهثة راقدة في ركن من أركانها . وأنا نفسي قضيت ألذ ساعات الحداثة في

فيتُها، أنم بقراءة هوميروسأوتلياك، وألذبالاستلقاءعلى المشب الدافئ وأماى الصفحات منشورة تثب علما من حين إلى حين عظامة أو ذبامة . وكانت البلابل تطرب البيت بأغاريدها الرخيمة المذمة دون أن يعرف أحد مبعث أصواتها ، أو يقف على مكان أعشاشها . كانت هذه الأيكة مجد الأسرة وذكرى الجدود ومهوى الأفتدة. فتحويلها إلى كيس من الدنانير لاتبعث ذكرى ولا تسر نفساً ولا تظل أسرة لا يخطر على قلب أحد . اللهم وفلدة كبدها. خطرت هذه الفكرة ببال أي ، فلم تكد تستيقظ من النوم حتى أسرعت محكم غريزتها وصدق عزيتها إلى دعوة الحطاب وأمرته أن مجتث هذه الشجرات بسرعة قبل أن تعلمي مخافة أن يبدو لها ، أو أحول أنا ينها وبينها . ورأت بسيها الباكية فأس الحطاب تعمل في جذور هذه الشجيرات ملجأ صباها ، وشاهد لهموها وهواها ، فأشاحت توجهها ، وجملت أصابعها فى أذنها ، حتى لاتسمع أنينها ولا ترى سقوطها على أرض الحديقة المارية الجديبة!

وفي وم الأحد التالي بينها كنت عائداً إلى (ميلي) بحثت بميني من فوق الجبل عن لغيف الشجر الذي كان يجمُّل الهضبة ويظلل البيت، فلم تقع عيناي منه إلا على جذور مبتورة، وجذوع منشورة ، وأغصان منثورة ، وآلات منصوبة كآلات المذاب، ونشارين يجز ونها جز الرقاب الخيل إلى أنى في حلم . وهرولت إلى السور وفتحت باب الحديقة الصغير بيد ملتهية وأعصاب مضطربة ، ونظرت فلم أرّ قائمًا والهفتاء غير السنديانة وشجرة واحدة من شجر الزنزفون ودوحة من الأدواح الثمان جملوا تحتمها المقمد . ورأتني أمي فأقبلت إلى وارتمت بين ذراعي وهي تنهنه دممها المصبوب وتقول : حسبنا هذا ! إن فيما يقي كفاية ! وإن ظل شجرة واحدة ليمدل عندي ظلال غاة بأسرها، ولكن ليس في ظلال الأرض قاطبة ما يساوي ظلك. ولقد كتبت إلى أبيك أقول له إن الشجر قد آفَ ولا بدأن يمدى البستان ويؤذي الزرع إذا ترك. فلا تلمني على شيء، ولا تلْحَني في واجب، ولا تحدثني هذا الحديث بمد!!..ثم قادتني إلى البيت وفتحت خزانتها فأخرجت منها كيساً من الدنانير مملوءاً إلى نصفه ، وناولتني إياه وهى تقول: خذ هذا المال ياولدى وسافر! وإذا ردَّك الله على موفور الحظ من المافية ، معمور القلب بالسمادة ، كان لى من ذلك الثمنُ الأوفى لهذا الشجر. فددت يدى خجلان ولهمان باكيا ، وأخذت الدنانير منها وفى عزى أن أردها إليها ، تخفيفا من عده الهم على وعليها.

97

سافرت على قدى في لبسة الصائد. فعلى الساقين (دُولك) من الجلد، وفوق الكتف بندقية من بنادق الصيد. ثم أخذت من الكيس مأية فرنك وخلفت الباقي سراً في المزرعة حتى أرده هذا المال ، وهو ثمن قطعة من كبدها . ومضيت أطم وأنام في الفنادق الحقيرة من كل قرية . وسبق إلى ظن الناس أنى طالب سويسرى فقير يمود من جامعة استرسبورج فلم يكافونى غير الضرورى من ثمن الخبز والنور والفراش . ثم تحققوا صحة ما زعموا حين رأونى أقرأ في كل مساء أمام الدار (آلام قرتر) بالألمانية ، وماكنت أحل من الكتب غيره .

على هذه الحال اجتزت مضايق (بورجي) وعبرت الرون

لدى صغرة (بيبر شاليه) وتسلقت جبل القط من شعاب صيادى الوعول. فلما علوت قته اطلعت فى الحضيض فرأيت أودية إكس وشمييرى وأنيسى ، وأبصرت البحيرة قد رقطتها أشمة الأصيل الحفاقة بصبغ الورد ، فتمثل فى نفسى وأشرب حسى أن صورة واحدة تملا رحب هذا الأفق ، فعى تبدو من جواسق الجبل ، ومن حديقة الطبيب ، ومن تين (بون بور) ، ومن كستناء (تريسرڤ) ، ومن خابات (سنت إنوسنس) ، ومن جزيرة (شاتيلون) ، ومن الزوارق الداخلة فى المرسى ، ومن كل ما أدى من أرض وجو وموج

فِئوت أمام هذا الأفق الممور بهذا الخيال، وفتحت ذراعى وضمتها كأنى أعانق نفسى بعناقى النسيم الهاب على مسارح سمادتنا، ومواطئ أقدامنا . ثم جلست خلف صخرة أتأمل وأتخيل وأثمثل حتى مست الشمس قم الثلج من (نيڤوليكس)

لم أرد أن أعبر البحيرة ولا أن أدخل المدينة في ضوء الهار، فان خشو له ملبسى وجشو بة عيشى وضيق ذات يدى كانت تبدو للقاطنين في منزل الطبيب والنازلين به شاذة غريبة ، وتناتض كل المناقضة ما كنت عليه في المام الماضي من أناقة الملبس وحسن الشارة وخفض العيش

فوطنت نفسي وعقدت عزمي على أن أتسلل بالليل إلى قرمة صغيرة من أرباض المدينة أعرف مها خادمة فقيرة تدعى (فنشيت) قد أُعْتَدَتْ في كوخها الحقير سريراً أوسريرين لتعول فيهما مريضاً أو مريضين من ذوى المتربة بأجر زهيد. وكان صديق لويس قد سبق إلى هذه الفتاة فاحتجز لي سريراً في الكوخ وكرسياعلي المائدة ، ثم وعدني أن يتلقى رسائل باريس على عنو أنه في شميري ، ثم يبعث بها إلى مع سائق من ساقة المركبات التي تنتقل على الدوام من مدينة إلى أخرى . وكنت مضطرا أثناء مقامي في إكس أن أحتس طول المار في الكوخ أو في البساتين القريبة ؛ فإذا أرخى الليل سدوله خرجت فصعدت إلى يبت الطبيب من وراء المدينة فأدخله من باب الحديقة المفتوح على الخلاء ، ثم أقضى له ساعات المساء في خلوة حلوة و تأمل لذيذ . لو أنني عانيت أضماف ما أعاني من ذلة وقلة لكان في هذه الساعات المباركة أوْفي الجزاء عن مهانتي ، وأسمى العوض من فاقتي .

94

حررت خطاى في طريق من جبل القط إلى دير المتكمب على أن أصل إليه يوم جم الله قلبينا برباط الحب في منزل الصياد.

فمن الضفة الممودية التى تنحدر من قُنَّة الجبل أم و البحيرة لاح لى من على الشهال أطلال الدير وظلاله مرنومة سوداء على صفحة المساء. ولم يكن غير دقائق معدودة حتى بلغته ، وكانت الشمس قد غرقت وراء الألب ، وشفق الخريف قد سحب على الجبال والوديان والشطئان والأمواج ذيله الضافي المذهب .

لم أقف على الأطلال ، بل أجَزْت البستان الذي جلسنا فيه تحت كومة المرعى ، وكانت لا تزال على حالما تلك ، إلا أنك لا تبصر ضوء النارمن زجاج البيت، ولا الدخان من فوق السطح، ولا الشُّبَاك مملقة على سور الحديقة . قرعت الباب فلم يجب أحد، فعالجت الرَّاج فانفتح من نفســه ، ودخلت القاعة فإذا الوقد مكنوس ، وإذا الأثاث مرفوع ، وإذا البلاط مغطى بالقش والريش المتناثر مرن أعشاش السنونو الخاوية . صمدت السلم الخشي إلى الغرفة التي أفاقت فيها جوليا من الإغماء، واستجمَّت من الإعياء ، ودخلتها دخول العامد المحراب ، ثم أجلت فيها النظر فإذا السرير والخزانة والكرسي مفقودة ، وإذا طائر من طيور الليــل أفزعته خطاى فحرك جناحيه وضرب بهما الحائط ، ثم استقلهما ناجيًا بنفسه من النافذة . تلمست المكان الذي جثوت فيه بجانب چوليا وهي منمي عليها من النرق فن بعد لأي عرفته

فقبلته . وأخنت عيني تطلب في جنبات الكوخ إنسانا أسأله عن مصير أهل هذه الدار فا وقعت على أحد . فغلب على ظنى أن تأخر الحصاد عافها في الجواسق العليا من الجبل ، وأنهم لا ينزلون مهما إلا في الشتاء . فصح عزمي على أن أقضى الليلة بهذا الكوخ في الموضع الذي كانت تكابد چوليا فيه الموت . فبنت يضيف من العشب الطرى وبسطته على أرض النرفة ، ثم أخرجت من جرابي رغيفاً من الخبز وقطعة من الجبن وذهبت أتعشى على حافة الينبو ع الذي كان يجرى ثم يقف على التعاقب كان مجرى ثم يقف على التعاقب كان مجرى ثم يقف على التعاقب كان مجرى ثم يقف على التعاقب

99

لقد كان من حفاقى هـ ذه الهضبة ومن أشراف هذا الدير في وقت الأصيل منظر ساحر هو لقلوب المختلين ومشاعى المفكرين ونفوس الحبير مُسْتراد وفتنة . فهنا ظلال الجبل الأخضر الندئ ، وخرير الينبوع الحلو الشجئ ، وحفيف الورق الظليل الرخى ؛ وهناك أظلال الهيكل أوحشها البلى ، وصدوع الحوائط غشاها اللبلاب ، وأروقة الدير عمها الظلام وكمن فيها السر، وأمواج البحيرة المزيدة تموت واحدة فواحدة على سحيق السر، وأمواج البحيرة المزيدة تموت واحدة فواحدة على سحيق

الرمل أو على وعر الصخور ؛ وهنـالك المَدْوة الأخرى تجد الجبال الزرق تكسوها الظلال الشفافة ، وترى على اليمين لدى رجع البصر ذلك الدرب المستنير خلمت عليه شمس الأصيل حلة أرجوانية!

غصت بنفسي وحسى في هذه الظلال والأنوار والأمواج والسعب، وامتزجت بهذه الطبيعة، وامتزجت بي صورة الحبيبة، حتى أصبحت هي الوجدان والزمان والمكان والمنظر : فهذا هو المكان الذي لحت فيه زورقها يصارع الموت ، وذاك هو البستان الذي تساقطنا فيه شعى الحديث وتبادلنا به حيَّ النظر ، وهناك أمالى الحور تظلل ذلك الطريق اللاحب الذي ينساب في الأرض انسياب الأرقم الأخضر قد خرج من الماء ، وهنا الجواسق والمخاضر وأدواح القسطل والطرق الجبلية التى كنت أقطف من حفافها الزهور وأجنى الفريز والكستناء ثم أملاً ميدعَمَّها ، وفي هذه البقعة حكت لي خبراً من الأخبار ، وفي تلك محت لما بسر من الأمرار ، وتحت هذا اللفيف من شجر الحور السليب إذ ذاك من ورقه ودعتني ووعدتني أن تراني قبل اصفر ار الأوراق الجديدة . وهاهى ذى الأوراق أوشكت أن تصفر ، وكذلك جوليا أوشكت أن تمود . فإن الحب صادق الوعدمستول العهد . على

أننى أراها الآن 1 ألست هنا فى انتظارها ، ومرــــ انتظر فكاً 4 نظر 11

1 ...

على أن الليل كان قد نشر ذوائبه على البحيرة فلم تمد البيون تبصر الماء إلا من خلال صباب أدكن قدرصص (۱) وجهه. فني ذلك الصمت المبيق الشامل الذي يسبق الظلمة قرع سمى صوت مجدافين يدنوان من الشاطئ ، ثم ما لبثت أن رأيت في عرض البحيرة نكتة تتحرك على وجه الماء ، فتبينها فإذا هي زورق ينساب نحو الخليج المجاور لمنزل الصياد ، فطنته إياه عائداً من شاطئ شفوا إلى بيته المهجور ، فهبطت من الطلل إلى الساحل مسرعاً إلى لقائه . فلم أكد أبلنه حتى رأيت الزورق يرسى ، والنوتى ينزل ، وهو يصبح بي قائلا : « لمك يا سيدى الفتى الفرنسي النازل في بيت (فنشيت) ؟ إن كنت إياه فدونك هذه الرسالة فقد كلفت بحملها إليك».

داني ثقل الرسالة على أنها تنضمن رسائل كثيرة. ففضضت الغلاف الأول عن رقعة قرأتها في ضوء القمر فإذا هي من صديقي

⁽١) رصم وجهه : طلاه بالرصاس أو لوله باوله :

لويس كتبها إلى في صباح اليوم يقول فيها: إنه أعد في المسكن عند الخادم (فنشيت) وإنه لم يقدم أحد من باريس إلى الآن ، وإنه حين علم منى بقرب وصولى إلى دير الهتكمب كلف هذا الرجل الثقة أن يلقى إلى وهو مار بالدير هذه الرسائل التى وردت إلى من باريس منذ يومين ، فلا ريب أنى شديد الظرا إليها . ثم أضاف إلى ذلك أنه قادم غداً إلى بنفسه لنعبر البحيرة مماً ولندخل المدينة تحت جنح الليل .

1.1

كنت أمسك يدى وأنا أقرأ هذه الرقمة رزمة الرسائل فأحسستها ثقيلة على أناملى ، ثقل الهم والشؤم على كاهلى . فنقدت الملاح وصرفته بعدأن التمست منه عقباً من الشبع أقرأ على ضوئه هذه الكتب . ثم عدت إلى الغرفة العليا وأنا أطفر من الفرح وأنزو من النشوة ، وفي اعتقادى أنني سأمتع نظرى بخط الحبيبة ، وأسر نفسى برقيق كلامها وخبر قيامها . فجلست على ضغث المشب الذى فرشته ، وأشملت الشَّمتدان وتناولت الرسالة الأولى فإذا هى عنومة الفلاف بالسواد ، مكتوبة المنوان بخط الدكتور (ألن) ، وإذا بدلائل النمى في مواضع البشرى ! . فشت في جسمى رعدة

الخوف ، وجاشت فى صدرى غصة الهم ، وسقطت من يدى على ركبتى إضامة الرسائل الأخرى وكانت على حدة ، ولم أجرؤ على أن أقرأ منها كلة مخافة أن أجد فيها واأسفاه ما لا تستطيع محوه الحيلة ولا البكاء ، ولا الدمع ولا الدعاء ، ولا الأرض ولا السماء ... وهو الموت ... على أننى قرأت مع فرط ما بى من شدة اضطرابى واختلاج أعصابى هذه الكلات :

«كن رجلا! وفوض أمرك إلى الله الذي لامرد لقضائه ولا مُعَقَّبَ لحكمه !! لا تنتظر أحداً ...! ولا تطلبها على الأرض، فقد صمدت إلى الساء لاهجة باسمك في مشرق يوم الخيس أفلت شمسها المنيرة ، وفاضت نفسها الكبيرة لقد أفضت إلى عكنون سرها وجلة أمرها قبل أن نموت ... وكلفتني أن أبعث إليك بآخر آثارها ونهاية أفكارها، فقد ظلت تكتب إليك حتى جمدت أناملها على القرطاس فوق اسمك ... أحبّها في المسيح الذي أحبنا حتى الموت ، وتمز عنها عزاء جميلا ، وعش لأمك طويلا ا ا ي

سقطت على الفراش هامد الجسم فاقد الرشد لا أرتمز ولا أعى . ولم يثب إلى حسى إلا بنفحات الهواء الصرصر عند نصف الليل . وكان الشّمَعدانُ لا يزال مضيئًا ، وأصابعي لا تنفك معقودة على كتاب الطبيب ، وإضامة الرسائل ساقطة من حجرى على أرض الغرفة . ففتحتها بشفتيًّ كأ نني خشيت عليها من يدى أن تلسمها فتدنسها . فانتثرت منها على ركبتى طائفة من الرسائل الضافية منمقة بيراعة چوليا ، ومرتبة على حسب تواريخها .

وهاك ما حوته أولاها :

« رفائيل ا أى رفائيل ا أخى رفائيل ا إغفر لأختك خديمها إياك هذا الزمن الطويل ! . . . فا كان فى أملى ولا مرجوًى أن أراك ثانية فى سفو ا . . . القد كنت أعلم أنه لم يبق من عمرى إلا أيام ممدودة ، ولا من نفسى إلا حُشاشة بجهودة . فهمات أن أعيش حتى أحظى بهذه السمادة ! . . . أنذ كر يا رفائيل ساعة قلت لك : (الى اللقاء) لدى باب حديقة منسو ؟ إنك لم تفهم ماذا كنت أعنى بهذه الجلة . لقد كنت أريد أن أقول : « إلى اللقاء !

لقد أوصيت الطبيب أن يخدعك هو أيضاً ليحمك مى على ترك باريس ، فقد كنت أريد حمّا أن أقيك هذه الفجمة المحرقة تجدمسمها من قرب فتقطع حشاك و تضمضع قواك ... كذلك اغفر لى يا رفائيل ما سأعترف لك به الآن 1 لقد كنت أكره أن ترانى أموت ، فضر بت بينى وبينك حجابا من البمد حتى لا ترى سريان البلى فى جسمى الممود !! آه! ما أقدى الموت وما أشد برده! إنى أحسه ، وأراه ، وأشعر به يدب فى جسمى ويفزعنى من نفسى . . . !

لقد كان متمناى يا رفائيل أن أترك فى عينيك صورة من الجنال تتأملها و تعبدها ، ولكن الرجاء خاب ورائد الأمل ضل ... فلا تسافر يا رفائيل ! . . . ولا تنتظرنى فى سقوا . . . ف هو إلا يومان أو ثلاثة ثم لا ترى لى أثراً ولا تسمع منى خبراً فى أى مكان ! سأ كون هناك يا رفائيل ! وسأحل داعاً فى كل مكان تحله !

وكان على هذا الكتاب قطرات من الدمع أزالت صقاله وخددت صفحته !

ثم رسالة أخرى كتبتها في اليوم التالى تقول فيها :

نعف الليل في . . .

«رفائيل ا . . . إن صاواتك ودعواتك أنزلت على من السهاء رحة وبركة . لقد ذكرت بالأمس شجرة العبادة في سان كلود ، وهي الشجرة التي في فيتها رأيت اقد من خلال نفسك . إن شجرة الصليب أطهر منها وأقدس فأنا طول النهار أعانقها ولا أفارتها . . . أواه ! ما أجل أن يظل المرء تحت هذه الدماء وتلك الدموع التي تطهره و تعطره !! بالأمس دعوت قسيساً كان يحدثني عنه (ألن) فألفيته كهلاً شامل العلم كامل الفهم واسع المنفرة ، فكشفت له عن دخيلة نفسي فنمرها بنور الله وفضله . المنفرة ، فكشفت له عن دخيلة نفسي فنمرها بنور الله وفضله ما أكرم هذا الوالد وما أعظم عفوه وأقل علمنا ه!! إنه لا يسخطه أن أحبك وأن تكون أخي ! ويرضي أن أظل أختك في الدنيا إذا عشت ، وملا كك في الآخرة إذا مت . . . فلنحبه يا رفائيل لأنه شاء أن تحاب كما تحاب كا تحابينا

وفى ذيل هذا الكتاب رَسْمُ صليب صنير ووَسْمُ قبلة من حوله ا وثُمَّ وسالة ثالثة كتبتها بخط متشابك الحروف مطموس الكلمات مختلط السطور تقول فيها :

ورفائيل! إنى أريد أن أقول لك اليوم كلة أخرى ... فلملى في الغد لا أستطيعها ... ! إذا أنامت فلا تمت أنت ! ... فإنى سأعنى بك في السماء ، وسأكون برة قادرة كذلك الإله الكريم الذي شاء أن يجمعنى به ويضنى إليه .

أَحِبَّ بمدى يا رفائيل ... وسينيح الله لك أختا أخرى تكون خليقة عواخاتك ، ورفيقة صالحة لحياتك ... أنا أطلبها لك من الله بلسانى وقلي ، فلا تخش يا رفائيل أن تؤلم بذلك نفسى في رمسى ، فإلى لا أغار في الساء من سمادتك في الأرض ، ولا أشعر بعد هذا الكلام إلا براحة القلب ورضا الضمير .

إن صديق (ألن) سيؤدى إليك مع هذه الكلمات خصلة من شعرى ، وإنى ذاهبة لأنام . . ! »

ثم يلى ذلك الرسالة الأخيرة وهى من سقم الحط لا تكاد تقرأ . فمالجت حروفها المتزاية وسطورها المتخاذلة فإذا فيها : « رفائيل 1 رفائيل ! أين أنت ؟ القد آنست من نفسى القدرة على ترك السرير ... وصرفت المرضة التي تسهر على طلباً الوحدة ، ثم زحفت على ضوء المصباح أتنقل من أثاث إلى أثاث حتى بلغت منضدة الكتابة ... ولكنى لم أعد أبصر شيئاً ... إن عينى تنشاها الظلام فهما تسبحان في ليل داج .. وإنى ألح على وجه القرطاس ممادير (۱) تطفو وتحفق ... رفائيل اإني أراني لاأستطيع الكتابة ... ولكنى أكتب إليك هذه الكلمة إمالا ! ... ، ثم تلى ذلك كلتان كتبهما محروف غليظة أشبه بتناشير (۱۲) الصبية عند أول عهده بالخط ، فشغلتا كل السطر وملاً تا ذيل الصحيفة ، وهما : «وداعا ما وفائيل !! »

3.1

تخاذلت أناملى من هول ماقرأت فتناثرت من بينها الرسائل على الأرض . ثم أخذت أنتحب من غير صوت ، وأبكى من غير دموع ، حتى وقست عيناى على رسالة أخرى نمقتها يد زوجها الشيخ ودستها بين الرسائل . فتناولتها ثم فضضتها فإذا فيها : «لقد انطفأ سراجها ويداها في يدى بعد أن كتبت إليك رسالتها الأخيرة بيضع ساعات . لقد فجنى الموت في ابنتي ه

⁽١) السادير: قط سوداء تتراءى للإنسان من ضف البصر .

⁽٢) التناشير : كتابة غلمان الكتاب لأ واحد لها .

فلتجملك الحياة ابنى مدى الأيام القليلة التى بقيت لى فيها ... إنها مسجًاة فوق سريرها كالناعة الحالمة ، وعلى أسرار وجهها سمة المتهل الباسم رأى من وراء الحياة شيئاً يسره . . أبداً ما رأيتها على هذا الجال ! وما عهدتها بهذا الحسن ! وإن إدمان النظر إليها على هذه الحال ليوحى إلى نفسى الشاكة عقيدة الحاود . لقد أحبيتك بفضلها ولأجلها ، فأحبني ! ! »

1.0

من سعادة النفس البشرية أنها لا تمتقد فى الحال بفقدان من تحب جملة واحدة .

فلقد كانت شواهد موتها مبثوثة من حولى، ولكنى الستطع أن أصدق بفنائها واستحالة لقائها طول الأبد . فإن فكرتها ، وصورتها ، وملامح وجهها، ونبرات صوتها، وذكاوة حديثها ، وصباحة عياها ، كانت مائلة فى عنى ، حاضرة فى ذهنى، حتى ليخيل إلى أنها أتم من قبل وجوداً، وأقوى على الحياة شهوداً ؛ وأنها لاترال تملاً كيانى، وتشغل وجدانى، فهى تحدثنى وتدعونى، وأننى إذا ما نهضت سعيت إليها فسلمت عليها . تلك فترة يفصل حا الذين اليقين بالخسارة وين الشمور بالحقيقة، كما تفصل الحواس

بين رؤية المين لهوى الفأس فوق الجذع وبين سماع الاذن لضربتها ترن طويلا بعد ذلك. تلك الفترة تخفف سورة الحزن وتكفكف غرب الألم بالمفالطة والخديمة ! إنك إذا فقدت من تحب فلن تفقده مرة واحدة ، وإنما يحيا فيك ردَحا من الزمن . وشبيه ذلك أن المين إذا أطالت النظر إلى الشمس وهي تغرب بقيت فيها أشمتها بعد أفولها وذهاب نورها ، لأنها لا تزال متلألثة في نفسك ، مشرقة في حسك . وهيهات أن تدرك الفقدان التام والحرمان المطلق إلا إذا آدرك شعورك القصور وحدده الفتور ، فتستطيع حيننذ أن تقول : « لقد ماتت في اله

ذلك لأن الموت لا يتم بالففدان، وإنما يتم بالنسيان!!

1.7

كابدت حزازة هذا الألم طول تلك الليلة على أشدما تكون لوعة وحرقة ! ولم يشأ الله أن أشتف كأس الألم في جرعة واحدة خافة أن شهلك نفسى غرقاً فيه . وإنما ابتلاني ثم آساني ، بأن جملي أتمثل في ومن حوالي وبين بدئ حضور تلك المخلوقة التي لم ير في الله إياما تلك الفترة القصيرة إلا ليوجه أنظارى وأفكارى إلى المكان الذي نقلها إليه وأنزلها ه .

ولما احترقت ذبالة الشمعة ضممت رسائلي إلى صدرى ، وقبّلت ما استطعت أرض هذه الغرفة التى كانت لغرامنا مهداً ، فأصبحت له اليوم لحداً . ثم تنكبت بندقيتى وخرجت أقتيم أفواه الجبال وعنارم الشعاب مولّه العقل شارد الله لا أهتد دى لطريق ولا أسير إلى غاية . وكان الظلام شديد الحلك ، والريح عاصفة الهبوب ، والبحيرة تقذف الصخور بأمواجها الموج ، فتحدث أصداء كأصداء الغيران ، وأصواتا كأصوات الإنسان ، حتى وقفت مراراً وأنا مكروب النفس مقطوع النفس إذ وقع في حسى أن أحداً بدعوني باسمى .

أواه ا أجل ا لم يخدعنى حسى ولم تكذبنى نفسى ، فقــد هتف باسمي هاتف ولكنه كان في السهاء!

1.4

أنا لا أذكر شيئًا عن ذلك الذي لقيني صباح للك الليلة سادم هائمًا على شفا الهاوية في صباب الرون فأنقذني وأعاني وأعادني إلى أحضان أي المسكينة ، فحسبه جزاء الله على معروقه وفضله!

والآن وقد أتى على هــذه الفاجمة عشر سنين لا أجد من نفسى القدرة على استذكار هذه السنة العظيمة التي ما زها القدر من سِني صباى . على أن الله قد أنجز لى وعد چوليا فأناح لى غاوقة (١) فتحت في وجهي أبواب الرجاء ، ومسحت على جواي بدالمزاء . فكنت كثيراً ما أزور معها وادى شميري ومحيرة إكس. فإذا ما علوت ربوة (تريسرف) وجلست تحت سرحات القسطل التي أحس لِعَاوها(٧) بوجيب قلب جوليا وهي تحتضنها ، ثم أبصرت هذه الجبال والثاوج، وتلك الأشجار والروج، وهذه الأسنان الصخرمة تغوص في جو حارّ كائما ينضح الأرض بسائل معطر معنبر؛ ثم ممعت الأوراق تحف، والنسيم يرف، والحشرات تطن ، والأمواج تئن ؛ ثم رأيت ظل قرينتي يرتسم بجانبي على الرمل أو المشب ، وجدت في صدري سمة لا تنقصها رغبة ، ودعة لا تشوبها رهبة ، واعتقدت حينثذ أني أرى روح تلك الفتاة الراضية السامية تبدو في كل ناحية من نواحي هذا الأفق مشرقة الوجود محققة الخلود ، فتملاً هذه السماء وهذا الفضاء وذلك الماء ، كانما مركة الله أفاضها على هذا الوادى الجيل!

(الی هنا انتهی تخطوط رفائیل)

 ⁽١) يريد بها لامرتين زوجته فقد كانت على قيد الحياة أيام نصر رفائيل
 (٢) المعاد : قصر الشعرة

مراثى لامرتين لجو ليا

كان حب لامر تين أو (رفائيل) ليحوليا من أقوى الأسباب في صفاء نفسه ودقة حسه، فتفتقت قريحته في رئائها عن شعر كنضور الزهر وأفواف الوشى . من ذلك ست قصائد بدأ بها ديوانه (التأملات) ، وهي من عيون الشعر الفرنسي وغرره . نترجم منها اليوم قصيدة (البحيرة Le Lac) وقصيدة (الوحدة L' Isolement)

في البحير 8

نظم لامرتين هذه القطمة الخالدة في بحيرة بورچيه من سقوا وقد وفد على إكس عام ١٨١٧ ينتظر قدوم چوليا إليها كامر بك فى سياق القصه ، وچوليا يومثذ كانت تكابد غصص الموت على سرير المرض فلم تلب نداه ولم تستطع لقاه . فزفر لامرتين هذه الزفرة وأرسل هذه المبرة من صدر مكروب وعين قريحة ، ثم عاد إلى (ميلي) شارد اللب مضطرم الجوانح . وهذه هى : أهكذا قضى الله أن نمخر فى عباب الحياة مدفوعين فى ظلام الأبد من شاطئ إلى شاطئ ، دون أن نمك الرجوع إلى ملماً ، أو الرسو ذات يوم على مرفاً ؟

انظرى أينها البحيرة! ها هو ذا المام قد كاد يشارف تمامه ، وأنا وحدى بجانب أمواجك الحبيبة أرتقب عبثا عودة چوليا إليها ، جالساً فوق الصخرة التي كنتِ تَرَيْمها جالسة عليها!

...

* * *

أتذكرين ليلة كنا فوق صفحتك بين اللاء والساء نجدف في سكون وصمت، وقد ضرب الله على آذات الطبيمة ، وختم على أفواه الخليقة ، فلا نحس حركة ولا نسمع ركزاً غير إيقاع المجاديف على أنشام الموج؟

وإذا بسوت لا عهد للآذان بمثله ينبعث من ضفتك الجيلة ، فشق حجاب السكون ، وأطلق لسان الصدى ؛ وهناك أنست الموج ، وأضنى الهواء ، وأخذ هذا الصوت الحبيب إلى يساقط هذه الكلات :

 « أيتها الأرض قنى دورانك ! وأنت أيتها السامات قنى جريانك ! ودعينا نتمتع بماجل لذاتنا ، وننيم بأجل أيام شبابنا .

إن كثيراً من صرعى الحياة وفرائس
 البؤس يتضرعون إليـك أن تسرعى بهم ،
 لتخفق من كربهم ، فاستجيبي إليهم ، وكرسى

مسرعة عليهم، وخذى مع محره الذاهب، ألم عذابهم الواصب، واتركى السمداء والناعمين غارين فى غفلات السيش وظلال الأمن!

...

وعلى أننى واويلتاه كلما لجبت فى الطلب، لج الزمان فى الهرب، فأنا أتمنى عليه المنى فلا تُعَقق ، وأستزيده البرهة البسيرة فلا أو فق ، فسألت منه الليلة أن تكون أطول وأمهل ، ولكن السُّولُ خاب وبازى الصبح قدافترس غراب الليل ا!

...

«فلنتساق إذن كؤوس الهوى دهاقا، ولنقض مآربنا عجالا، فليس لسفينة الإنسان مرفأ، ولا خضم الزمان ساحل: إن الزمان ليتدفق وإنا مع تياره نمر وغضى !

وأبها الزمن الحاقد الحاسد! أكذلك

قضيت أن عضى لحظات الأنس وسكرات الحب سراعاً كما عضى أيام الشقاء والبؤس!!

« ويلك ! أما نستطيع على الأقل أن نتبين آثارها ونلمح أتوارها ؟ وكيف ؟ أثراها قد ذهبت إلى غير رجمة ، وماتت إلى غير بمث ؟ واويلتاه ! هل انقضى كل شيء ؟ وهل الزمن الذي منحها وأعطاها ، والذي طمسها وعَفّاها ، لا يردها ثانية علينا ؟؟

...

« حدثنى أيها الأبد! أيها العدم! أيها الماضى! أيها الغور المعيق! ماذا تصنع بهذه الأيام التى تغيبها في أحشائك، وتطويها في أثنائك؟ أما ترجع إلينا ما سلبتنا من سكرات نبية، ومسرات جيلة؟

...

 الفابات المظلمة ! أنتن اللاتى يُبقى عليهن الدهر ، فيُجِدَّهن بعد البلى ، ويخصبهن بعد المَحْل ! فاحتفظن من هذه الليلة السعيدة على الأقل بذكر اها ، واندعجن على شذا! أرجها وطيب رَبًاها !

...

« لتبق ذكراها أينها البحيرة فى.

هـدوثك الشامل ، وعواصفك الهُوج ،
وهضباتك الضحوك ! لتبق فى هـنا الصنور الناهب فى الساء ، وفى وعر الصغور الملقة فوق الماء ! لتبق فى النسيم العابث بوجهك ، وفى الهدير المردّد بين صفافك ، وفى المكوكب الفضى يضىء صطحك بأنواره الرّخية الزهية !

...

« وليقل الهواء الذي يصغر ، والقصب الذي يزفر ، والنسيم المطر الذي يَشُوع الله ليقل كل ما نرى وما نسم وما نتسم ::
 « لقد كانا ماشقن ا !

الوحدة

استسلم لامرتين بعد فجيعته في حبيبته إلى الحم ، واستأنس بالوحدة ، واستكان للمبرة ، وخلا إلى الحزن في خاوات (ميلي) ومن هناك بعث إلى صديقه (قرير) بهذه القصيدة في ٢٤ أغسطس سنة ١٨١٨ وهي :

> جلست محزون القلب ، مستطار اللب على تُلَّة الجبل ، وتحت ُظلَّة السنديانة المتيقة ، أشيع شمس النهار وهي تفرب ، وأسرَّح بصرى في وجوه السهل وهي تتفير:

> > ...

فهنا النهر صخاب الموج ، جياش الزبد، ينساب في جوف الوادى ، ثم يضل في ظلام البعد ا وهناك البعيرة راكدة السطح ، راقدة الماء ، تترامى في جوانبها نجوم الليل ا

والطَّفَل لا يزال يلتى على رؤوس

الجبال الشجراء ومضاً من شعاعه ، وملك الليل قد أخــ فد يصعد إلى عرش السماء فى محقته الندية ، فأشرقت جوانب الأرض ، وازدهرت حواشى الأفق .

...

وناقوس الكنيسة الغوطى قد بدأ يقرع الهواء برنينه الدينى ، فكف الفلاح عن الممل، ووقف السائر عن المسير، واختلطت هذه الأرانين القدسة بما يق من ضوضاء النهار وصغبه!

...

ولكن نفسى كانت من كل هـذا خلية ! فما تبعث فيها هذه المناظر الجليلة ولا تلك الصور الجميلة نشوة ولا بهجة ! لقـد كنت أتأمل الأرض وكائهما ظل منتقل أو خيال طائف !

إن شمس الأحياء لا تدفئ الموتى !

فكنت أنقل عيني من الربى إلى الجبال ، ومن الجنوب إلى الشمال ، ومن طلمة النسق إلى حرة الشفق ؛ وأنهض (١) السهل والوعر ، والمأهول والقفر ، عسى أن أجد لنفسى سعادة في مكان ، أو أتوسم لقلي راحة في إنسان ، فلا أعود بطائل!

وما تصنع لى هذه الوديان والأكواخ والقصور ما دمت لا أجد لجمالها فى عينى روعة ، ولا لسحرها فى قلى فتنة ؟؟

أيها الأنهار والأحجار والنابات والخلوات العزيزة على ! إن غيبة مخلوق واحد من ربوعكن جعل عامركن خرابا، ورد أنسكن وحشة!!

سواء علىّ أتطلع الشمس أم تنرب ، وتصحو السماء أم تنيم ، ويظلم الليــل أم

⁽١) نفض المكان : نظر إلى كل ما فيه ليعرفه .

ينير الصبح ، فليس لى بنية فى اليوم ولا رجيّة فى الفد .

...

وحيما أرسل عيني تتبعان الشمس في مدارها الرحب القصى لا أبصر في كل مكان غير الفراغ والخلو ! لا حاجة لى إلى من تظله السماء ، ولارغبة لى فما تنيره الشمس.

...

ولكنَّ من وراء هـ ذا الفلك الدائر وهـ ـ ذه الشمس الساطعة أمكنة أخرى تسطع فيها الشمس الحقيقية ! فلو أتيح لنفسى أن تخلص من قفصها لرأت في تلك السموات. حبيبها الذي طالما بكت عليه وحنت إليه 1

هنا لك أتنشى من رحيق النبطة ، وأظفر بالأمل والمحبة ، وأنم بما تاقت إليه نفسى من مُتع لا تمر على سم ولا تدور بغَلَد. ما أعجزتى أن أطير إليـك وأنا مثقل بقيود المادة خاضع لجاذبية الأرض ! وليت شعرى لماذا قضى الله أن أبقى إلى الآن فى أرض المنفى وما تربطنى بها رابطة ، ولا تصلنى بأهلها صلة !!

* # #

إذا ما ذوت الأوراق في المرج ، وأسقطها قر الحريف في الوادى ، هبت عليها الشمال فقدمت بها أباديد ! وأنا بهدف الأوراق الذابلة أشبه ! فاحمليني أيتها الرمح كما حمليها ، وانثريني في وجود الفضاء كما نثرتها ، فما بعد الصباح إلا المساء ، وما بعد الأس والوحدة إلا الفناء!

